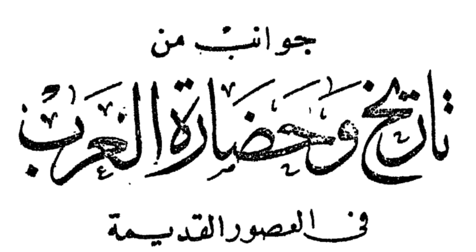
جوانب من

تاريخ وحضارة العرب

في العصور القديمة

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قناة السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦



دكتور
أحمد أمين سليم

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

إهداء

الى روح امى عنـــد بارئهـــا

بسـم الله الرحمن الرحيم

«ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير»

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعــد .

فلقد خرجت الطبعة الاولى لهذا المؤلف عام ١٩٨٧ ، وقامت بطباعتها دار النهضة العربية ببيروت ، ولقـد حاولت فى هذه الطبعة الجـديدة أن أزود الكتـاب بالحواشى الضرورية التى تعين الدارس على الرجـوع الى المعلومات فى مصادرها الاصلية ، كما قمت بتنقيح العديد من فصوله وزدت عليها فصلا عن دور المرأة فى المجتمع العربى القديم .

ويتكون الكتاب من خمسة عشر فصلا ، بداتها بفصل عن جغرافية شبه الجزيرة العربية ومواردها الطبيعية ، وناقشـت فى هـذا الفصل الاقسام الجغرافية لشبه الجزيرة العربية ومناخها وموقعها واثر ذلك على تاريخها السياسى الداخلى وأيضا على علاقاتها الخارجية مع العالم الخارجى سواء المحيط بها أم البعيـد عنها وتاثرت مصـالحه بموقعها ، كمـا اشرت الى مواردها الطبيعية التى تزخر بها واثر هذه الموارد فى تاريخها السياسى

وأشرت فى الفصل الثانى الى المصادر التى يعتمد عليها البـاحثون فى دراسة تاريخ العرب القديم ، وفيه اشرت الى المصادر الاثرية مبينا أهميتها التاريخية والحضارية وأنواعهـا وكيفية الافادة منها ، ثم ذكرت المصـادر اليونانية الرومـانية التى اهتمت بشـبه الجزيرة وتاريخها ، وبعـد ذلك المصادر العربية ،ثم أشرت الى المصادر الدينية وهى التوراة والقرآن الكريم.

وتناولت فى الفصل الثالث دراسة مبسطة عن طبقات العرب وقمت فى الفصل الرابع بدراسة دولة معين ، وتتبعت فى هذا الفصل موقعها واهميته الاقتصادية والسياسية ، ثم تتبعت تاريخها السياسى ونظام الحكم فيها ، ثم

أشرت الى الدور الفعال الذى قام به أهل معين فى انماء التجارة مع الشمال والعالم الخارجى مع مصر وبلاد اليونان ، وعلاقاتها السياسية والحربية مع جيرانها وبخاصة دولة سبأ ، واخيرا فلقد أشرت الى أهم مدنها .

أما الفصل الخامس ، فقمت فيه بدراسة دولة حضرموت ، وفيه أشرت الى موقعها وطبيعته ، كما تناولت بالدراسة أسمها والتفسيرات المتعددة التى ابديت بشأنه ، ثم اشرت الى تاريخها السياسى وعلاقاتها بجيرانها ، واهم مدنها وتحديدها الزمنى .

وتناولت فى الفصل السادس دولة قتبدان ،واشرت فيه الى موقعها ونظامها السياسى ، وما تميزت به النقوش القتبانية من كثرة النصوص الرسمية المتعلقة بالضرائب والقوانين والمعاملات التجارية ، هذا ويقسم بعض الباحثين تاريخ قتبان الى ثلاث مراحل وذلك حسب التطور السياسى للدولة ، ثم أشرت الى أهم مدنها وبقاياها المعمارية .

ويتصل الفصل السابع بدولة سبأ ، وهى من أشهر الدول التى حظيت باهمية خاصة فى التاريخ العربى القديم ، وتناولت فى هذا الفصل ما ورد فى القرآن الكريم ويتصل بسبأ وكذلك المصادر الاوربية والاثرية ، ثم تتبعت المراحل المتعددة التى مرت بها سبأ وعلاقاتها الخارجية مع العالم المحيط بها انذاك ، وفى مجال السياسة الداخلية ، فلقد اشرت الى بنائهم للمعابد والسدود والمدن .

وتناولت فى الفصل الثامن تاريخ مكة المكرمة ، وهى تعتبر من أهم مواضع الحضر فى الحجاز على الاطلاق ، وتناولت فى هذا الفصل موقعها الجغرافى ومناخها والاسماء المتعددة التى أطلقت عليها ، ثم تتبعت تاريخها وأهم الوظائف فيها وعمارتها .

وخصصت الفصل التاسع لدراسة المدينة المنورة وأشرت فيه الى أسمائها ، وموقعها ومناخها ، وعناصر السكان الذين سكنوا فيها وتتابعهم ، وهم حسبما ورد فى روايات الاخباريين العرب العماليق فاليهود ثم العرب .

ويتصل الفصل العاشر بدولة الانباط ، وهى احدى الدول العربية فى

شمال شبه الجزيرة العربية ، وقد بلغت أوج ازدهارها فى أواخر القرن الاول قبل الميلاد وبداية القرن الاول الميلادى ، وتناولت فى هذا الفصل المصادر التى يعتمد عليها الباحث فى دراسة دولة الانباط ، ثم تتبعت تاريخ ملوكها السياسى وعلاقاتهم الخارجية وأهم اعمالهم الداخلية وبخاصة نشاطهم الاقتصادى ونظام الحكم لديهم وحياتهم الاجتماعية ، وعقائدهم الدينية ، ونماذج من فنونهم .

وتناولت فى الفصل الحادى عشر ، تاريخ دولة تدمر ، واشرت فيه الى موقعها الجغرافى الى الشمال الشرقى من دمشق ، ثم اشرت الى اشتقاق اسمها وتاريخ ظهوره ، ثم أشرت الى أهمية موقعها فى نشاطها الاقتصادى والسياسى مع العالم الخارجى المحيط بها فى ذلك الوقت اذ كانت تقع بين امبراطورتى الفرس والروم ، وهما القوتان العظميان فى ذلك الوقت . ثم تتبعت التاريخ السياسى لاسرة اذينه وطموحاتها السياسية وتوسعها ثم نهايتهـــا .

أما الفصل الثانى عشر ، فيتصل بدولة الغساسنة ، وهى من الدول التى لم يصلنا عنها سوى وثائق قليلة ، مما جعل تاريخها يتسم بالغموض نوعا ما ، ولقد حاولت اعتمادا على المصادر المتاحة تتبع ملامح تاريخها السياسى فى عهد ملوكها الذين وصلتنا معلومات عنهم .

ثم أشرت فى الفصل الثالث عشر الى مملكة كنده ، وتتبعت باختصار مراحل تاريخهم منذ الهجرة من اليمن واستقرارهم فى مواطنهم الجديدة وتتابع ملوكها . وعلاقاتهم السياسية وأهم اعمالهم الداخلية الى نهاية هذه الدولة فى عهد ملكها امرؤ القيس الشاعر المشهور .

وتناولت فى الفصل الرابع عشر الفكر الدينى العربى القديم وفيه أشرت الى المعبودات التى عبدها العرب قبل الاسلام سواء فى الجنوب أم الشمال ، كما تناولت بشىء من التفصيل عبادة الاصنام فى بلاد العرب ، ثم اشرت الى انتشار اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، واخيرا أشرت الى طائفة الحنفاء التى ظهرت فى بلاد العرب .

وفى الفصل الخــامس عشر ، تناولت دور المرأة فى المجتمــع العربى

القديم وأشرت فيه الى الزواج ، والشروط التى كانت مرعية فى ذلك، ومدى حرية الفتاة فى اختيار زوجها ، ثم تناولت المحرمات عند العربى القديم ، وتعدد الزوجات ، وانواع الطلاق ، وحقوق المرأة فى الملكية ، ثم تناولت مكانتها فى المجتمع العربى القديم ٠

ويسعدنى فى نهاية هذا التقديم أن اتقدم بخالص الشكر للسادة القائمين على دار المعرفة الجامعية بقيادة الحاج صابر عبد الكريم،كما اتقدم بخالص شكرى للاخ الفاضل الاستاذ سعيد عبـد الغنى للجهد الكبير الـذى بذله فى سبيل اخراج الكتاب بهذا الشكل وعلى مراجعته لاصوله عدة مرات ٠

وادعو الله مخلصا ان اكون قد وفقت فيما هدفت اليه فى اخراج هذا الكتاب بالشكل المقبول «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعفو عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين»٠

صدق الله العظيم (سورة البقرة آية ٨٦)

الاسكندرية فى اكتوبر ١٩٩٥ ٠

الفصل الأول

جغرافية شبه الجزيرة العربية
ومواردها الطبيعية

جغرافية شبه الجزيرة العربية

ومواردها الطبيعية

تقع شبه الجزيرة العربية فى القسم الجنوبى من القارة الاسيوية بين دائرتى عرض ١٢٫٥ ـ ٣٠ درجة شمالا تقريبا ، وتبلغ مساحتها (٣٫١٥٠٫٠٠٠ كيلو مترا مربعا)(١) وعلى ذلك فهى تعد أكبر شبه جزيرة فى العالم من حيث المساحة ، اما ابعاد شبه الجزيرة ، فيبلغ طول ساحلها الغربى من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن ١٤٠٠ ميلا ، ويبلغ طول ساحلها الشرقى من رأس الخليج العربى شمالا حتى رأس الحد جنوبا ١٥٠٠ ميلا ، ويبلغ امتدادها من بحر العرب جنوبا الى الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية ١٦٠٠ ميلا ، أما عرضها فى اضيق نطاق بين البحر الاحمر والخليج العربى فهو ٧٥٠ ميلا ، واما بين خليج عمان والبحر الاحمر ، فيصل الاتساع الى ١٢٠٠ ميلا(٢) ٠

ويحد جزيرة العرب من الشرق الخليج العربى المعروف عند اليونان باسم الخليج الفارسى ، ويحدها من الجنوب المحيط الهندى ، أما حدها الغربى فهو البحر الاحمر ، اما حدها الشمالى فهى بادية الشام والتى تمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب فى الخليج العربى ٠ ومن ثم فان المياه تحيط بها من اطرافها الثلاثة فقط ٠

ولقد عرفت البلاد باسم «جزيرة العرب» ، وقد تختصر التسمية الى «الجزيرة» فقط من باب التسهيل ، وهناك من الجغرافيين العرب من رأى

---

(١) جودة حسنين جودة : شبه الجزيرة العربية ، دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٥ ٠

(٢) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه الجزيرة العربية ،جزء أول، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٥ ـ ٧ ٠

انها جزيرة فعلا على اساس ان الخليج العربى وبحر عمان يحيطان بها شرقا ، والمحيط الهندى جنوبا ، والبحر الاحمر غربا ، اما من ناحية الشمال فهناك نهر الفرات ونهر العاصى اللذين قد يكونان عند اقترابهما فى اعالى الشام حدا من الماء • ومن هذه الاسباب كذلك ، أن المنطقة تشبه جزيرة بشرية يتحدث سكانها باللغة العربية، وتحدها (غير الحدود البحرية) مجموعات بشرية تتحدث بلغات أخرى(١) •

هذا ويقسم المؤرخون والرحالة اليونان والرومان شبه الجزيرة العربية الى اقسام ثلاثة :

١ ـ العربية السعيدة Arabia Eudaemon

٢ ـ العربية الصخرية Arabia Petraea

٣ ـ العربية الصحراوية Arabia Erema

ويعد قسم العربية السعيدة أكثر الاقسام اتساعا ، ويشمل كل المناطق • التى يقال لها جزيرة العرب فى الكتب العربية ، وليست لها حدود شمالية ثابتة ، لانها كانت تتبدل وتتغير على حسب الاوضاع السياسية ، فضلا عن قوة أو ضعف تلك الكيانات السياسية التى تقع الى الشمال منها وهى على اية حال تقع الى الجنوب من خط وهمى يمتد من الطرف الشمالى للخليج العربى فى الشرق الى رأس خليج العقبة (خليج أيلة فى الكتابات القديمة)، أو الى نقطة على الشاطىء الشرقى لهذا الخليج ، وقد سماها الكتاب الكلاسيكيون بهذا الاسم لوفرة مواردها سوء كانت زراعية وبخاصة فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة (اليمن) ، أو كانت موارد تجارية من نقل السلع من الاطراف المختلفة لشبه الجزيرة ، ويرى بعض المؤرخين أنه من الخطأ ادخال هذا الجزء من بلاد العرب السعيدة داخل بلاد العرب ، فهو يعتبر فى الواقع من بلاد العرب الصحراوية ، اما الجزء الذى يمكن أن يطلق

---

(١) انظر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، العرب فى العصور القديمة ، مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٩٠، ص ٨٩، محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٩٣ ـ ٩٤ •

عليه بلاد العرب السعيدة فهو الجزء الجنـوبى الغربى ، حيث تقع بلاد اليمن لغنى محاصيلها وتنوعها ، ولاعتدال مناخها(١) .

أما العربية الصخرية : فتشمل الاراضى التى كان يسكن فيها الانباط ، ويطلق ذلك الاسـم ، اى العربية الحجرية على شبه جزيرة سيناء وبـلاد الانباط وعاصمتها البتراء ، وقد سميت كذلك اما نسبة الى عاصمتها ، أو الى طبيعة المنطقة الصخرية . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظروف السياسية وبحسب مقدرة العرب ، ويظهر من وصف ديودور لهذه المنطقة ، انها فى شرق مصر وفى جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربى فى شمال العربية السعيدة وغربها . وان الانباط يقيمون فى الاراضى الجبلية وفى المرتفعات المتصلة بها فى شرق البحر الميت ووادى العربة ، وفى جنوب اليهودية حتى الخليج العربى ، اما الاقسام الباقية فكانت تسكنها قبائل عربية قيل لها سبئية ، وهى تسمية كانت تطلق عند الكتبة اليونان والرومان على اكثر القبائل المجهولة اسماؤها والتى تقطن وراء مناطق نفوذ الانباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية فى الغالب(٢) .

أما العربية الصحراوية فيعنون بها بادية الشام فى اغلب الامر ، وبادية السمادة فى بعض الاحايين ، بل ان (ديودور الصقلى) انما يذهب الى أنها المناطق الصحراوية التى تسكنها القبائل المتبدية ، وان سكانها من الآراميين والنبط ، وانها تقع بين سورية ومصر ، كما انها مقسمة بين شعـوب ذات مزايا وصفات متباينة ، وان كان يبدو ان الرجل لم يكن لديه خط واضـح يفصل بين العربية الصحراوية والصخرية . ونقرأ فى النصوص الاشورية من عهد (شلمنصر الثالث ٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق.م) أن من بين اعدائه فى موقعة (قرقر) عام ٨٥٣ ق.م مجموعة عربية على رأسها «جندب» وجدت هناك منذ الالف

---

(١) محمد مبروك نافع : تـاريخ العرب ، عصر ماقبل الاسـلام ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥١ ، لطفى عبد الوهاب يحيى . المرجع السابق ص ٩٩ ــ ١٠٠ .

(2) Smith, W., A. Dictionary of the Bible, 1, p. 91.

الثانية قبل الميلاد ، وكانت مصدر قلق للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وانها كانت تنتقل فى هذه البادية بحرية ، لا تعترف بحدود او فواصل ، وانما كانت تقيم حيث الماء والكلأ والمكان الذى يتلائم وطباعها(١).

وعلى اى حال ، فان الجغرافيين اليونان لم يفرقوا بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية ، حيث يكون الفاصل بينهما صعبا جدا بالنسبة لهم، كما أن هؤلاء الجغرافيون قد اغفلوا الكتابة عن المدن الهامة مثل تيماء ودومة الجندل . اما الكتاب العرب فلقد اقتصر تصورهم فى العصر الاسلامى لشبه الجزيرة العربية على القسم الاول وهو العربية السعيدة ومن ثم فقد قسموه الى خمسة اقسام هى اليمن وتهامة والحجاز ونجد واليمامة ، وكان اساس تقسيمهم «جبل السراة» ـ اعظم جبال بلاد العرب ـ وهو سلسلة جبال تبدأ من اليمن ، وتمتد شمالا حتى اطراف بادية الشام ، على مدى ١١٠٠ ميل تقريبا ، ويطلق عليها عدة اسماء فهى جبال السراة (السراة هى الارض المرتفعة) ، وهى جبال السروات (جمع سراة) وهى جبال الحجاز، كما كانت تسمى باسم الاقليم الذى هى فيه ،فيقال جبال الحجاز فى الحجاز، وجبال عسير فى اقليم عسير(٢) .

وسنتناول فيما يلى هذه الاقسام الخمس بشىء من التفصيل :

١ ـ اليمن :

تقع فى الركن الجنوبى الغربى لشبه جزيرة العرب . تمتد اليمن على طول المحيط الهندى ، ويحدها البحر الاحمر من الغرب والحجاز من الشمال ، وتخترق السراة اليمن من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الاودية التى تنساب فيها مياه الامطار .

---

(١) سامى الاحمد : نظرة فى جغرافية شبه الجزيرة العربية ، مجلة العرب ، العدد السابع ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٥٩٩ .

Luckenbill. D. D., Ancient Records of Assyria and Babylonia, I, Chicaga, 1927, p. 611.

(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

اما عن سبب تسميتها باليمن ، فذلك أمر ما يزال موضع خلاف ، فهناك من يذهب الى أن ذلك انما كان نسبة الى أول من قطنها من العرب ، الذى قال له والده قحطان أنت أيمن ولدى ، أو لانها تقع على يمين الكعبة . بينما يتجه فريق ثالث الى أن السبب انما كان فى طبيعة البلاد نفسها ، فهى بلاد اليمن والخير والبركة ، على أن رأيا رابعا يذهب الى انها سميت بذلك لتيامن العرب اليها ، أو لان الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم ، فالتامت بنو يمن الى اليمن ، وهى أيمن الارض فسميت بذلك ، وهناك من يرجح أنها سميت اليمن من كلمة «يمنات» الواردة فى نص يرجع الى أيام الملك «شمر يهرعش» غير أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئا عن الاسم الذى كان يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن .

وتشتهر بلاد اليمن بغنى محاصيلها وتنوعها ، واعتدال مناخها ، حتى انها سميت باليمن الخضراء ، وان كان هناك فريق من العلماء يرى شيئا من المبالغة فيما نسب الى اليمن من خصب وثراء ، ويتجه الى القول بأن معظم الحاصلات التى كان يظن أن اليمن مصدرها انما جلبها العرب والمصريون من جزائر الهند وسواحل افريقية الشرقية،الا ان هناك حقيقة جغرافية واضحة وهى انها كانت بسبب الجبال التى تقع فى داخلها عرضة للرياح الموسمية ، فتسقط الامطار التى تجعل أرض اليمن تجود بالبن أهم حاصلاتها ، وبالفاكهة والقمح والاعناب والتوابل(١) .

٢ ـ تهـــامة :

تبدأ حدود تهامة فى رأى بعض الجغرافيين ، من البحر الاحمر ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الاحمر ، وقد ورد اسم تهامة فى النصوص العربية الجنوبية «تهمت» (تهمتم) ، وقد حاول بعض الباحثين ايجاد علاقة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu)البابلية ومعناها

---

(١) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٦ ؛ سعد زغلول الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٥ ؛ ص ٦٩ ــ ٧٠ .

البحر ، وكلمة تيهوم Tehom العبرية . بينما يتجه «جواد على» الى ان الكلمة انما ترجع الى اصل سامى قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ومن ثم فهى شديدة الرطوبة والحرارة فى الصيف ، ومن هنا سميت «تهامة» من التهم وهو شدة الحر وركود الريح . الا أن هناك من يرى ان السبب انما هو تغير هوائها ، كما ان هناك من يرى ان التهمة هى الارض المتصوبة نحو البحر . ولعل انخفاض أرض تهامة كان هو السبب فى ان يسمى بالغـور وبالسـافلة .

وهى تتالف من تهائم ،فهناك تهامة اليمن وتهامة عسير وتهامة الحجاز ، وفى الواقع ان التهائم ليست هى المنطقة الساحلية السلهة فحسب ، ولكنها تشتمل كذلك على اكثر المناطق الواقعة الى المنحدر الغربى لسفوح جبال الحجاز ، وتختلف فى عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلا فى بعض الاماكن ، وقد تضيق فى اماكن أخرى الى أن تصبح الهضاب القريبة من الساحل متصلة بالشاطىء راسا ، هذا الى أن اكثر هذه المنطقة الساحلية رملى شديد الحرارة قليل الانبات ، كما ان جميع المدن الساحلية انما تقع فى هذه المنطقة(1) .

٣ ـ الحجـــاز :

تمتد رقعة الحجاز فى رأى اكثر علماء الجغرافية من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث) وهو واد بأسفل السراة يدفع فى البحر،فتبدأ عندئذ أرض تهامة . وقد اعتبر بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز . ويقال للقسم الشمالى من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، والتى تتجه من الشمال نحو الجنوب ، وارض حسمى ارض خصبة كثيرة المياه ، وكانت من المناطق الماهولة بالسكان وبها بقايا اثرية كثيرة ، ومن جبالها جبل يعرف بـ «ارم» .

---

(1) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ ، السيد عبد العزيز سالم . دراسات فى تاريخ العرب ، جزء أول ، عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ١٠٩ .

وقد سمى هذا القسم بـ «الحجاز»، لانه يحجز بين ساحل البحر الاحمر، وهو هابط عن مستواه وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة الى الساحل الغربى ، أو لانه احتجز بالجبال ، أو لانه يحجز بين الغور والشام ، أو لانه يحجز بين تهامة ونجد ، أو لانه يحجز بين الشام واليمن والتهائم .

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادى اضم الذى ورد ذكره فى اشعار الجاهلية وفى اخبار سرايا الرسول ، ووادى نخال ووادى القرى وهو وادى هام يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذى كان شريانا من شرايين الحركة التجارية فى العالم القديم(١) .

٤ ـ نجـــد :

هى فى الكتب العربية اسم للارض العريقة التى أعلاها تهامة واليمن ، واسفلها العراق والشام ، وحدها «ذات عرق» فى الحجاز ، وما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد الى اطراف العراق وبادية السماوة . وعلى اى حال فان (نجدا) بصفة عامة انما هى الهضبة التى تكون قلب شبه الجزيرة العربية ، وهى ليست قاحلة تماما وانما توجد فيها بعض اراض صالحة للزراعة ، وهى تتالف من مناطق ثلاثة : منطقة وادى الرمة ، فالمنطقة الوسطى ، ثم المنطقة الجنوبية . أما علماء العرب فقد قسموا نجد الى عالية وسافلة ، أما نجد العالية : فما ولى الحجاز وتهامة ، وأما السافلة فما ولى العراق(٢) .

٥ ـ العـــروض :

تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما ، واغلب الاراضى فيه صحارى وسهول ساحلية ترتفع فى الجهات الغربية عن ساحل البحر . ومن أقسام العروض ، شبة جزيرة (قطر) التى تمتد من عمان الى حدود الاحساء .

---

(١) فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ، الرياض ، ١٩٦٨ ص ١٧ ، جواد على : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر : محمود شكرى الالوسى : تاريخ نجد ، ص ٧ وما بعدها ، جواد على : المرجع السابق ، ص ١٨١ ـ ١٨٥ .

ويلى شبه جزيرة قطر ، الاحساء ، والقسم الاكبر منها صحراوى يرتفع فى الجهة الغربية عن ساحل البحر ويتخلله كثير من التلال ، والمنطقة الساحلية تكثر فيها الآبار ، وأغنى مناطق الاحساء منطقة الاحساء والقطيف فى الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون ، وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية فى الاحساء وتكثر بها مياه العيون ، واما القسم الشمالى من هذه المنطقة فهو الكويت ومعظم ارضه منبسطة وأكثر سواحله رملى ، الا بعض الهضاب أو التلال البارزة ، وأكثر ما يزرع هناك النخيل ، وليس فى الكويت من الانهار الجارية غير مجرى واحد يقال له «المقطع» ، واشهر مدنه الكويت وجهرة ، وهى من اخصب بقاع الكويت حاليا ، كما انها كانت ماهولة بالسكان منذ عصر ما قبل الاسلام[1] ،

مظهر السطح :

تتكون أغلب الارض فى بلاد العرب من بواد وسهول تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، ويمكن ايجاز مظاهر السطح الرئيسية فى بلاد العرب على النحو الآتى[2] ،

١ ـ الحرار : تعد الحرار من المجموعة الصحراوية ، وهى ارض ذات حجارة سود نخرة كانها أحرقت بالنار ، وهذه الحرات أنما هى مقذوفات بركانية تبتدىء من شرق حوران وتمتد منتثرة الى المدينة المنورة ، والحرار كثيرة فى بلاد العرب ، ولقد عد أحد علماء العرب تسع وعشرين من هذه الحرار واشهرها حرة واقم ، والتى تنسب اليها وقعة الحرة على أيام يزيد بن معاوية ، وتكثر الحرات فى الاقسام الغربية من شبة جزيرة العرب ، وتمتد حتى تتصل بالحرار التى فى بلاد الشام بمنطقة حوران ، وتوجد

---

(١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ١١٢ ، جواد على : المرجع السابق ص ١٧٤ ـ ١٧٧ ،

(٢) انظر : جواد على : المرجع السابق ، ص ١٤٥ ـ ١٥٣ ، وكذا محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ١٠٦ ـ ١١٠ ،

كذلك فى المناطق الوسطى والشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفى المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية .

وفى أرض اليمن عدد كبير من الحرار ، منها حرة «ارحب» شمالى صنعاء ، كما أن هناك كثيرا من الحرار فى القسم الشمالى من «وادى ابرد» ــ بين صنعاء ومأرب ــ ولعل كثرة الحرار بجوار المدن القديمة هو الذى دفع البعض الى تفسير هلاك بعض المدن على أنه من هياج البراكين . وتعد «حرة ضروان» من اشهر حرار اليمن ، وقد بلغ من شهرة قذفها للحمم أن القوم كانوا يتعبدون لها ويتحاكمون اليها فيما يشجر بينهم من خلاف ، وذلك لاعتقادهم بأن النار تأكل الظالم وتنصف المظلوم .

٢ ــ الدهناء : وهى مساحات من الاراضى تعلوها رمال حمراء فى الغالب ، وتمتد من النفود فى الشمال الى حضرموت ومهرة فى الجنوب ، واليمن فى الغرب ، وعمان فى الشرق ، وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة تنتقل فى الغالب مع الرياح ، وتغطى مساحات واسعة من الارض ، ويمكن العثور على المياه فى قيعانها اذا حفرت فيها الآبار . ويعد الجفاف سمة هذه المنطقة الصحراوية ، وكذلك تتميز بخلوها من الماء والمراعى ، ولذا فقد هجر الناس السكنى فى اكثر إقسام الدهناء ، كذلك فان كثرة هبوب العواصف الرملية ولشدة حرارتها أقام الناس فى الامكنة المرتفعة منها والتى تتساقط عليها الامطار . والاقسام الجنوبية من الدهناء تسمى بالربع الخالى وذلك لخلوها من السكان . أما القسم الغربى من الدهناء فيسمى (بالاحقاف) وهو منطقة واسعة من الرمال اقترن اسمها باسم (عاد) . وتكون (وبار) قسما من الدهناء ، وكانت من الاراضى المشهورة بالخصب والنماء وهى اليوم من المناطق الصحراوية .

٣ ــ النفود : وهو الصحراء المسماة «بادية السماوة» ، أما النفود فاسم لم يكن يعرفه العرب ، وعلى أى حال ، فهى صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حمر تذروها الرياح ، فتكون كثبانا مرتفعة وسلاسل رملية متموجة ، يحدها من الشمال وادى السرحان ، ومن غربها الجنوبى واحة تيماء ، ومن الجنوب جبلا اجا وسلمى ، ومن شرقها الجنوبى مدينة حائل . وهكذا

يبدو واضحا أن صحراء النفود تمتد على مسافة كبيرة من الارض ، تزيد عن مائة الف كيلو متر مربع ٠وكان يطلق على النفود الكبير قديما «رملة عالج» ٠

التضـــــاريس(١) :

أ ـ الجبـــال :

تكون سلسلة جبال السرات العمــود الفقرى لجزيرة العرب ، وتتصل بسلسلة جبال بلاد الشام ، وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذى يرتفع (٢٫٢٠٠) متر عن سطح البحر ، وجبل شيبان ٠ وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم فى اقل ارتفاع ، ثم تعود بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستو عال فى اليمن حيث تتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال ٠ وتشتهر منطقة مكة بمجموعة من الجبال ، اشهرها جبل «ابى قبيس» فى جنوب مكة ، وجبل «حراء» فى شرقها ، وجبل ثور ويشرف على مكة من الجنوب،وجبل رضوى بين المدينة المنورة والبحر الاحمر ٠

وتمتد فى محاذاة الســواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبـــال اليمن ، ثم تتجه نحو الشرق الى أرض عمـــان ، حيث ترتفع قمم الجبل الاخضر ارتفاعا يتراوح من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم ، وفى نجد منطقة جبلية تتكون من الجرانيت يقــال لها جبال «شـمر» وتتالف من سلسلتين ، يقال لاحدهما اجا ، وللاخرى سلمى ٠ وأما جبل (طويق) فهو عبارة عن مرتفعات تقع فى الوسط الشرقى من نجد وفى جنوب شرق الرياض، وتتالف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية،ويطلق الجغرافيون العرب عليها اسم جبال العارض ٠

ب ـ الاودية والانهـــار :

تعد بلاد العرب من البلاد التى تقل فيهـــا الانهار والبحـيرات ، ومن ثم يغلب عليها الجفاف ، واصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان ،

---

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٦٣ ، لطفى عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٩٢ وما بعدها ٠

ولكن تتوفر فيها الاودية وتطغى عليها السيول عند سقوط الامطار ، وهى فى الغالب طويلة ، تسير فى اتجاه ميل الارض ، أما الاودية التى تصب فى البحر الاحمر أو فى البحر العربى ، فانها قصيرة بعض الشىء وذات مجرى أعمق وانحدار أشد ، والمياه تسير فية بسرعة . وليس فى استطاعة احد التحدث عن ملاحة بالمعنى المفهوم عن الملاحة فى نهيرات جزيرة العرب ، وذلك لان هذه النهيرات إما قصيرة سريعة الجريان ، وأما ضحلة تجف مياهها فى بعض المواسم . والامر كذلك بالنسبة الى البحيرات ، فليس فى بلاد العرب بحيرات ، وأنما هناك عدد كبير من «السبخات» الملحة وهى مناطق واسعة تؤلف مساحة عظيمة من الارض السهلة غالبا ، وتحتوى على كثير من الاملاح المتجمدة ، ومن هذه السبخات سبخة المدينة المنورة وسبخة حضوضاء فى وادى السرحان وسبخة الاحساء . أما الاودية فكثيرة فى شبه الجزيرة العربية ، ولعل من أهمها وادى الرمة ، ويمتد من شرق المدينة المنورة فى اتجاه شمالى شرقى حتى يصل الى (واحة البعايث) ، ووادى الحمض الذى كان يسمى قديما «وادى اضم» ويبدأ من جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه الى المدينة المنورة حيث تتصل به أودية فرعية كوادى العقيق ووادى القرى ، وهناك كذلك وادى السرحان وهو ليس واديا بالمعنى المفهوم وانما هو منخفض واسع من الارض يمتد من الجنوب الى الشمال ، وتنحدر منه أودية كثيرة من جميع جهاته ،أما وادى الدواسر فهو واد كبير يتجه شرقا عبر وديان جبل طوق وتنتهى مياهه شرقا عند اطراف الربع الخالى ، وهناك وادى نجران وهو أحد الاودية الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية ، بل هو فى الواقع مجموعة أودية منها وادى حرض ووادى مور .

المنـــاخ :

تعتبر شبة الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافا وحرا ، ويرجع ذلك أولا لوقوعها فى منطقة قريبة من خط الاستواء . وثانيا ان معظمها يقع فى الاقليم المدارى الحار . وثالثا أنها بعيدة عن المحيطات الواسعة التى تخفف من درجة الحرارة . ورابعا أن المسطحات المائية التى تقع الى الشرق والى الغرب منها ــ أى الخليج العربى والبحر الاحمر ــ أضيق من أن تكفى لكسر

حدة هذا الجفاف المستمر ، كذلك فان المحيط الهندى الذى يقع الى الجنوب منها تمنع مرتفعات حضرموت والربع الخالى الامطار الذى يساعد على سقوطها من الوصول الى داخلها ، بالاضافة الى أن رياح السموم التى تنتاب شبه الجزيرة العربية فى مواسم معينة تسلب الرطوبة من الهواء قبل أن يدخل البلاد(١) .

ويتميز مناخ شبه الجزيرة العربية عموما بالتطرف ، وبالاختلاف الحرارى السنوى واليومى الكبير ، وتنفرد هوامشها الشمالية بشتاء رطب وبارد ، وقد يتكون الصقيع فى مياه بعض واحاتها فى الصباح الباكر ، ويتميز صيفها بشدة حرارته وجفافه ، أما فصل الربيع والخريف فهما يعتبران موسمى انتقال لا يستغرقان مدة طويلة(٢) .

ويسود الجفاف شبه الجزيرة العربية بوجه عام ، ونظرا لقلة المطر فان اكثر أراضيها صحراوية ، الا أنه توجد أودية كثيرة تسيل فيها المياه فى موسم الامطار ، وهى أودية شديدة الانحدار تصب فى البحر الاحمر ، أو فى بحر العرب ، والامطار تسقط فى الخريف والشتاء فى الشمال ، بينما تسقط فى الصيف فى بلاد اليمن ، وتنمو الاعشاب فى البادية اذا سقطت الامطار ، وهى أعشاب قصيرة لا تلبث أن تموت ، ولذلك فلقد فرضت طبيعة الموارد الطبيعية فى البادية على ساكن هذه المناطق الترحال والانتقال من مكان الى آخر حيث تتوافر موارد المياه والعشب .

وأطلق الكتاب المسلمون على الرياح التى تهب على الجزيرة العربية العديد من التسميات(٣) ، فاطلقوا على الرياح التى تهب من جهة المشرق «القبول» وكذلك «ريح الصبا» نظرا لانها ريح مقبولة طيبة تصبو اليها النفوس وهى تهب بشكل خاص على اقليم نجد ، وكانت تات محملة

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٢) جودة حسنين جودة ، المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ .
(٣) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٧٥ ، وما بعدها .

بالامطار ، واطلقوا على رياح الشمال «التيسر» عكس التيمن او اليمين ، وهى رياح باردة تهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الاناضول ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت أيضا بالرياح الشامية ، كما عرفت بالحدواء لانها تحدو السحاب اى تسوقه .

وأطلقوا على الرياح التى تهب من المغرب تسمية الدبور ، وهى تهب مصحوبة بامطار ولذلك عرفت أيضا بالزاريات والمعصرات ، أما الرياح الرابعة فهى الرياح الجنوبية ، وهى من التيمن ، وكانت تاتى من اليمن .

وبالنسبة للاحوال المناخية لشبه الجزيرة العربية خلال فصل الصيف فيلاحظ تركز مناطق ضغط منخفضة عميقة فى أوائل الصيف فى الحوض الادنى لنهر السند ، وفى شرق شبه الجزيرة العربية بسبب الحرارة الشديدة ويمتد تاثيرها فيشمل جميع أراضى المنطقة العربية الاسيوية ، وحينما يشتد عمق الانخفاض الهندى العربى فى أواسط الصيف يشتد هبوب التيارات الهوائية الشمالية الشرقية على شبه الجزيرة ، وهى عبارة عن تيارات دائمة الهبوب ليلا ونهارا ، وهى تصل الى شبه الجزيرة شديدة الجفاف .

وقد يحدث فى بعض الاحايين بعض الاضطرابات فى توزيع الضغط وعمقه فتندفع الكتل الهوائية من منطقة الخليج العربى ، وهى رياح حارة متربة وفى الجهات المرتفعة تصبح رطبة مرهقة .

وتؤدى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى سقوط الامطار على القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية وذلك فى الفترة الممتدة من شهر يوليو وحتى شهر سبتمبر من كل عام .

ثم تتراجع التيارات الهوائية الشمالية الشرقية فى أواخر الصيف ، وفى هذه الفترة تبدأ بعض مناطق الضغط المرتفع فى التكوين فوق أراضى آسيا المرتفعة ، ويتركز الهواء البارد فى أراضى ايران والاناضول المرتفعة ، ويندفع هذا الهواء البارد من آن لآخر خلال الاودية والسهول ويجلب موجات من البرد تستمر لايام ، وبحلول فصل الشتاء تبدأ الرياح الغربية واعاصيرها فى الهبوب على المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية ، وهى

تؤدى الى سقوط الامطار ، وتتناقص كمية الامطار فى اتجاه الشرق ونحو الـــــداخل .

ويلاحظ ان فصل الربيع والخريف لا يدومان طويلا ، ففى فصل الربيع يتحطم نطاق الضغط المرتفع ويدفأ الجو ، ولكن احيانا تهب بعض الاعاصير تحمل معها كميات كبيرة من الاتربة ، وقد تؤدى الى سقوط الامطار ، وتسمى هذه الرياح الجنوبية فى السعودية باسم «السموم» أما فى الكويت فتسمى «الطوز» .

اما فى فصل الخريف فهو يتميز بجفافه وحرارته ، ولا تسقط الامطار فى بدايته الا نادرا ، وقرب نهايته تبدأ قطرات الماء فى النزول الى الارض(١) .

المـــوارد الطبيعية :

المعـــــادن :

أ ـ الذهب : وهو من المعادن التى استخرجت منذ العصور القديمة ومن ثم فقد ذكر الجغرافيون العرب اسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، .وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب . و (صنكان) وكان به معدن غزير من التبر ، والمنطقة التى بين القنفذة ومرسى حلج ، وكذلك يشاهد فى وادى تثليث على مقربة من (حمضه) وعلى مسافة ١٨٣ ميلا من نجران آثار التبر ، ويظهر أنه كان من المواضع التى استغلت قديما لاستخراج الذهب منها.وقد اشتهرت ديار بنى سليم بوجود المعادن فيها وفى جملتها معدن الذهب . وقد ذكر الكتاب اليونان أن الذهب يستخرج فى مواضع من جزيرة العرب خالصا نقيا، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . وقد عثرت احدى الشركات فى اثناء بحثها عن الذهب فى بعض اماكن وجوده فى شبه الجزيرة العربية على ادوات استعملها الاولون قبل الاسلام فى استخراج

---

(١) جودة حسنين جودة ، المرجع السابق ، ص ١٧ ـ ٢١ .

الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وادوات تنظيف ومدقات ومصابيح(١) •

ب ـ الفضة : وجدت مناجم قديمة للفضة شرقى القنفذة ، وعند منتصف المسافة بين وادى قينونة ووادى بنا ، وكذلك استخرجت الفضة من الرضواض في اليمن •

والى جانب الذهب والفضة ، عثر على خامات الرصاص والزنك شرقى القنفذة ، وعثر على مناجم الحديد فى وادى فاطمة(٢) •

٢ ـ النبات :

يقل وجود النبات والاراضى الزراعية بصفة عامة فى بلاد العرب ، وذلك نتيجة لقلة المياه أولا الى جانب جفاف الهواء وملوحة التربة التى تحول دون نمو النبات وازدهاره • وتعتبر نخلة البلح هى ملكة عالم النبات فى شبه الجزيرة ، ومازالت حتى اليوم تحتفظ بمركز ممتاز بين الحاصلات الزراعية فى بلاد العرب ، وان تدهورت قيمة التمور فى السنوات الاخيرة •

وقد اشتهرت مناطق عديدة من شبه جزيرة العرب بالكروم ، ومنها الطائف واليمن ، كما غرس فى الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش والبرتقال والليمون والبطيخ والموز ، ويرجح أن الانباط واليهود هم الذين ادخلوا هذه الفواكه الى بلاد العرب من الشمال • كذلك زرع القمح والشعير فى الواحات ، كما ينمو الارز فى عمان والاحساء ، ويزدهر شجر اللبان والتمور والمر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبى ، وكانت له أهمية كبرى فى الحياة التجارية الاولى فى بلاد العرب الجنوبية •

وتوجد فى البادية عدة أنواع من شجر السنط منها الاثل والغضال الذى

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ص ١٩٢ ـ ١٩٤ •
Moritz, B., Arabien, Hanover, 1923, p. 105 ff.,

(٢) العمرانى (ابو محمد الحسن بن احمد بين يعقوب) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الاكوع ، الرياض ، ١٩٧٤،ص٢٠٢•

ينتج الفحم ، والطلح الذى يستخدم منه الصمغ العربى ، والاراك وهو الحمض وتتخذ منه المساويك(١) •

٣ ـ الحيـــوان :

يعد الجمل هو الحيوان الاليف الوحيد الذى استطاع بعناده وصلابته على السير بجبروت فوق رمال الصحارى ، وهو ايضا من اقدم الحيوانات التى سمعنا بها عند العرب واعزها وقد صور فى النصوص الاشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعـارك اخرى وقعت بين العرب والاشوريين • ويرى العلماء أن الانسان قد ذلل الجمل حين صيره اليفا مطيعا فى الالف الثانية قبل الميلاد • هذا وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية انما كانت الموطن الذى ذلل هذا الحيوان فى الشرق الادنى القديم •

أما الخيـل ، فعلى الرغم من اشتهـار جزيرة العرب بجمـال خيلها وبتربيتها لاحسن الخيل وبتصديرها لها ، فان الخيل فى جزيرة العرب انما هى من الحيوانات الهجينة الدخلية الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقى أيام وصولها الى الجزيرة الى ما قبل الميلاد بكثير ، وقيل أنها وردت اليها من العراق ومن بلاد الشام ، أو من مصر •

أما البغـال ، فانها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات وقدرتها على السير فى المناطق الوعرة ، وقد استعملت فى الحمل وفى الركوب ، وهى تؤدى خدمات فى هذه المناطق التى تعـد صعبة على الجمـل ، ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال فى جزيرة العرب حتى ظهور الاسلام ، فقد ورد أن بغلة النبى عليه الصلاة والسلام ، كانت أول بغلة رؤيت فى الاسلام ، وقد أهداها له المقوقس ، واهدى معها حمارا يقال له عفير • والحمير هى أول واسطة للركـوب والحمل عند الحضر وأهمهـا ، وهى للحضرى مثل الجمال للبدوى ، ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار فى جزيرة

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ وما بعدها •

العرب هو اقدم عهدا من الجمل ومن الخيل والبغال،اذ كان واسطة الركوب والنقل فى اوائل الالف الثانية قبل الميلاد ٠

والبقر من الحيوانات القديمة فى بلاد العرب ، وهى من الحيوانات الملازمة لاهل الحضر فى الغالب ، ولا سيما أهل الريف ، أما الاعراب فان استفادتهم منها غير ممكنة ، وكان يستفاد من البانها ومن لحومها وجلودها كما يستفاد منها فى حرث الارض،وفى سحب الماء من الآبار وفى جر العربات٠ أما الاغنام فهى المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والصوف ، وتربى فى معظم انحاء جزيرة العرب ٠

وعرفت جزيرة العرب الاسد ، الذى قل وجوده فيها فى الاسلام ، ويظهر من كثرة اسمائه فى اللغة ومن ورود اسمه فى الشعر الجاهلى ، أنه كان كثيرا فيها ، وهناك أماكن خاصة اشتهرت بكثرة أسودها ومنها (عثر) ، و (عتود)(١) ٠

طرق التجـــارة :

تميزت الجزيرة العربية بمقومين رئيسيين كان لهما أثرا كبيرا وفعالا فى الازدهار التجارى لهذه المنطقة ، ويتمثل الامر الاول فى غنى هذه المنطقة بالتوابل والبخور ، والاخر هو الموقع المتوسط لهذه المنطقة والذى يربطها بمختلف المناطق سواء بواسطة البر أم البحر ٠

واستفاذ سكان شبه الجزيرة من هذا الموقع والطرق التجارية ليس فقط فى تصدير منتجاتهم،ولكنهم عملوا ايضا بالوساطة التجارية فكانوا يستوردون منتجات الهند والحبشة والصومال والسودان ، ويقومون بتصديرها ، وكان لذلك اثرة الكبير فى تمتع هــذه المناطق وبخاصة جنــوب الجزيرة العربية بثراء كبير ٠

وسنتناول فيمـــا يلى بشىء من التفصـيل طرق التجـــارة التى ربطت

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، جزء أول،ترجمة ادوارد جرجس، جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص.٢٥ وما بعدها ٠

الجزيرة العربية سواء بين اجزائها أو بينها وبين العالم الخارجى ، ونبدأ بالطريق البرى ٠

طرق التجارة البرية :

تعددت طرق التجارة البرية التى تمر بشبه الجزيرة العربية وتربط بين اجزائها والعالم الخارجى ، وكان منها الطرق العرضية التى تربط بين اجزاء شبه الجزيرة ، ويمكن تتبع أربعة منها وكان يربط الاول منها فى الجنوب ما بين المناطق المنتجة للمر فى الغرب ويتخذ اتجاها شرقيا بطول الساحل المتعرج لشبه الجزيرة حتى يصل الى المنطقة المنتجة للقرفة ، ويبلغ طول هذا الطريق حوالى ٦٠٠ ميل ، ولم يكن ينتهى هذا الطريق بميناء على شاطىء المحيط الهندى أو الخليج العربى ، وعلى ذلك يرجح أن هذا الطريق كان يستخدم لتجارة القرفة ٠

أما الطريق الثانى فكان يتجه من القسم الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة شمالا الى مدينة جرهاء التى يرجح أنها تقع على مقربة من ميناء العقير الحالية فى وسط ساحل شبه الجزيرة المطل على الخليج ، وكان يستخدم هذا الطريق فى نقل منتجات جنوب الجزيرة العربية الى مدينة جرهاء ومنها كانت تنقل الى وادى الرافدين اما بالطريق البرى أو فى قوارب ٠

ويبدأ الطريق البرى الثالث من مكة وينتهى الى وادى الرافدين ، ولم يكن لهذا الطريق من الشهرة ما للطرق الاخرى، ولذلك فلم يذكره الجغرافيون والكتاب الكلاسكيون الاوائل ٠

ويتفرع الطريق الرابع من الطريق الطولية الجنوبية الشمالية بعد مسافة شمالى يثرب فى اتجاه شمالى شرقى مارة بعدد من الاماكن أهمها تيماء ثم دومة الجندل وينتهى الى وادى الرافدين عند بابل على نهر الفرات ، ويعتبر هذا الطريق من الطرق الهامة القديمة ٠

ويقع الطريق الخامس فى اقصى شمال شبه الجزيرة العربية ، ويشكل هذا الطريق امتدادا صحراويا لطريق تجارى يبدأ من شمال غربى بغداد على نهر الفرات ، ويسير بمحازاة النهر حتى مأرب ثم تمتد غربا الى تدمر،

وتمتد من تدمر غربا الى حمص حيث يتفرع الى عدة افرع تصـل ما بين حمص من جهة والموانىء الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الاخرى • وكانت تدمر هى حلقة الوصل فى هذا الطريق ، وترجع أهمية هذا الطريق بجانب أهميته التجارية، الى أهميته السياسية، حيث كانت تسكن هذه المنطقة قبائل بدوية متنقلة سببت الكثير من القلاقل للدول الموجودة فى سورية وبلاد الرافدين وعلى ذلك كانت السيطرة على هـذا الطريق وتامينه أمرا هاما بالنسبة للقوى السياسية المحيطة به، وأرى ذلك الى زيادة ازدهاره التجارى•

وبجانب هذه الطرق العرضية كانت هناك طرق طولية موازية للبحر الاحمر تقريبا ، وكانت تبدأ من اقصى جنوب شبه الجزيرة وتتجه شمالا الى المنطقة الســورية وشواطئها فى الشـمال ، فكان يبدأ من قتبـان فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة وحضرموت الـواقعة الى شرقيها وسبأ المتاخمة لها من ناحية الشمال ، وكان يبدأ طريق القوافل من تمنع عاصمة قتبان ويتجه شمالا مخترقا الحدود الشمالية لمنطقة سبأ ، ثم يخترق أرض معين ويستمر شمالا حتى مكة ، ومنها يصل الى ديدان (العـلا الحالية) ومنها الى مدين ثم البتراء عاصمة الانباط ، ومن البتراء يتفرع الطريق الى فرعين ، أحدهما الى تدمر فى الشمال ، والاخر يتجه الى الغرب والشمال الغربى حتى يصل الى غزه[١] •

طرق التجارة البحرية :

رغم وقوع شبه الجزيرة العربية على مساحات مائية شاسعة الا أنها لم تستفد منها فائدة كبيرة ، ويرجع ذلك الى عدة عـوامل منها غلبة الشعب المرجانية على شواطىء البحر الاحمر وبخاصة الشمالية منه ، كما أن الخليج العربى تعوز سواحله المياه الصالحة للشرب مما عطل من امكانية استخدام هذه الشواطىء فى العصور القديمة ، يضاف الى ذلك عدم وجود الاخشاب الصلبة الطويلة التى تصلح لبناء السفن فى شـبه الجزيرة العربية ، وأدى

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٣١٤ ــ ٣٢٤ •

ذلك الى عدم وجود نشاط بحرى عربى من جانب شبه الجزيرة فى العصور القـــديمة ·

ولقد بدأ النشاط البحرى لدول شبه الجزيرة العربية بعد أنشاء مدينة الاسكندرية وعلى ذلك فالنشاط البحرى لشبة الجزيرة العربية بدأ متأخرا جدا · فظهر نشـــاط تجارى بحرى بين مدينة جرهاء على ساحـل الخليج العربى وبلاد الرافدين ، كما وجد نشاط تجارى بحرى بين شرق الجزيرة والصين ·

أما النشاط التجارى البحرى فى البحر الاحمر فلقد ازداد خلال عصر البطالمة واستمر خلال العصر الرومانى[1] ·

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٢٤ ـ ٣٣٣ ·

الفصل الثانى

مصادر التاريخ العربى القديم

مصــادر التاريخ العربى القــديم

يعتمد المؤرخ فى دراسته لتاريخ العرب القديم على العديد من المصادر التى ياتى فى مقدمتها المصادر الاثرية وما سجله المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، وما ورد عن بلاد العرب فى العصور القديمة فى الكتابات اليهودية كالتوراة ، وما سجله المؤرخ اليهودى يوسف بن متى ، وما جاء فى الكتابات المسيحية عن بلاد العرب والقبائل العربية ، ثم المصادر العربية التى ياتى فى مقدمتها القرآن الكريم ثم الحديث النبوى شريف ، والتفسير ، وكتب السير والمغازى ، ثم الادب الجاهلى ، فكتب اللغة ، واخيرا كتب التاريخ والجغرافية • وسنقوم فيما يلى بعرض لهذه المصادر :

اولا ــ المصــــادر الاثرية :

تعد المصادر الاثرية أهم مصادر التاريخ العربى القديم ، ومع ذلك فان الاهتمام بها جد حديث ، اذ اننا منذ قرن واحد من الزمان كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام تعتمد فقط على مصــادر قليلة لا تشفى غليل العلماء ، فكان الاعتماد بشكل رئيسى على ماجــاء فى التوارة وعلى ما كتبه المؤرخون والرحــالة اليونان والرومان ، وعلى كتــابات المؤرخين العرب والشعر الجاهلى وظل الامر كذلك حتى أخريات القرن الثامن عشر الميلادى حينما بدأ الاوروبيون يهتمون ببلاد العرب وكان وراء ذلك العديد من الدوافع والاسباب ، التى منهـا الدوافع السياسية ، فكــان للرغبة فى السيطرة على بلاد العرب بعد امتــداد النفوذ الغربى فى الشرق الاوســط والاقصى أثره فى دراسته هذه المنطقة ومنها الرغبة فى معرفة ما تحويه هذه البلاد من آثار ، فقــد سمع الاوروبيون فى رحلاتهم الى الهنــد ما يتناقله سكان شواطىء اليمن وحضرموت عن الاثار والابنية والنقوش المدفونة فى التلال والاودية ، كما كان للكتابات القصصية التى سجلها مؤرخو اليونان

والرومان والعرب ، وما حفلت به الكتب المقدسة عن ملكة سبأ وسليمان عليه السلام أثرها فى محاولة الكشف عن التراث القديم لبلاد اليمن .

ومن أوائل من قاموا باكتشافات علمية منظمة فى جنوب بلاد العرب «كارستن نيبور Carsten Niebuhr » الذى كان ضمن بعثة دانيماركية غادرت ميناء كوبنهاجن عام ١٧٦١م ، وظل فى بلاد العرب الجنوبية حتى عام ١٧٩٧م . وتكونت هذه البعثة بالاضافة الى كارستن نيبور ، عالم متخصص فى اللغات الشرقية وهو «كريستنس فون هافن» وعالم متخصص فى علم الحيوان وهو «بيتر فور سكال» ورسام هو «جورج فلهلم بور نفيند» وطبيب هو «كريستنس كارل كرامر» . وكانت النتائج التى توصلت اليها هذه البعثة من أفضل النتائج التى توصلت اليها البعثات العلمية فى ذلك الوقت ، وما زالت المعلومات التى دونها كارستن نيبور مرجعا أساسيا عن اليمن حتى الآن . وهو يعتبر أول رائد من رواد الغرب ظهر فى القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت انظار العلماء الى المسند والارقام العربية ، الى جانب ما قدمه من خرائط لاماكن مجهولة لم تكن قد وطأتها قدم أوروبى قبل ذلك(١) . وقد اثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فقام من بعده عدد منهم لا يتسع المجال لذكرهم جميعا برحلات الى مختلف انحاء جزيرة العرب عادت على التاريخ العربى والكشوف الاثرية بالجزيرة العربية بفوائد جمة مكنت الباحثين من تتبع المراحل الرئيسية لتاريخ العرب فى العصور القديمة .

ومن هؤلاء الباحثين الدكتور أولريخ جاسبار سيتزن الالمانى الذى تمكن من الوصول الى ظفار حيث نجح فى العثور على النقوش التى اشار اليها كارستن نيبور وفى نسخ خمسة نقوش بالقرب من ذمار تعتبر أولى النقوش العربية الجنوبية ، وقد أرسلها الى أوربا عام ١٨١٠ م ، وهذه النصوص على قصرها أفادت فى تدوين تاريخ العرب قبل الاسلام افادة غير مباشرة ، لانها

---

(١) أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٧٧ وما بعدها .

لفتت انظار المستشرقين اليها والى دراسة التاريخ العربى القديم حتى آل الامر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها(١) .

وخطا البحث الاثرى فى جنوب الجزيرة العربية خطوات كبيرة على يد الصيدلى الفرنسى توما يوسف أرنو Tomas Joseph Arnaud الذى زار اليمن عام ١٨٤٣م(٢) ، وتمكن بفضل علمه بالعقاقير من اكتساب صداقة المشايخ والزعماء ، وبهذه الصداقة استطاع ان يتجول فى بعض انحاء اليمن ومدنها ، ولم يكن ذلك امرا ميسورا للغرباء ، فزار مارب وصرواح وقام بنقل ٥٦ نقشا سبئيا ، وكان لعملة أهميته فى اقبال المستشرقين على فك رموز الخط العربى الجنوبى الذى اطلقوا عليه بشكل عام فى البداية أسم الحروف الحميرية ، ولكن سرعان ما تبين لهم أن هذه النقوش ليست كلها حميرية ، وان بعضها نصوصا معينية وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات أخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف ، وهذه الكتابة ، هى الكتابة المسماة بـ «خط المسند» وبـ «القلم المسند» وبـ «المسند» فى الموارد العربية .

وفى عام ١٨٧٠م قام اليهودى الفرنسى يوسف هاليفى Joseph Halevy برئاسة بعثة فرنسية تابعةللاكاديمية الفنونوالاداب الجملية ،بزيارة اليمن ولقد دخل اليمن فى هيئة يهودى متسول من أهل القدس ليتجنب بذلك ما يتعرض له الغرباء واهل البلاد المسلمون على السواء من اخطار رجال القبائل وقطاع الطرق الذين لا يمسون أهل الذمة بسؤ . وقد استطاع بهذه الطريقة التجول فى ارجاء اليمن حتى بلغ اعاليها مثل نجران واعالى الجوف ، وهى المنطقة التى كان فيها المعينيون ، ووصل فى تجواله الى مأرب والى صرواح .

---

(١) ديتلف نلسن ، التاريخ العربى القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦ ، جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ترجمة قدرى قلعجى وقدم له الشيخ أحمد الجاسر ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) احمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٥٠ .

وأخيرا عاد الى فرنسا ومعه ٦٧٦ نقشا لم يكن من بينها الا أحد عشر نقشا سبق أن نقلها ارنو ، ومع ذلك فاهم نتائج هذه الرحلة كان فى المعلومات الجديدة التى وردت فى هذه النقوش ، فضلا عن الآثار القديمة التى زارها وقام بوصفها وخاصة خرائب «قرناو» عاصمة دولة معين(١) .

ومن أهم من جاء بعد هاليفى ، العالم النمساوى ادوارد جلازر Edward Glaser الذى قام باربع رحلات الى اليمن بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤ عاد منها بعدد كبير من النصوص والنقوش بلغت زهاء الف نقش ونص ، وبمادة غزيرة من المعلومات . ولقد اعد جلازر نفسه لهذه الرحلات اعدادا جيدا فزار قبل ذهابه الى اليمن كل من تونس ومصر ليتمكن من اللغة العربية ويتعرف على العادات العربية ، ورغم انه يهودى ، فقد أدعى الآسلام ، وارتدى زى علمائة وسمى نفسه «الحاج حسين» . ولقد تمكن فى رحلته الاولى التى استمرت من إكتوبر ١٨٨٢ وحتى مارس ١٨٨٤م من الحصول على ٢٥٠ نقشا ، وفى رحلته الثانية التى استمرت من أبريل ١٨٨٥ وحتى فبراير ١٨٨٦ تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبوغرافية البلاد وأماكنها الاثرية وعاد بعدد من النقوش التى أضيفت الى ممتلكات المتحف البريطانى(٢)، وفى رحلتة الثالثة التى استمرت من عام ١٨٨٧ وحتى ١٨٨٨م حصل على اربعمائة نص من مدينة مارب ، ونصوص أخرى من مدينة صرواح يرجع عهدها الى العصر السبئى . وفى رحلته الرابعة التى استمرت من عام ١٨٩٢ وحتى عام ١٨٩٤ أستعان بالاعراب فى نسخ النقوش القديمة فى مناطق الجوف ، ومن ثم فقد تيسر له جمع مئات من النقوش الهامة دون أن يذهب بنفسه الى تلك المناطق البعيدة المحفوفة بالمخاطر ، كما تمكن خلال هذه الرحلة من جمع مجموعة من النقود العربية القديمة ، التى اصبحت ضمن مقتنيات المتحف الخاص بتاريخ الفنون فى فيينا(٣) .

---

(1) Fakhry, A., An Archaeological Journey to Yemen, Cairo, 1952, Vol. 1, pp. 21-24.

(2) Derenbourg, H., Yemen Tnscriptions, the Glaser Collection in the Bebyloniana and Oriental Record, 1; 1887

(٣) ديتلف نلسن ، المرجع السابق ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

وبفضل هذا العدد الضخم من النقوش التى حصل عليها جلازر تمكن المهتمون بدراسة تاريخ القسم الجنوبى من بـلاد العرب من التعرف على خصائص اللغات العربية الجنوبية القديمة ومقارنتها بغـيرها من اللغات السامية بما يستتبعه هذا من التوصل الى معرفة بعض العلاقات الداخلية الخارجية فى صدد الاتصالات بين هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم القديم ، ولقد فتحت رحلات جلازر عهدا لمعلـوماتنا عن اليمن • ويرجع السر فى نجاحه وتوفيقه الى اعداده العلمى الذى امتاز به عن سائر رفاقه الذين سبقوه ،فقد درس التقاليد والعادات واللغة العربية والديانة الاسلامية، ثم أنه كان يحدد هدفه قبل البدء فى الرحلة ، ولقد قضى حوالى عشرة اعوام بين القبائل العربية فاكتسـب صداقتهم وامن جانبهم ، كمـا كان محببا الى كثيرين من أفراد قبائلهم والا ما استطاع أن يحصل على ما حصل عليه من وثائق ونقوش وعملات • ومن حسن الطالع أن الله وهب جلازر منذ عودته من رحلاته فى بلاد العرب الجنوبية الى حين وفاته فسحة من الوقت مكنته من العناية بالنقوش ودراسة مشاكلها ، كما استغل بعض الاشارات الواردة فيها لوضع مؤلف عن تاريخ بلاد العرب الجنوبية •

وفى عام ١٩٣٦ ، ارسلت جامعة القاهرة بعثة علمية الى جنوب بـلاد العرب تحت رياسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية ،وكذلك دراسة النقوش السبئية ، الا أن نشاط البعثة الاثرى اقتصر على المنطقة المحيطة ببلدة «ناعط» ،وقد نشرت البعثة بحثين أحدهما عن الخطوط التجارية فى شبة الجزيرة فى العصر الرومانى ، والآخر عن التغيرات المناخية التى أدت الى الهجرات من جنوب شبه الجزيرة الى شمالها فى العصور القديمة(١) •

---

(١) نشر الدكتور سليمـان حزين بعض ملاحظاته عن هـذه الرحلة العلمية فى مجله •

Nature, Vol, CXI, 1937, p. 513 ff.

كما قام عضو البعثة الدكتور خليل يحيى تامر بعمل رسالة عن نتائج هذه الرحلة بعنوان : نقوش سامية قديمة من جنوب بـلاد العرب وشرحها وذلك عام ١٩٤٣ •

وفى عام ١٩٤٧ ، قام الاستاذ الدكتور أحمد فخرى برحلة الى اليمن زار فيها مناطق صرواح ومارب وما حولهما وكذلك جميع مراكز الحضارة المعينية فى الجوف ، وقد تمكن من العثور على حوالى ١٢٠ نقشا جديدا لم تكن معروفة من قبل ، كما أخذ مجموعة من الصور «الفوتوغرافية» لكل ما رآه من آثار وبخاصة سد مارب والمعابد الاخرى وبخاصة معبد المقه اله القمر السبئى الموجود فى مارب . وقد نشر نتائج رحلته فى بضع مقالات ، وفى كتاب أصدره عام ١٩٥٢ م ، فى ثلاثة أجزاء . ثم قام بزيارة اليمن مرة اخرى عام ١٩٥٩ م حيث زار مارب للمرة الثانية ونقل نقوشا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، كما نجح فى الوصول الى موقع معبد فى منطقة المسأجد ؛ وهو معبد كبير وحالته لا بأس بها(١) .

ولقد توالت بعد ذلك البعثات الاثرية لعمل ابحاثها ودراساتها فى جنوب الجزيرة العربية ، حيث اضافت الكثير الى معلوماتنا عن الحياة السياسية والاجتماعية والدينية فى جنوب الجزيرة العربيه .

والى جانب هذه المجهودات العلمية الخاصة بجنوب الجزيرة العربية ، فقد كانت هناك مجهودات موازية فى القسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية ، ومنها ما قام به الرحالة «دى فرتيما» الذى وصل الى مكة قادما من دمشق عام ١٥٠٣ م ثم واصل رحلته الى عدن ؛ وقد قام برسم خريطة لشبه الجزيرة العربية كما رسمها بطليموس(٢) . وفى عام ١٨١٢ م تمكن الرحالة السويسرى «جوهان ليدونج بوركهارت» من الكشف عن مدينة البتراء ، كما قام بزيارة الحجاز حيث قدم وصفا دقيقا لموسم الحج وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية .

وفى بداية القرن العشرين قام العالم التشيكوسلوفاكى الويس موسيل

---

(١) قام أ.د. أحمد فخرى بنشر نتائج اعماله فى اليمن فى كتابه
An Archaeological Journey to Yemn.
الذى نشره عام ١٩٥٢ فى ثلاثة أجزاء .

(٢) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم ، ص ٣٧ ــ ٤٤ .

Alois Musil بزيارة نجد والحجاز وبخاصة المواقع التى كانت تمر بها خطوط القوافل التجارية ، ولقد كتب عدة مؤلفات فى وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الاوسط وتدمر ونجد .

ومن هؤلاء الرحالة أيضا «هارى سان جون بريدجر فلبى» الذى قام بعدة رحلات فى أرجاء المملكة العربية السعودية ، وكانت آخر هذه الرحلات عام ١٩٥١ – ١٩٥٢ م وكان بصحبته العالم البلجيكى «ج. ريكمانز» حيث زارا المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، وعاد ومعه ١٢٠٠٠ نقشا ، منها تسعة آلاف نقش ثمودى وبقيتها نقوش لحيانية وسبئية(١)

واستمرت عمليات البحث فى منطقة الجزيرة العربية ، وقام بهذه الجهود بعثات كندية وأمريكية والمانية وانجليزية ، واخيرا قامت البعثات الوطنية بدورها فى هذا المجال ، ومنها بعثة قسم التاريخ بجامعة الرياض برياسة الدكتور عبد الرحمن الانصارى فى منطقة الفاو بوادى الدواسر .

وترجع أهمية المصادر الاثرية فى كونها التعبير المادي الملموس الذى خلفه لنا الانسان فى الجزيرة العربية ، وهو يتصل بكافة مجالات الحياة وميادينها ، وتنقسم المصادر الاثرية الى أنواع متعددة منها المصادر الاثرية المعمارية وتشمل بقايا المنازل والمقابر والمعابد والحصون والسدود ، أى جميع البقايا المعمارية سواء كانت دينية أو دنيوية فى كافة مجالاتها ، وهناك كذلك المصادر الاثرية الفنية وتتضمن جميع ما خلفه الانسان فى مجالات النحت والنقش والتصوير . وهناك كذلك الادوات والاوانى المصنوعة من الاحجار أو الفخار أو الاصداف أو العظام أو المعادن وغيرها .وتشمل المصادر الاثرية كذلك أدوات الزينة والعملات التى كانت متداولة . وأخيرا فمن أهم المصادر الاثرية التى خلفها لنا الانسان تتمثل فى النقوش التى سجلها الانسان سواء على جدران المعابد أو الالواح التذكارية أو النصب أو على صخور الجبال .

---

(١) أحمد فخرى ، اليمن ماضيها وحاضرها ،ص ١٤٨ ، محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ص ٨٥ .

وسنقوم فيما يلى باعطاء صورة تفصيلية بعض الشيىء لبعض انواع هذه المصادر ، ونبدأها بالمصادر الاثرية المعمارية :

تعتبر المصادر الاثرية المعمارية من المصادر الهامة التى يستطيع المؤرخ بواسطتها تكوين فكرة عن الاحوال الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذى يقوم بدراسته ، فيستدل من طبيعة المواد المستخدمة فى البناء وحجم المبان على المستوى الاقتصادى أو الطبقى لهذا المجتمع • وتوضح المبان الدينية، طبيعة المعبودات السائدة ومدى الشعور الدينى ، ومن ناحية أخرى فان مواقع الحصون والاسوار تشير الى المناطق التى كانت معرضة للهجوم ، ويستدل من ذلك على احد امرين ، اما أن هذه المنطقة كانت تجاور مجتمعا آخر وجدت لديه الرغبة فى بسط نفوذ ، أو مدها على هذه المنطقة ، أو لاهمية هذه المنطقة الاقتصادية أو الاستراتيجية كأن تكون تقع مثلا على طريق القوافل التجارية أو قد تكون معبرا لدولة أخرى •

ولقد وهب الله بلاد العرب الجنوبية الاحجار الجيدة اللازمة للبناء ، وبخاصة احجار الجرانيت والجبس والاحجار الجيرية والبازلت ، كما تتوفر بكثرة الاخشاب اللازمة للبناء ، ولقد استخدم الانسان فى جنوب الجزيرة العربية الطوب مع الحجر فى العمارة ، واستكملت المبان العربية الجنوبية تطورها المعمارى ، ووضح ذلك فى نحت الصخور الرخامية الكبيرة التى كانت تنحت نحتا منتظما ، ويبنى بها بطريقة لا نكاد نتبين منها تعدد الاحجار ، وكانت يتم تماسكها ببعضها بواسطة بعض الاوتاد الرصاصية التى كانت تربط المداميك عن طريق ثقوب ، كما كان يصب الرصاص احيانا لزيادة تدعيم البناء وتثبيته • وتتميز هذه المبان بزخارفها المتعددة ، فقد أهتم بزخرفة الاسقف والحيطان والابواب ، وكان يتم بواسطة الذهب والفضة والاحجار الكريمة ،أما الاعمدة فكانت تزخرف بصفائح الذهب والفضة•

ومن نماذج المبان المعمارية التى كشف عنها فى جنوب بلاد العرب معبد الاله المقه الذى يقع جنوب شرق مأرب والذى يطلق عليه العرب اسم «حرم بلقيس» ، ويبلغ طوله حوالى ٨٦ مترا وعرضه ٧٦ مترا ، وتنتهى الجدران بافريزين يتكونان من مربعات بينها فراغ وهذه تكون فتحات للهواء ،

ولا يوجد آى اثر للسقف ، ولو ان احتمال وجود سقف ليس بمستبعد لان اضاءة الفناء قد تتم عن طريق فتحة فى السقف حيث لا توجد فتحات لنوافذ ويوجد بابان كبيران الا أن احدهما اكبر من الآخر ، والكبير منهما يقـع فى نهاية الجهة الشمالية الشرقية ، والاصغر يقع فى الجهة الشمالية الشرقية. وكانت تتقدم الابواب والفناء عدد من الاعمدة المربعة الشكل .

وفيما يختص بعمـارة الاسـوار التى تحيط بالمدن ، فلقـد كشف عن بعضها ومنها السور القديم الذى توجـد بقاياه عند مدينة تـاج الحالية فى المنطقة الشرقية لشـبه الجزيرة على مقربة من شـاطىء الخليج ، وكذلك السور القـديم الذى لا تزال آثاره باقية الى ارتفاع اربعة أمتـار فى بعض الاماكن حول مدينة تيماء فى القسم الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية ويفسر لنا هذا السور أهمية الموقع الذى كانت تشغله هذه المدينة فى العصور القديمة ، فهى كانت تقع فى الطريق بين وادى الرافدين وسورية(١) .

وتجلت عبقرية العرب الجنوبيين فى اقامة السدود التى من اشهرها سد مارب فى اليمن الذى شيد بحيث يحجز مياه الامطار وراءه، حيث يتم التحكم فيها بواسطة عيون تفتح وتغلق حسب الحاجة . ومن هـذه السدود كذلك سد السملقى الموجود بأعلى وادى ليه فى ضـواحى مدينة الطائف جنوب المدينة المنورة بحوالى ٣٥ كيلو مترا ، وقد استمر وجوده فى العصر الاسلامى ولا تزال معظم جوانبه قائمة(٢) .

وهناك نوع آخر من الابنية ظهر بوجه خاص فى القسم الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، وهى المنطقة التى تكثر فيها التكوينات الصخرية، وكان يتم تشييد المساكن فى هذه المناطق بواسطة النحت فى هذه التكوينات الصخرية ، بحيث تشـكل فيها غرف وواجهات واعمدة وزخـارف ، ومن الامثلة الموجودة لهذا النموذج ما نجده فى مدينة البتراء جنـوب الاردن ،

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

وفى واحة البدع (التى تعرف باسم مغاير شعيب) شرق خليج العقبة ، وفى مدائن صالح شمال العلا بحوالى ١٥ كيلو مترا .

ولم تبذل مثل هذه العنـاية فى تشييد المقابر ، اذ كان يـدفن المتوفى فى تابوت حجرى قائم الزوايا ، وكان يوضع عليه غطاء حجرى ، وفى اغلب الاحوال كانت تتجمع بعض المقابر فى مكان واحد يحيط بها سور . واحيانا كان يدفن الموتى فى غرف منحوتة فى الصخر أو فى مـدافن مستقلة بحيث يتكون كل مدفن من حجرتين ، وكان يقام نصب على القبر ، والنصب عبارة عن اعمدة ملساء رباعية الاركان ، وفى الجهة الامامية يوجد فى أعلى النصب اسم المتوفى ، ويوجد أسفل اسم المتوفى مربع صغير رسـم فيه . واحيانا كان يرسم الراس فى الجزء العلـوى من النصب وتحت الرسـم يذكر اسم المتوفى ، وهناك نوع آخر بسيط من النصب يشتمل على الكتـابة وتحتها عينـــان فقـط .

ومن المصادر الاثرية كذلك المنحـوتات(١) سواء كانت تماثيل او نقوش بارزة أو غائرة ، وتوضح نماذج التماثيل التى عثر عليها فى جزيرة العرب وجود صلات بين المناطق التى كشف فيها عن هذه التماثيل وبين حضارات الشرق الادنى القديم فى مصر والعراق ، كما يوضح بعضـها وجود تاثيرات يونانية فى صناعة بعضها ومن هذه التماثيل ، تمثـال صغير عثر عليه فى مدينة العلا شمال غرب الجزيرة العربية يبدو من هيئته ان الفنان الذى قام بنحته كان متأثرا بالفن المصرى القديم فى مجال نحت التماثيل . ولقد عثر فى جزيرة تاروت المجاورة لشاطىء الخليج العربى عند القطيف على تمثال يشبه من حيث نحته التماثيل السومرية التى ظهرت فى جنوب بلاد الرافدين . وفى جنوب بلاد العرب ، عثر فى مدينة تمنع بقتبان على تمثال لطفل يمتطى أسدا ، ويظهر فى هـذا التمثال الاثر اليونانى واضحـا ، ويظهر ذلك فى تمثيل الطفل عاريا ، حيث كان العرب ظاهرة شائعة فى التماثيل اليونانية ، وكذلك فى ليونة الحركة الخارجية . ويرى استاذنا الاستاذ الدكتور لطفى

---

(١) انظر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٨ وما بعدها .

عبد الوهاب يحيى أن هذا التمثال الذى يرجح انه قد صنع فى القرن الاول قبل الميلاد أو القرن الاول الميلادى ، كان تاثيرا يونانيا جاء نتيجة الاحتكاك بين اليونان وجنوبى شبه الجزيرة ، فقد أخذ اليونان يزاولون الملاحة فى البحر الاحمر منذ القرون الثلاث الاولى ق٠م بتشجيع من البطالمة فى مصر ، واستمر ذلك ابان الامبراطورية الرومانية حيث عمل الاباطرة الرومان على فرض نفوذهم على مدخل البحر الاحمر عند مضيق باب المندب ٠ وفى خلال هذا النشاط التجارى البحرى بما فيه من مبادلات كان المجال مفتوحا لوصول بعض الدمى اليونانية التى قدرها الفنان العربى الجنوبى ٠

ومن المصادر الاثرية الهامة التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسته لتاريخ شبه الجزيرة العربية المخربشات والنقوش وهى عبارة عن نصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة ، منها ماعثر عليه فى بلاد العرب الجنوبية ، وتتضمن كتابات المعينيين والسبئيين ، ومنها ماعثر عليه فى أماكن أخرى من جزيرة العرب ، مثل أعالى الحجاز وبلاد الشام ووسط الجزيرة وشرقها٠ ولقد ساعدتنا المخربشات والنقوش والكتابات التى عثر عليها بالاضافة للمصادر الاثرية الاخرى فى تقديم صورة واضحة الى حد ما عما كان جاريا فى تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد وحتى ظهور الاسلام ، ولا سيما ان للاثار ميزتها باعتبار انها الشاهد الناطق الوحيد الباقى لنا من تلك الايام الماضية ٠

ومع ذلك فهناك نقاط ضعف تلاحظ على هذه المصادر منها(١) أولا : ان الكتابات المؤرخة منها قليلة ، ومن ثم فلم تهدنا الى تقويم ثابت يمكن القول أن العرب القدامى كانوا يستعملونه ، وهذا يجعلنا نعتقد أن العرب كانوا يؤرخون الاحداث طبقا لسنى حكم الملوك ، بل أن البعض قد تجاوزوا ذلك الى التاريخ بايام الرؤساء والبعض الآخر اهمل التاريخ تماما ٠ ومنها ثانيا : أن اهمية معظم النقوش تنحصر فى الناحية اللغوية اكثر من أهميتها التاريخية ، لانها فى غالبيتها تتشابه فى مضمونها وفى انشائها لتعلقها بأمور

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٥ – ٢٩ ٠

شخصية • ومنها ثالثا : أن النصوص اللحيانية عبارة عن مخربشات صغيرة وبعضها ليست نقوشا كاملة ، ومن ثم فان الفائدة منها قليلة ، كما أن قلة من العلماء هى التى كانت بقادرة على ترجمتها ،ومنها رابعا : أن معظمها ذات صبغة دينية نظرا لانها وجدت فى المعابد والقبور • ومنها خامسا : أنه يجب أخذ جانب الحيطة والحذر اذا كان النقش يشير الى ملك أو حاكم يتحدث عن منجزاته وبخاصة اذا كان الامر يتعلق بانتصارات أحرزها على خصومه، نظرا لاحتمال المبالغة فى تمجيد الانتصارات ، أو التهوين من شأن الهزائم•

ومع كل نقاط الضعف هذه ، فقد أفادتنا فائدة كبيرة فى تدوين تاريخ العرب القديم ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، لولاها لما عرفنا عنهم شيئا ، كما استطعنا من خلال الاشارات التى وردت فى بعض النقوش عن حروب وقعت بين بعض المناطق أن نكون فكرة عن طبيعة العلاقات الموجودة بين هذه البلاد ونفس الامر اذا كانت هناك اشارات الى وجود نوع من العلاقات السلمية كالتبادل التجارى أو زيارات الوفود وغيرها •

وتقدم بعض النقوش معلومات تساعدنا على معرفة مدى الارتباط أو الاتصال بين لغة واخرى ، ومن أمثلة هذه النقوش التى عثر عليها،النقوش المعينية السبئية ، التى وجدت بموقع اثرا فى منطقة قريات الملح فى القسم الشمالى الاوسط من شبه الجزيرة ، والتى يحاول الباحثون اللغويون أن يجدوا فيها همزة الوصل بين لغة الجنوب ولغة الشمال ، ومن هذه النقوش كذلك ، النقش الذى عثر عليه هاليفى بمنطقة نجران عام ١٧٧٢م والذى اتضح للباحثين بعد دراسته أن لغة العرب الجنوبيين فى شبه الجزيرة العربية كانت قريبة فى بعض مناحيها من اللغة الاكدية واللغة الحبشية ، وذلك فيما يتصل بتكوين الاسماء وتصريف الافعال وبعض المفردات والضمائر • وكان لهذا النقش أهمية أخرى بالغة ، وهو أنه كان من النقوش التى ساعدت الباحثين فى ترسم العلاقة بين الخط العربى الجنوبى وبين الخط الذى كتبت به العرب النقوش التى عثر عليها فى سيناء •

ويستفاد من النقوش فى معرفة بعض المعلومات عن الاحوال والنظم والقوانين والعادات التى كانت سائدة فى منطقة أو أخرى من شبه الجزيرة

العربية • وفى هذا المجال فلقد كشف عن آلاف النقوش التى تتصل بعبادة بعض الآلهة مثل المقه وعشتار وشمس ، كما كشف عن بعض النقوش التى سجلت بعض القوانين أو التى تشير الى بعض القوانين التى كانت سائدة فى وقت تسجيلها •

وتعتبر البقايا الفخارية من المصادر الهامة التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ، اذ تشير البقايا الفخارية الى الاحوال الاجتماعية ، فقد كان الفخار هو السلعة الاكثر استخداما فى الحياة اليومية، وتشير كميات الفخار التى يعثر عليها على مدى وجود حياة مستقرة من عدمه • ويستدل كذلك من طراز صناعة الاوانى الفخارية وزيناتها على التطور الحضارى ، كما أنها تستخدم كوسيلة من وسائل التقويم الزمنى للموقع الذى توجد فيه،وذلك عن طريق دراسة المادة المستخدمة فى صناعتها وتقنيتها ونقوشها وزيناتها ومقارنتها بالبقايا الفخارية المشابهة فى المواقع الاخرى •

ومن المصادر الاثرية كذلك ، العملة ، وهى تساعد المؤرخ فى تحديد التواريخ والتعرف على أسماء الملوك الذين اصدروها،وتفيد كذلك فى معرفة الاحوال الاقتصادية من حيث المعدن الذى صنعت منه • وفى أحيان أخرى يستدل من وجود عملات أجنبية على معرفة العلاقات التجارية الخارجية(١) •

ثانيا ـ كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان :

تتضمن كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الاسلام(٢) ، ويبدو أن مصدر معلومات هؤلاء الكتاب هم الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا فى الحملات التى وجهتها بلادهم الى بلاد العرب ، وكذلك من السياح الذين اختلطوا بقبائل عربية واقاموا بين ظهرانيها ، وكذا من التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون فى تلك البلاد • وتعد الاسكندرية من أهم

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ ـ ١٤٧ •
(٢) أنظر عن كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان :
لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ ـ ٢٢٨ ، جواد على، المرجع السابق ، ص ٥٦ ـ ٦١ •

المراكز التى كانت تعنى بجمع المعلومات عن بلاد العرب وعادات سكانها ، ومنتجاتها ، وذلك لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط ، وقد استقى كثير من كتاب الاغريق والرومان معارفهم من هذه المصادر التجارية العالمية .

ورغم اهمية هذا المصدر ، الا ان هناك نقاط ضعف فيه ، منها ، أن هؤلاء الكتاب كانوا يحكمون على ما يرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم ، وحسب عقليتهم وادراكهم وتاثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلا عن انهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التى كانوا يصفونها ،او يتحدثون عن تاريخها ، فاعتمدوا على رواية محدثيهم ، وكلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيرا أضف الى ذلك أن كثيرا منهم قد أساءوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير او تعليل ما سمعوه ، بل أن بعضهم قد ذهب الى وجود أصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونانية ، ولعل فى هذه الفكرة ــ رغم سذاجتها ــ ما فيها من اشارات الى علاقة قديمة جدا بين سكان شبه الجزيرة ، وبين سكان البحر المتوسط الشماليين .

ومن اولى أشارات المصادر اليونانية عن بلاد العرب ، ماورد فى ملحمة هوميروس الاوديسية ، وكذلك الاشارة التى وردت فى اشعار هزيودوس Hesiodes ، ثم الاشارات التى وردت فى مسرحية ايسخيلوس Aeschylos (٥٢٥/٤ ــ ٤٥٦ ق٠م) .

وابتداء من مطلع القرن الخامس قبل الميلاد بدات الكتابات التاريخية المفصلة عن بلاد العرب فى الظهور ، ومن هؤلاء المؤرخين :

١ ــ هيرودوت Herodotus (حوالى ٤٨٤ ــ ٤٣٠ ق٠م) : تعتبر كتاباته أول كتابات مفصلة عن بلاد العرب ، وقد تعرض هيرودوت لذكر العرب عند الحديث عن الحروب التى قامت بين فارس ومصر على أيام الملك الفارسى قمبيز (٥٣٠ ــ ٥٢٢ ق٠م)[١] .

---

(1) The History of Herodotus, Translated by G. Rawbinson, in 2, Vols, London, 1920.

ويلاحظ أن هيرودوت فى كتاباته لا يقصر تسمية بلاد العرب على شبه الجزيرة العربية ولكنه يطلقها ، الى جانب شبه الجزيرة العربية على كل القسم الداخلى من سورية وعلى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، ولقد تطرق فى كتاباته الى موقع شبه الجزيرة العربية وتربتها وعن عادات العرب وتقاليدهم وعقائدهم الدينية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم فى الحرب، وأورد فى كتاباته كذلك الشيء الكثير عن منتجات بلاد العرب كاللبان والمر والقرفة واللادن ، كما ذكر مقتطفات من تاريخهم وعلاقاتهم الخارجية . ولكن يؤخذ على كتابات هيرودوت أنها لم تنجو من الافكار الساذجة التى سادت عصره ، وجعلت كتاباته بها نواة الحقيقة ومغلفة بالمبالغة والتحريف.

٢ ـ ثيوفراستوس **Theophrastos** (حوالى ٣٧١ ـ ٢٨٧ ق.م) كان اخصائيا فى التاريخ الطبيعى واحد تلاميذ أرسطو ، وأصبح خليفته فى رئاسة معهد اللوتيون ، وقد الف كتاب **Historia Plantarum** وكذلك كتاب **De Causis Plantarum** ، ويلاحظ انه فى خلال حديثه عن النباتات تطرق الى ذكر البقاع العربية التى كانت تنمو بها الاشجار التى يتحدث عنها ، وخص بالذكر المناطق الجنوبية من بلاد العرب ، فكان أول من ذكر السبئيين وتكلم بشكل تشريحى عن اللبان والمر الذى يستخرج من مناطقهم كما اعطى بعض المعلومات عن تجارتهم وسفنهم .

٣ ـ اراتوشنيس **Eratosthenes** (٢٧٥ ـ ١٩٤ ق.م) : كان جغرافيا ، ولقد قدم فى كتاباته تقسيما لبلاد العرب ، فقسمها الى بلاد العرب الصحراوية وبلاد العرب الميمونة ، وقسم المنطقة من الشمال الى الجنوب حسب الحياة الاقتصادية التى يمارسها السكان ، كما تكلم عن بعض الشعوب الموجودة فى جنوب الجزيرة العربية مثل معين وسبأ وقتبان وحضرموت .

٤ ـ سترابون **Strabo** (٦٤ ق.م ـ ١٩م) الف كتابا باللغة اليونانية فى سبعة عشر جزءا أسماه «الجغرافية» **Geographica** ، ووصف فيه الاحوال الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الامبراطورية الرومانية الرئيسية وتاريخها واحوال سكانها الاجتماعية والدينية ،وقد خصص فى كتابه السادس عشر فصلا خاصا عن بلاد العرب ، ذكر فيه الخطوط التجارية البحرية

والبرية من مـوانىء وطرق الجانب الشرقى للبحر الاحمر الى مـوانىء وطرق الجانب الغربى لهذا البحر ، محـددا بدايات الخطـوط ونهاياتها والمواقع التى تمر بها ، وتعرض لنظام الحكم الذى كان يسود بعض المناطق العربية ، والعلاقات التى كانت تربط بين أقوام المنطقة وغيرهم ، ومن أهم ماقدمه سترابون وصفه للحملة الرومانية على الجزيرة العربية ،وهى الحملة التى قـادها ايليوس جالوس Aelius Gallus أول وال رومانى على مصر . وقيمة حديثه عن الحملة ترجع الى أنه قد شارك بنفسه فيها وكان صديقا شخصيا لقائدها ، ومن ثم فقد تيسر له الحصول على معلومات قد لا تتيسر لغيره ، فوصفه لها وصف شاهد عيان ، وقـد استهل وصـف الحملة بهذه العبارة : «لقد علمتنا الحملة التى قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة ايليوس جالوس فى ايامنا هـذه اشياء كثيرة عن تلك البلاد» . ولقـد ذكر الاسباب التى أدت الى التفكير فى القيام بهذه الحملة ، والاستعدادات التى سبقتها ، والطرق التى سلكتها ونتائجها والاخطاء التى وقعت فيها(١) .

٥ ــ بلينيوس الاكبر Pliny The Elder (٢٣/٢٤ ــ ٧٩م) : وهـو جايوس بلينيوس سيكوندوس Gaius Plinius Secundus ومن كتبه المهمة كتابه «التاريخ الطبيعى Naturalis Historia » الذى قسمة الى سبعة وثلاثين قسما ، ولقد تناول شبه الجزيرة العربية فى قسميه من هذا المؤلف ولقد تحدث فيهما عن بـلاد العرب وثرواتها وجغرافيتها ومدنها وسكانها وبعض الاحداث التاريخية التى مرت بها ، وطرق التجارة فى شبه الجزيرة والمسافات بين بعض المراكز التجارية .ويتحدث كذلك عن المنتجات الطبيعية لشبه الجزيرة العربية ومنـاطق تواجدها ومـواسم محـاصيلها وطريقة استخراجها وجمعها . كما يتحدث عن اثمانها .

٦ ــ ومن الكتب الهامة التى وصلتنا عن شبه الجزيرة العربية كتاب لمؤلف يونانى مجهول ، واسم الكتاب «الطواف حول البحر الاريترى»(٢) .

---

(1) The Geography af Strabo, Translated by H. L. Jones London, 1949.

(٢) فضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٤ .

وقد أختلف المؤرخون حول الوقت الذى ثم فيه تاليف هذا الكتاب ، فيرى البعض أنه فى نهاية القرن الاول الميلادى ، أو فى عام ٨٠م ، أو فى النصف الاول من القرن الثالث الميلادى . وقد وصف مؤلف هذا الكتاب فى مؤلفه تطوافه فى البحر الاحمر وسواحل بلاد الغرب الجنوبية ، فوصف الطرق التجارية بين مصر والهند مرورا بشواطىء شبه الجزيرة ، كما اشار فى كتابه الى الانباط وكذلك علاقة الامبراطورية الرومانية بشبه الجزيرة العربية . الا أنه لم يهتم الا بأحوال السواحل ، اما الاقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر أنه لم يكن ملما بها الماما كافيا .

٧ - كلاوديوس بطلميوس Claudius Ptolemaius (القرن الثانى الميلادى) : الف كتابا فى الجغرافيا أسماه «الدليل الجغرافى Geographike Hyphegesis وقد جمع فيه بطلميوس ما عرفه العلماء اليونان وما سمعه هو بنفسه وما شاهده بعينه ، ولقد قسم فيه الاقاليم بحسب درجات الطول والعرض ، وتكلم فى كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلها واحوالها ، وتعتبر الخريطة التى أرفقها بكتابه أدق خريطة وضعت فى العصر القديم ، وظلت هى الخريطة المعمول بها حتى بدايات العصر الحديث . ولقد قسم بطلميوس شبه الجزيرة العربية الى ثلاثة اقسام : العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية والحجرية والعربية الميمونة(١) .

ثالثا - الكتابات اليهودية :

١ - التوراة(٢) :

التوراة أو (التورة) كلمة عبرية معناها الهداية والارشاد ، ويقصد بها الاسفار الخمسة الاولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنيه) والتى تنسب الى موسى - عليه السلام - هى جزء من العهد القديم ، والذى

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، اسرائيل ، جزء أول ص ١٩ - ١٥٩ .

يطلق عليه تجاوزا-اسم «التوراة» من باب اطلاق الجزء على الكل ، او لاهمية التوراة ونسبتها الى موسى عليه السلام •

هذا وقد تحدثت التوراة فى كثير من اسفارها عن العرب وعلاقتهم بالاسرائيليين ، غير أنها عندما تتحدث عن العرب ، تهتم بالاماكن والقبائل العربية ذات العلاقة الاقتصادية باليهود فى بعض الاحيان ، وذات العلاقة السياسية فى احوال اخرى،ولهذا نجدها عندما تتحدث عن القبائل العربية، تتحدث عنها على اساس أنها قبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين ، ثم هى قبائل بدوية فى المكان الاول ، الا عندما يتصل الامر بقصة سليمان ـ عليه السلام ـ وملكة سبأ ، فان هذه القبائل تصبح ذات شأن آخر • وعلى أى حال ، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخى ، أن نتخلص تماما من الهالة التى اسبغها عليها المؤمنون بها ، وأن ننظر اليها كما ننظر الى غيرها من المصادر التاريخية وذلك لان من كتبوا التوراة المتداولة اليوم كانوا بشرا مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيرا عن نظائرهم من معاصريهم فى الشرق ، وهى مادامت كتاب تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من مناقشتها ونقدها فيما يتفق مع المنطق والمعقول •

٢ ـ التلمود :

هناك نوعان من التلمود ، التلمود الفلسطينى أو التلمود الاورشليمى كما يسميه العبرانيون اختصارا ، والتلمود البابلى نسبة الى بابل بالعراق ويعرف عندهم باسم بابل اختصارا • ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذى وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطينى طابع التمسك بالرواية والحديث ، أما التلمود البابلى ، فيظهر عليه الطابع العراقى الحر وفيه عمق فى التفكير وتوسع فى الاحكام والمحاكمات وغنى فى المادة • وقد بدىء فى وضع التلمود منذ القرن الثالث الميلادى ، وهو يكمل أحكام التوراة •

ولقد تحدث التلمود عن عدد من جوانب الحياة عند العرب ، وأن كان على الباحث أن يستنتج ذلك بشكل غير مباشر فى أغلب الاحوال من حديث كتاب التلمود عن المسائل الفقهية والتشريعية وهو الموضوع الاساسى له ، والتى تتطرق الى ما يجوز وما لا يجوز العمل به فى المعاملات بين العرب

والعبرانيين ، كذلك يجب ان ندخل فى اعتبارنا ان عددا من الامثلة التى ترد فى التلمود فى سبيل الحديث عن هذه المعاملات انها تشير الى عرب سيناء وليس الى سكان شبه الجزيرة العربية .

٣ ـ كتابات المؤرخ اليهودى يوسف بن متى (يوسف فلافيوس) :

ولد يوسف بن متى فى اورشليم عام ٣٧م ، وتفى حوالى عام ١٠٠م فى روما ، ولقد الف وهو فى روما كتبه المعروفة التى من اهمها «تاريخ عاديات اليهـــود Joudaike Archaioloigia » تنتهى حوادثه بعام ٦٦م ، وقد الفه من عشرين جزءا ، وكتاب «تاريخ حروب اليهود Pe:i tou Joudiakou Polemou» وتبدأ حوادثه من استيــلاء انطيوخس افيفــانوس An.iochus Epiphanos على القدس عام ١٧٠ ق.م ، وحتى الاستيلاء عليها مرة ثانية فى عهد تيتس Titus سنة ٧٠م ، ولقد كان المؤلف شاهد عيان لهذه الحادثة .

وتحتوى مؤلفاته معلــومات قيمة عن العرب ، وبخاصــة الانباط الذين كانوا يقيمون على ايامه فى منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتتاخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الاحمر ، غير انه لم يهتم الا من ناحية علاقة الانباط بالعبرانيين ، فضلا عن أن بلاد العرب عنــده لا تعنى سوى مملكة الانبـــاط .

وعلى الرغم من تحيزه لقومه اليهود ورغبته فى ارضاء حماته من الاباطرة الرومان ، واعتماده الى حد كبير على كتاب العهد القديم فى مؤلفاته ، فان لمؤلفاته قيمة تاريخية لا شك فيها ، وبخاصة الفترة التى عاصرها والحروب التى شــارك فيهــا[1] .

رابعــا ـ الكتــابات المسيحية :

ترجع أهمية الكتابات المسيحية الى انها فى ثنايا عرضها لانتشار المسيحية فى بلاد العرب تعرضت الى ذكر القبائل العربية وبعض ما كان يوجد فيها

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ، جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء ثالث ، ص ٥٥ .

والعلاقات فيها بينها وكذلك علاقة القبائل العربية بكل من الفرس واليونان كما ترجع اهميتها ايضا الى انها كانت حينما تتعرض لذكر حوادث معينة كانت تربطها بتواريخ ثابتة مثل المجامع الكنسية أو تواريخ بعض القديسين أو الحروب الهامة ٠ ولقد ساعدنا ذلك فى معرفة تواريخ الاحداث التى أشارت اليها الكتابات المسيحية ، ومن هؤلاء الكتاب المسيحيين :

يوسيبيوس Eusebius (٢٦٣ ـ ٣٤٠م) (١) : كان واحدا من آباء الكنيسة البارزين فى عصره ، وقد ولد فى فلسطين ، أو ربما فى قيصرية التى كان أسقفا لها ، وهو اول مؤرخ كنسى يعتد به ، ولقد اطلق عليه العديد من الالقاب التى من بينها : يوسيبيوس القيصرى ، وأبى التاريخ الكنائسى ، وهيرودوت النصارى ٠ وساعده اتصاله بكبار رجال الدولة ورؤساء الكنيسة على أن يعرف الكثير من اسرار الدولة وأن يراجع المخطوطات والوثائق التى كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والموسرين ٠ ومن أهم مؤلفاته نذكر مؤلفه الذى أطلق عليه «The Chronicon» وقد الفه باللغة اليونانية ، ولقد ضم بجانب التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التى حدثت فى أيامه ، ولقد استعرض فى هذا المؤلف تاريخ اليونان والرومان حتى سنة ٣٢٥م ، وامكننا من خلاله معرفة علاقتهم ببلاد العرب وتتبع بعض الاخبار والحوادث التى حدثت فى بلاد العرب ٠

وبالاضافة الى هذا المؤلف ، فقد الف العديد من الكتب التى منها : «التاريخ الكنائسى» الذى أخرجه فى عشرة أجزاء وهو يبدأ بالمسيح عليه السلام وينتهى بوفاة الامبراطور ليكينوس Licinius عام ٣٢٤ م ، وكتاب «شهداء فلسطين» الذى تحدث فيه عن معاناتهم حتى الاستشهاد فى الفترة من ٣٠٣ ـ ٣١٠ م وكتاب سيرة قسطنطين ، ويمكننا من خلال هذه المؤلفات معرفة بعض الاخبار عن بلاد العرب وبخاصة بلاد العرب الشمالية ٠

---

(1) Smith, W., A Dictionary af The Bible; III, p. 107.

جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء أول ، ص ٦١ ـ ٦٢ ٠

بروكبيوس Procopius (المتوفى عام ٥٦٣م) : يعد بروكبيوس المؤرخ الكنسى لعصر جستنيان ، وكان أمين سر القائد بليزاريوس ، وقد رافقة عدة سنين فى بلاد فارس وشمال افريقية وجزيرة صقلية ، وقد تحدث فى كتابه «تاريخ الحروب» عن المعارك التى دارت بين الغساسنة واللخميين ، فضلا عن غزو الاحباش لليمن فى الجاهلية[١] .

ومن هؤلاء المؤرخين المسيحيين كذلك نذكر كل من اتاناسيوس (حوالى ٢٩٦ ـ ٣٧١م) وجيلاسيوس (حوالى ٣٢٠ ـ ٣٩٤م) وروفينوس تيرانيوس المتوفى عام ٤١٠ م وايرينوس أسقف صور والمتوفى عام ٤٤٤م ، وزكريا المتوفى حوالى عام ٥٦٨م ، ويوحنا ملالا المتوفى عام ٥٧٨ م .

وذلك بالاضافة الى ماكتبه المؤرخين النصارى من روم وسريان فى أيام الدولة الاموية والدولة العباسية،ولقد الفوا فى التاريخ العام وتاريخ النصرانية فتحدثوا عن العرب فى الجاهلية والاسلام . وترجع اهمية هذه المؤلفات فى تتبع انتشار المسيحية بين القبائل العربية وعلى معرفة صلات الفرس والروم بالعـــرب .

وتوجد فى قائمة المخطوطات السريانية فى المتحف البريطـانى اسماء مخطوطات تاريخية ودينية ذات فائدة كبيرة فى معرفة اخبار بلاد العرب وعلاقاتهم وذلك اثناء تتبعها لانتشار المسيحية فى بلاد العرب .

خامسا ـ المصـادر العربية :

١ ـ القرآن الكريم[١] :

يأتى فى مقدمة المصادر العربية القرآن الكريم ، كتاب الله الذى «لا يأتيه

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، جزء أول ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٨ .

(٢) محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، ص ٣٧ وما بعدهـا .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (سورة فصلت ، آية ٤٢) تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه وصيانته «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» (سورة الحجر : آية ٩) وحماه وصانه من أن يتطرق اليه شيء من الضياع فقال سبحانه وتعالى : «وانه لكتاب عزيز ، لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (سورة فصلت آية ٤١ ـ ٤٢) وقوله جل من علا : «أن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه» (سورة القيامة آية ١٧ ـ ١٩) .

ويعتبر القرآن الكريم من أصدق المصادر واصحها على الاطلاق ، فلا سبيل الى الشك فى صحة نصه بحال من الاحوال ، والقرآن الكريم كتاب هداية وارشاد انزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين ومنهاجا يسيرون علية فى حياتهم فاذا ماعرض لحادثة تاريخية ، فانما للعبرة والعظة كذلك فان القرآن الكريم فى محاولته تصحيح عدد من الاوضاع والممارسات التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى عند نزوله ، يعطينا فكرة واضحة عن هذه الاوضاع والممارسات ، وعن الدوافع التى ادت بهذا المجتمع الى اتخاذها طريقا له والتعنت فى سبيل المحافظة عليها ، وهى دوافع يسهب القرآن الكريم فى عرضها وتفصيلها ، ومن ثم نستطيع تكوين صورة عن الصراع الذى شهده مجتمع الجزيرة العربية فى نهاية العصر الجاهلى بين ماكان قائما وبين ما كانت الدعوة الاسلامية بسبيل تقديمه .

ويقدم لنا القرآن الكريم معلومات هامة عن عصور ما قبل الاسلام فى الجزيرة العربية واخبار دولها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، فقد اشار القرآن الكريم فى كثير من آياته الى ديانات العرب ومعتقداتهم فى العصر الجاهلى فاشار الى اصنام العرب وآلهتهم وطقوسهم الدينية ومن هذه العبادات ، عبادات ود (القمر) والشمس والشعر ونسر والىلات والعزى ومناة ، ويشير القرآن الكريم الى العديد من الدعوات الدينية التى قام بها عدد من الانبياء فى بعض مناطق شبه الجزيرة العربية مثل دعوة هود فى قوم عاد الاولى فى الجزيرة العربية الجنوبية ، ودعوة صالح فى قوم ثمود ، ودعوة شعيب فى اهل مدين . كما اشار الى العديد من عاداتهم كوأد البنات

وشرب الخمر ولعب الميسر ، ومن الناحية الاقتصادية اشار القرآن الكريم الى بعض مجالات نشاطهم الاقتصادى والرحلات التجارية التى كانوا يقومون بها فى الصيف والشتاء ، وفى ذلك قوله جل وعلا «لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» (سورة قريش) .

وبالاضافة الى ذلك فان القرآن الكريم قد انفرد ـ دون غيره من الكتب السماوية ـ بذكر اقوام عربية بادت كقوم عاد وثمود ، فضلا عن قصة أصحاب الكهف وسيل العرم وقصة أصحاب الاخدود وأصحاب الفيل وغيرها . كما اشار القرآن الكريم فى العديد من آياته الى احدى ممالك العرب الجنوبية ، وهى مملكة سبأ ، فأشار الى الكثير من أحوالها السياسية والاقتصادية ونظام الحكم بها ، وذلك فى سياق قصة ملكتها مع نبى الله سليمان عليه السلام .

٢ ـ الحديث الشريف :

اذا كان القرآن الكريم هو المصدر الدينى الاول ، فان المصدر الدينى الذى يليه هو الحديث . والحديث هو ماورد عن رسول الله ـ ﷺ ـ من قول أو فعل أو تقرير[١] . وجاء الحديث مفسرا للقرآن الكريم ، ذلك ان كثيرا من آيات القرآن الكريم مجملة او مطلقة ، أو عامة ، فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ فبينها أو قيدها أو خصصها ، وذلك تصديقا لقوله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم» (سورة النحل آية ٤٤) ، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثانى للشريعة الاسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لمعرفة التاريخ العربى القديم .

وأهمية الحديث كمصدر تاريخى للمجتمع العربى قبل الاسلام تنحصر فى عصوره القريبة من الاسلام بالذات ، ومن ثم يصبح الحديث مطابقا لها من الناحية الزمنية ، ولقد تضمنت الاحاديث النبوية الشريفة بجانب الاحكام

---

(١) مصطفى السباعى ، السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

الدينية وقــوانين المجتمع الاســلامى بعضا من اخبــار العرب وعــاداتهم الاجتماعية والفكرية قبيل الاسلام •

٣ ـ التفســير :

رغم أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب ، فانه لم يكن كله فى متناول الصحابة جميعا يستطيعون ان يفهموه اجمالا وتفصيلا بمجرد أن يسمعوه ، ومن ثم فقد اختلفوا فى فهمة حسب اختلافهم فى ادوات الفهم وذلك لاسباب منها : أنهم كانوا يعرفون اللغة العربية على تفاوت فيما بينهم ، وان منهم من يلازم النبى صلوات الله وسلامه عليه ويشاهد الاسباب التى دعت الى نزول الآيات ، ومنهم من ليس كذلك ، ويرجع ذلك ايضا الى اختلافهم فى معرفة عادات العرب فى اقوالهم وأفعالهم •

وكان ذلك من دواعى نشاة علم التفسير ، وذلك لفهم القرآن وتدبره ، ولبيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير اليه اشارات غامضة ، وقد نشا علم التفسير فى عصر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان النبى أول المفسرين له ، ثم تابعه أصحابه من بعده ، ولعل أشهرهم الامام على ـ كرم الله وجهه ـ وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود •

ونظرا لتضخم التفسير بالاسرائيليات فى عصر التابعين ، مما دفع الامام أحمد بن حنبــل الى أن يقول «ثلاثة ليس لهــا أصل ، التفسير والمــلاحم والمغازى» اى ليس لها اسناد ، لان الغالب عليها المراسيل ، والى أن يقول الامام ابن تيمية «والموضوعات فى كتب التفسير كثيرة» •

ورغم ذلك ، ورغم هذه الشوائب التى شابت التفسير ، فالذى لا شك فيه أن كتب التفسير تحتــوى على ثروة تاريخية قيمة ، تفيــد المؤرخ فى تدوين التاريخ العربى القديم ، وتشرح ما جاء فى مجملات القرآن الكريم • ويتصل بالفترة التى سبقت البعثة المحمدية من عادات وتقاليد واقوال جاء ذكرها مجملا فى القرآن الكريم[1] •

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ٢ ص ٤٢ ـ ٤٤ •

٤ ـ الشعر الجـــاهلى :

يعتبر الشعر الجاهلى من المصادر التى يعتمد عليها الباحث فى دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ، وذلك لما اشتمل عليه من امور تتصل بالفخر والحماسة والرثاء والهجاء ، او وصف لطبيعة بلاد العرب ، حتى انه قيل فيه «انه ديــوان العرب» ، ويعنــون بذلك انه سجل سجلت فيه اخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وافكارهم(١) .

وليس ادل على اهمية الشعر الجاهلى ماروى عن «عكومة» تلميذ ابن عباس انه قال : ما سمعنا ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل الا نزع فيها بيتا من الشعر ، وكان يقول : «اذا اعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب ، به حفظت الانســاب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما اشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وحديث صحابته والتابعين»(٢) . وعن ابن سيرين قال : قال عمر بن الخطاب : «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجاء الاســلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهــاد ، وغزو فارس والــروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاســلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فالفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت والقتل ، فحفظوا اقل ذلك ، وذهب عنهم اكثره» .

ويعــود الفضل للشعر الجــاهلى فى بقاء الكثير من الاخبــار المتعلقة بالجاهلية التى لولاه لما كنا نعرف من امرها شيئا ، كما كان سببا فى تخليد بعض الاحداث لسهولة حفظه ولقيام راويه بقص المنــاسبة التى قيل فيها . ويضاف الى ذلك أن كثيرا من شعراء الجاهلية قد ساهموا فى الاحداث التى حدثت فى الجاهلية ، ومن ثم فان اشعارهم تعتبر سجلا حيا معاصرا لهذه الاحداث ، والعوامل التى ادت اليها وما آلت اليه . كما أن حياة بعضهم

---

(١) محمد احمد جاد المولى ، وآخرون ، ايام العرب فى الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ص ط ـ ى .

(٢) جواد على : المرجع السابق ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

اتصلت بالاسلام ، فلم يكن شعرهم وماقالوه ورووه بعيد عهد عن أهل الاخبار ورواة الشعر ٠

على انه يؤخذ على الشعر الجاهلى ـ كمصدر تاريخى ـ بعض المآخذ والتى منها انه لا يرجع الى أبعد من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ما قبل الاسلام ، فان ما وصلنا من الشعر الجاهلى لا يتخطى بدايات القرن السادس الميلادى ، اى انه يغطى قرنا واحدا قبل العصر الاسلامى ، بينما يقدر العلماء لعصور ما قبل الاسلام مدة قد تتجاوز العشرين قرنا تمتد من منتصف الالف الثانى قبل الميلاد(١) ٠

ومنها أيضا مالحق ببعض قصائد الشعر الجاهلى من زيادة أو نقصان فاحتمال التغيير أو الزيادة فى الابيات او فى القصائد يظل أمرا محتملا ، ومن ثم يجب مقارنة هذا الشعر ببعضه حتى يكتسب الباحث تصورا عاما للمجتمع الجاهلى يصبح ما يتوائم معها اصيلا وما لا يتوائم معها دخيلا أو منحولا ٠

كما يجب أن نضع فى اعتبارنا عنصر المبالغة المتوقع فى الشعر ، وفى بعض الاحيان تكون المبالغة من النوع العادى الذى يمكن ادراكه ، ولكنه فى احيان أخرى قد تتخذ هذه المبالغات أبعادا أكبر من حقيقتها ومن مضمونها ٠

ويؤخذ على الشعر الجاهلى أيضا ـ كمصدر تاريخى ـ انه لا يسهب فى الحديث عن التاريخ السياسى للقبائل فى شبه الجزيرة العربية بقدر ماورد فيه عن الاحوال الدينية والاجتماعية ٠ كما أن معظم ما وصلنا منه انما كان من عمل البدو وليس من عمل الحضر ، ومن ثم فهو يمثل البادية أكثر مما يمثل الحاضرة ، ويضاف الى ذلك ما اتجه اليه بعض الباحثين من الاعتقاد بأن العلماء قد خففوا مدفوعين بالعامل الدينى من الطابع الوثنى فى بعض القصائد ، كما أن الافراط فى الحرص على صحة اللغة وصفائها فى أوساط البصرة قد أدى الى أجراء بعض التصحيحات فى الاشعار المروية ٠

---

(١) محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٩ ٠

ورغم أن كل هذه المآخذ ، فان ما وصلنا من الشعر الجاهلى ، منحولا أو اصيلا ، يعتبر مصدرا اساسيا لتصوير حياة العرب فى الجاهلية ، ذلك أن القائمين بتزييفه ونحله كانوا يرمون على أن يقلدوا خصائص الشعر الجاهلى المعنوية واللفظية فى مهارة وحذق لدرجة أن الناقد كان يصعب عليه أن يفرق بين قول المزيف وقول الجاهل ، وعلى هذا النحو ، فالشعر المنحول يدل من حيث تصويره للحياة فى العصر الجاهلى على ما يدل عليه الشعر الثابت من تصوير للحياة فى بلاد العرب قبل الاسلام(١) .

فاننا يمكننا التعرف على جوانب الحياة فى المجتمع العربى قبل الاسلام من دراسة الشعر الجاهلى ، فمن دراسة أسماء الرهوط والقبائل يمكن تصور التكوين القبلى والعشائرى الذى كان يشكل الدعامة الاساسية من دعامات الحياة فى شبه الجزيرة فى الفترة السابقة لظهور الدعوة الاسلامية .

ويمكننا معرفة الاماكن والبلدان والآبار والمناطق الصالحة للسكن أو لمضارب الخيام ومسار القوافل واماكن الرعى ، ومن ثم فهو يساعد الباحث فى التعرف على مناطق العمران وتوزيعها ، وعلى اتجاه الطرق التجارية أو المسالك بين قسم وآخر أو قبيلة واخرى . ويضاف الى ذلك الايام والمعارك التى سجلها الشعر الجاهلى مثل حرب داحس والغبراء ويوم حليمه بين الغساسنة والمناذرة ، ويوم خزازى بين نزار واليمن ، ويوم عراعر بين عبس وكلب ، ويوم ذى قار بين شيبان والفرس وغيرها .

ولقد حفظ لنا الشعر الجاهلى صورا من حياة العرب فى الجاهلية ، فى الجد واللهو والحب والبغض ، وفى أيام الخصب والرخاء وأيام القحط والبؤس ، وفى أوقات السلم والحرب ، وفى الزهد والتدين والترف والفجور .

ومن أشهر شعراء الجاهلية الذين يستفاد من شعرهم فى هذا الموضوع أصحاب المعلقات ، مثل امرؤ القيس بن حجر الكندى ، وطرفة بن العبد البكرى ، وزهير بن ابى سلمى المزنى ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى ، وعنترة بن شداد العبسى ، واخيرا الحارث

---

(١) عمر فرج : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٥ .

ابن حلزه البكرى • ويستفاد كذلك من أشعار حسان بن ثابت شاعر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام •

٥ ـ كتب السيرة والمغازى :

تعتبر كتب السيرة النبوية الشريفة والمغازى من المصادر المساعدة التى يستطيع الباحث الاعتماد عليها فى دراسته لتاريخ العرب قبل الاسلام ؛ ذلك لان كتابها قد تعرضوا لذكر اخبار الجاهلية القريبة من الاسلام واحيانا للانبياء السابقين، ثم يفصلون القول فى نسب النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفى اخبار مكة وقريش ومن يتصل بهما من افراد وقبائل ، واشتملت هذه الكتب على الكثير من الشعر الجاهلى الذى كان يستخدمه كتاب السير والمغازى فى الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون عنه(١) •

ومعظم كتاب السير والمغازى من اهل الحجاز ومن المدينة بالذات باعتبارها دار هجرة الرسول علية الصلاة والسلام ، ودار السنة التى عاش فيها الصحابة وسمعوا احاديث الرسول ورووها بدورهم الى التابعين ، بينما تالفت حركة اخرى للتاليف فى السيرة والمغازى فى البصرة كنتيجة طبيعية للصراع الحزبى والاقليمى والقبلى •

ولعل من أشهر كتب السيرة ، كتاب سيرة ابن هشام ، وهو أول كتاب عربى وصل الينا يؤرخ لسيرة النبى عليه الصلاة والسلام وللعرب قبل الاسلام ، وقد اعتمد صاحبه (ابو محمد عبد الملك بن هشام المتوفى عام ٢١٨ هـ) على الرواية الشفوية ، كما يعتمد على كتب ضاعت ، أهمها كتاب ابن اسحاق المتوفى عام ١٥١هـ الذى كان أول من ألف فى سيرة النبى ـ ﷺ ـ بناء على طلب الخليفة العباسى المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥م) واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له «بالاستاذ» ، الا أن هناك من سبقه فى التاليف فى المغازى من أمثال «عمرو بن الزبير» (المتوفى عام ٩٤ هـ) الذى يدخل فى عداد الطبقة الاولى من كتاب السيرة ، وكان له فضل كبير على كتاب السيرة

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ •

كابن هشام وابن سعد ، اذ يدين كلاهما بجزء كبير من كتاباتهما لما رواه . ورجع اليه الطبرى فى صفحات عـديدة من تاريخه . وابان بن عثمـان (المتوفى عام ١٠٥هـ) واشتهر بالحديث والفقه ، وكتابته فى السيرة لا تعـدو ان تكون صحفا تضمنت احاديث عن حياة الرسول علية الصلاة والسلام ، ولم ينقل له او يرو عنة احد من كتاب السيرة الاول . وشرحبيل بن سعد (المتوفى عام ١٢٣هـ) وابن شهاب الزهرى (المتوفى عام ١٢٤هـ) الذى يرجع اليه الفضل فى تاسيس مدرسة التاريخ فى المدينة ، ولقد عرف بقوة أسانيده وقلة استخدام الشعر فى كتابته ، صنف كتابا فى نسب قريش كما تناول فترة الخلفاء الراشدين حتى انتقال الخلافة الى الامويين .

ومن كتاب السيرة محمد بن اسحق (المتوفى عام ١٥٢هـ) وهو أبو عبد الله محمد بن اسحق بن يسار ، وهو من أصل فارسى ، وتنقسم سيرته الى ثلاثة اقســـام :

١ ـ المبتدا ، ويبحث فى تاريخ الجاهلية مبتدئا به منذ الخليفة .

٢ ـ المبعث ، وتناول فيه حياة النبى علية الصلاة والسلام حتى السنة الاولى للهجرة .

٣ ـ المغازى ، وتناول فيه حياة الرسول فى المدينة وغزواته حتى وفاته عليه الصلاة والسلام .

ويؤخذ على كتابات ابن اسحق اعتماده على أهل الكتاب فى الرواية كما اعتمد على ماجاء فى التوارة وأورد كثيرا من الشعر المنحول دون تحقيق أو تمحيص ، ومع ذلك فانه يحسـب له انة جمع فى كتاباته بـين اساليب المحدثين والقصـــاص .

٦ ـ كتب التاريخ والجغرافيا :

اتجه المؤرخون المسلمون فى كتاباتهم عن العصر الاسلامى الى كتـابة مقدمات لكتبهم عن العصر الجـاهلى ، ودونوا فى هذه المقـدمات أنساب القبائل وصلتها بعدنان وقحطان او اسماعيل او ابناء نوح ، وتقسيم العرب الى طبقات ، واتجه بعضهم فى كتاباته الى ذكر اخبـار العرب فى التاريخ

القديم ، وهى لا تعدو ان تكون مجموعة من القصص الشعبى والاساطير المتاثرة بالتوراة ، بينما اقتصر البعض الآخر فى كتاباته على ذكر اخبار الجاهلية القريبة من الاسلام كايام العرب .

الا انه يؤخذ على هذا المصدر عدة ماخذ منها ، أولا : انه لا يمكن الاطمئنان الى الكتابات التى تذكر اخبارا ابعد من القرن السادس للميلاد وذلك نظرا لعدم معاصرة اصحاب هذه الكتابات لما كانوا يكتبون عنه ، ويمتد ذلك عبر سبعة عشر قرنا ، اذ لم يبدأ اول تدوين لاخبار العرب السابقين للاسلام الا فى عهد معاوية بن ابى سفيان فى أواسط القرن الاول الهجرة اى فى أواخر القرن السابع الميلادى .ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة بين وقوع الاحداث وتدوينها أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات لانه لم يرد بها سند مدون ، ولم تؤخذ من نصوص مكتوبة ، وانما كان الاعتماد فى روايتها على تواتر الروايات ، وهو أمر لا يمكن الاطمئنان اليه ، ذلك أن رواة الاخبار ، حتى وأن كانوا بعيدين عن الميول والاهواء ، وكانوا اصحاب ملكة حسنة ذات قدرة فى النقد والتمييز ، فان للذاكرة حدودا لا نستطيع أن نتجاوزها . لذا وجب علينا الحذر فى الاعتماد على هذه الموارد وتمحيص ما جاء فيها .

ثانيا : أن كثيرا من الكتابات المتصلة بالمنافسات بين القبائل ومآثرها ، توجد فيها الكثير من المبالغات والافتعال والتعصب .

ثالثا : أن معظم هذه الكتابات قد كتبت بأسلوب القصص الشعبى ، وهو اسلوب يصل الى نغمة الحديث الاسطورى كلما أوغل هؤلاء الكتاب فى الحديث عن الماضى حتى وصلوا الى آدم عليه السلام .

ومع هذه المآخذ ، فاننا نعتمد على هذا المصدر فيما يتصل بالفترة القريبة من ظهور الاسلام من النواحى السياسية والاقتصادية والفكرية . ومن الكتابات العربية التى أرخت للعرب قبل الاسلام نشير الى كل من(١) :

---

(١) أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

١ ـ عبيد بن شريه الجرهمى اليمنى : اختلف فى اصله ، فذكر البعض انه كان من اهل صنعاء ، بينما رأى آخرون انه من الرقة بالعراق ، والارجح انه كان يمنيا ومن جرهم • وكان قصاصا اخباريا وعرف بين الناس بذلك فطلبه معاوية بن ابى سفيان • وينسب اليه العديد من الكتب ، مثل كتاب الامثال ، وكتاب الملوك واخبار الماضين الذى طبع فى ذيل كتاب «التيجان فى ملوك حمير» المطبوع فى حيدر اباد بالهند بعنوان «اخبار عبيد بن شريه الجرهمى فى اخبار اليمن واشعارها وانسابها» لابى محمد بن هشام بن ايوب الحميرى المتوفى عام ٢١٣هـ • وقد وضع الكتاب على الطريقة التى تروى بها الاسماء وايام العرب ، وفيه اشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وغيرهم •

ويمكن أن يقسم موضوع الكتاب بشكل عام الى ثلاثة اقسام :

الاول : خاص بتوزيع القبائل العربية القديمة من بابل الى الجزيرة العربية مع اشارات الى توزيع الترك والصقالبة والسودان والبربر من حفدة نوح الآخرين • والثانى : خاص بنهاية العرب البائدة من آل عاد الاولى والاخرة وقوم ثمود وجرهم ، والظروف التى هلكوا فيها ، واخبار انبيائهم وصلحائهم ، من هود وصالح ولقمان • الثالث : خاص باخبار ملوك اليمن القدامى ، ابتداء من أول ملوكهم الذى أطلق عليه «سبأ» وانتهاء بحسان ابن تبع اسعد الكامل •

ويلاحظ فى هذا المؤلف انه بجانب القصص الاسطورى توجد فيه بعض المعلومات الهامة ذات طابع جغرافى وطبوغرافى عن بعض نواحى بلاد العرب ، مثل الاحقاف والحجر ووادى القرى واليمامة ، وعن مسميات الرياح عند العرب ، واسماء سنوات القحط والجفاف واسماء الايام فى الجاهلية ، الى جانب ذكر عدد من الاصنام ، وشىء من الطقوس الدينية العربية القديمة(١) •

٢ ـ وهب بن منبه : (المتوفى عام ١١٠هـ / ٧٢٨م) ، كان يمنيا من

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٣١ ـ ٣٤ •

أهل ذمار ، واصله فارسى . وقيل انه كان يهوديا واسلم ، ولهذا ينسب اليه الكثير من القصص الاسرائيلى الذى دخل فى مؤلفات المسلمين . وكان يدعى العلم بالكتب المنزلة القديمة جميعا ، وهو يبدأ الكتاب بقوله : «قرأت ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الانبياء فوجدت فيها ان الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا» . ورغم كذلك أنه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، ويحسن قراءة الكتابات القديمة التى لا يقدر أحد على قراءتها .

والمنهج الذى اتبعه وهب بن منبه فى كتابه «كتـاب التيجان فى ملوك حمير» لا يكاد يختلف عن مؤلف عبيد بن شريه ، وهو يعالج ثلاث موضوعات:

١ ـ بداية عمران العالم بآدم واولاده ، ثم العمران الثانى بنوح وبنيه .

٢ ـ الشعوب العربية البائدة ، مثل عاد الاولى والآخرة ، والعمالقة ، وثمود وجرهم .

٣ ـ ملوك اليمن ، واولهم يذكر يعرب بن قحطان وآخرهم سيف بن ذى يزن .

واشار فى ثنايا مؤلفة كذلك الى ديانة العرب وعاداتهم وتقاليـدهم ، واحوال مكة والبيت الحرام(١) .

وهكذا يصبح كتاب التيجان ، موسوعة هامة فى تاريخ الجزيرة العربية واحوالها . وينسب الى وهب بن منبه كذلك «كتاب المبتـدأ» الذى يشير عنوانه الى ابتداء الخليقة ، وهو الكتاب الذى اعتمد عليه أحمد بن محمد الثعلبى فى كتابه «عرائس المجالس فى قصص الانبياء» وينسب اليه كذلك «كتاب المغازى» الذى لم يبق منه سوى مجموعة أوراق مخطوطة فى مكتبة هيدلبرج بألمانيا .

٣ ـ الهمدانى : (المتوفى بعد عام ٣٤٠هـ / ٩٥١م) ، هو ابى محمد

---

(١) انظر : جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، جزء أول ، ص ٥٥٥ ، أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، جزء ثانى ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٢٣ .

الحسن بن احمد بن يعقوب يمنى الاصل من قبيلة همدان ، يعتبر كتابه «الاكليل» الذى وضعه فى عشرة أجزاء ، ذروة التخصص فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ولم يصلنا منه سوى أربعة اجزاء ، والاجزاء العشرة كما سجلها المؤلف هى :

١ - مختصر من المبتدأ وأصول الانساب .

٢ - نسب ولد الهميسع بن حمير .

٣ - فى فضائل قحطان .

٤ - فى السيرة القديمة عن تبع ابى كرب .

٥ - فى السيرة الوسطى من أول ايام اسعد تبع الى أيام ذى نواس .

٦ - فى السيرة الآخرة الى الاسلام .

٧ - فى التنمية على الاخبار الباطلة والحكايات المستحلية .

٨ - فى محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثى حمير والقبوريات .

٩ - فى أمثال حمير وحكمها واللسان الحميرى وحروف المسند .

١٠ - فى معارف همدان وأنسابها وعيون اخبارها .

وللهمدانى كتاب آخر هو «صفة جزيرة العرب» الذى استفاد منه من اتى بعده من الكتاب مثل : البكرى فى كتابه «معجم ما استعجم» ،وياقوت فى «معجم البلدان»(١) .

٤ - هشام بن محمد بن السائب الكلبى (المتوفى عام٢٠٤هـ/٨١٩م)(٢):

كان والده من علماء الكوفة فى التفسير والاخبار والانساب،ويعتبر هشام ابن محمد من أعظم الاخباريين فى تاريخ العرب فى الجاهلية ، اذ كان يعتمد على الاصول والمصادر التاريخية ، الامر الذى يجعل منهجه فى الرواية أقرب الى منهج المؤرخين ، ولكن يؤخذ علية سرعة التصديق ، ورواية الخبر على

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٣٨ .
(٢) انظر : سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٦ .

علاته دون نقد أو تمحيص وقد اتهم بالوضع والكذب ، حتى تجنبت جماعة من العلماء الرواية عنه .

وقد أهتم هشام بصفة خاصة بجمع الاخبار التاريخية عن الحيرة وأمرائها من المصادر المدونة ،واعتمد فى ذلك على محفوظات كنائس الحيرة ، وعلى المواد الفارسية المترجمة ، وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم فى الفهرست ويبلغ عددها ١٤٠ مؤلفا . ومن كتبه التى تهمنا كتاب الاصنام ، وهو يبين سعة اطلاعه على اخبار ما قبل الاسلام ، ومعرفته التى لا تحد بأحوال العرب فى الجاهلية . ولقد ردد فى هذا الكتاب ما كان يعبده العرب قبل الاسلام الى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب كالكعبة ، وكعبة نجران ، وريئام . كما أنه يشير الى طقوس العبادة والشعائر التى كان يمارسها العرب قبل الاسلام .

وفى كتابه أنساب الخيل فى الجاهلية والاسلام ، يبين كيف أولع العرب بالخيل فى الجاهلية والاسلام ، الى حد أنهم كانوا يصبرون على الشدة وضيق العيش ويكرمونها حتى يؤثروها على الاهل والولد . وعندما يذكر ابن الكلبى أسماء مشاهير خيل العرب فى الجاهلية ، يعرض لبعض أخبار العرب وأيامها فى الجاهلية .

٥ ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى : هو فارسى الاصل ، يهودى الاباء ، ولكنه عربى تيمى أو تميمى بالولاء ، وكان لذلك أثره فى ان جمع بين الثقافات الفارسية واليهودية والعربية . ولقد أهتم أبو عبيدة بصفة خاصة ببلاد العرب الشمالية ، فروى عن أخبار قبائلها وأيامها ، الا أن البعض يرميه بنزعته الشعرية ، وأنه كان يطعن فى الانساب ، ويؤلف فى مثالب العرب(١) .

٦ ـ حمزة الاصفهانى : يتميز مؤلفه «سنى ملوك الارض» بطابعه العلمى الجاف ، والكتاب يتناول التاريخ منذ «المبتدأ» اى منذ بدء الخليقة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وحتى أيام المؤلف ، ويهمنا من هذا المؤلف قسمة الاول الذى يتعلق بعصور ما قبل الاسلام ، وفيه يعالج حمزة الاصفهانى تاريخ عمران الارض وتاريخ الدول القديمة من البابليين والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين ، كما يعالج دول الغرب ، فى اليمن والحيرة ونجد والحجاز وذلك فى عشرة أبواب مقسمة الى ٢٧ فصلا .

ويتميز حمزة الاصفانى بميزتين : أولاهما أنه ايرانى (موطنيا على الاقل) فهو على دراية تامة باحوال الفرس ، ثم أنه عالم مدقق كان يهتم باختيار مصادره سواء كانت كتبا ام رجالا ، وهذا ما لفت الانظار اليه من غير شك .

٧ ـ الطبرى : هو محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى عام ٣١٠هـ ، وهو صاحب أشمل مؤلف تاريخى كتبه مؤرخو العرب حتى القرن الرابع الهجرى ، وهو المعروف باسم «تاريخ الامم والملوك» ، وقد نجح المؤرخ فى أن يجعله موسوعة تاريخية ، ليس عن تاريخ العالم الاسلامى فحسب ، بل عن تاريخ البشرية الى حد ما ، فهو محاولة لدراسة تاريخ العالم(١) .

ونظرا لانه فارسى الاصل فقد أهتم بتتبع أخبار الدولة الساسانية الفارسية ، ونظرا للعلاقات بينها وبين الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فقد كتب الطبرى فصول مستفيضة فى اخبار العرب قبل الاسلام .

وللطبرى أهمية خاصة نظرا لسعة اطلاعه وشموله وحرصه فى كثير من الاحيان على الاطلاع واثبات بعض الوثائق الرسمية التى حصل عليها وخاصة وثائق الفتوح العربية .

٨ ـ ابن الاثير : (المتوفى عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، لخص ابن الاثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) كتاب الطبرى فى اخبار الرسل والملوك ، الا أنه لم يكتف بتخليص الطبرى ، بل أنه قام بسد الثغرات التى وجدها فى كتاب الطبرى ، بمعلومات أحسن انتقادها حتى صار كتابه هو الآخر من المصادر

---

(١) الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، جزء أول وجزء رابع ، القاهرة ، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ .

البهـامة • وذكر فى مؤلفه ابتـداء الخلق وآدم وبنيه والرسل من نـوح الى اسماعيل ، وتاريخ الفرس ، واخبـار ملوك الروم قبل المسيح وبعـده ، والعرب وعلاقاتهم بهؤلاء الملوك ، ويرتب أيام العرب بطريقة تجعل من السهل تناولها(١) •

٩ ــ المسـعودى : (المتوفى عام ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ، يعتبر كتاب مروج الذهب للمسعودى من المصادر الاساسية بالنسبة لتاريخ العرب قبل الاسلام• وذلك بفضل ما كتبه فى تاريخ العالم القديم وفى العرب قبل الاسلام واستغرق ذلك الجزء الاول ومعظم الجزء الثانى من مؤلفه • ويتميز مؤلفه بالمقدمة الجغرافية التى عرف فيها بالبـلاد وباثر البيئة على الانسان والحيـوان والنبات • كما أنه قد أهتم بأحوال الناس والجمـاعات بشكل عام ، فهو لا يركز على التاريخ السياسى ، بل يسجل أنواعا من النشـاط الاقتصادى والاجتماعى والعادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها •

ويبدأ المسعودى تاريخه ، كما فعل الطبرى ، بذكر المبتدأ وشأن الخليفة من آدم وبنيه ، ومن أتى بعده من الانبياء من نوح الى ابراهيم ، واخبار الشعوب البائدة ، مثل طسم وجديس وعمليق ، قبل أن يركز على بنى اسرائيل الذين يرتبط تاريخهم بتاريخ اليمن عن طريق سليمان عليه السلام ، كما يرتبط بتاريخ العراق(٢) •

١٠ ــ ابن خلدون : (المتوفى عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) ، يكاد ابن خلدون يلخص كل ماكتبه قدامى الكتاب من المشارقة فى الجزء الثانى من كتاب العبر ، وهو الجزء الاول من تاريخه الذى يعقب المقـدمة ، وجعل ابن خلـدون عنوان هذا الجزء : «فى اخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هذا القرن»(٣) •

---

(١) ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى) : الكـامل فى التاريخ ، جزء أول وجزء ثانى ، بيروت ، ١٩٦٥ •

(٢) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء الاول والثانى ، تحقيق يوسف داغر ، بيروت ، ١٩٧٣ •

(٣) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمـد) : تاريخ بن خلـدون ، بيروت ، ١٩٧١ •

ودول العرب السابقة على الاسلام ـ حسب خطة ابن خلدون ـ مقسمة الى ثلاث طبقات على النحو الآتى :

١ ـ الطبقة الاولى : وهم العرب العاربة أو العمالقة ، من عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبدضخم وجرهم وحضرموت ، ويتلو ذلك الخبر عن ابراهيم ابى الانبياء وبنيه .

٢ ـ الطبقة الثانية : وهم العرب المستعربة ، ويدخل بضمنهم اليمنية أو السبئية ، وبذلك يدخل فى هذه الطبقة ملوك التبابعة من حمير ، وملك الحبشة لليمن ، وغزو الحبشة للكعبة .

٣ ـ الطبقة الثالثة : وهم العرب التابعة للعرب ، بين العرب البادية أهل الخيام من العدنانية والمعدية وملوك الحيرة ويثرب ثم قريش .

والسمة السائدة فى كتابات هؤلاء المؤرخين تحرى الدقة فى كتاباتهم عن تاريخ الاسلام فى معظم الاحوال ، والاهمال والخلط الذى صحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الاسلام . ولعل عـذرهم فى ذلك أن عصر الاكتشـافات الحديثة الذى نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد فى التأريخ لبلاد العرب قبل الاسلام أنما كان على ما جاء فى التوراة والادب العربى القديم ، كذلك فان الخط العربى كان فى أول الامر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابات النبطية التى يرجح أن الخط العربى مشتق منها ومتطور عنها ، ولعل أهم ما فى كتب الاخباريين من عيوب أنما هو أولا : وذلك فيمـا يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران[1] ـ تلك المبالغات التى ادخلها أهل الاغراض أو الطامعون ممن دخلوا الاسلام ، لان العرب كانوا يستفتونهم فيما غمض عليهم . وثانيا : هناك ماتابع العرب فيه اليهود وأعنى به رد كل أمة الى آب من آباء التوراة ، حتى المغول والفرس ، فمثلا ردوا نسب الفرس الى «فارس بن ياسور بن سام» ، وقس هذا على تعليل اسماء البلاد ، وردها الى اسماء من يظنون أنهم مؤسسوها ، بما يشبه قول اليهود ، فمثلا

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ـ ٥٩ .

مصر ، انما بنـاها «مصرايم» وآشور بناها أشور ومن هـذا القبيل قولهم «يعرب» لمن تكلم العربية • ثالثا : هناك اختلاف الاخباريين فى الانساب ، حتى أنهم لم يتفقوا الا فى القليل من أسماء الملوك والامراء ، وان كان الامر جد مختلف بالنسبة الى قريش ، وهناك رابعـا : ان العرب كانت تتصرف فى الاسماء غير العربية ، بتبديل حروفها وتغييرها ، ومن ذلك اختلافهم فى ذى القرنين بين أن يكون «الصعب بن مداثر» من ملوك اليمن ، أو ان يكون الاسكندر المقدونى،وقريب من هذا ما فعلوه بملوك مصر على ايام الفراعين، فملك مصر على أيام يوسف (عليه السلام) انما هو «الريان بن الوليد بن الهروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح» ، وان فرعون موسى (علية السلام) انما هو «قابوس بن مصعب بن معاوية» صاحب يوسف الثانى ، وكانت امرأته «آسية بنت فراحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد» فرعون يوسف الاول،وانها من بنى اسرائيل على ما يرى بعض الرواة • والجدير بالذكر فى هذا المجال ــ هو من اين جاء المؤرخون الاسلاميون بهذه الاخبار ، والتوراة ــ على فرض أنهم نقلوها عن اليهود ــ لم تذكر هذه الاسماء ، والامر كذلك بالنسبة للقرآن الكريم ، فضلا عن أن الفراعين المصريين ليس من بينهم من يحمل هذه الاسمـاء ، ولكنه الخلط وادعـاء العلم • وهكذا يبدو لنا أن الخـلط من ناحية ، والاسرائيليات من ناحية اخرى ، قد لعبوا دورا كبيرا فى مسح بعض هذا التاريخ الذى كتبه المؤرخون الاسلاميون عن العصور التى سبقت الاسلام بآماد طويلة • ورغم ذلك فهم قدموا لنا الكثير من المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها فى التاريخ لعصور ما قبل الاسلام •

الفصل الثالث

طبقـــات العـــرب

طبقـــات العـــرب

يقسم الرواة واصحاب الاخبـار العرب من حيث القدم الى طبقات : عرب بائدة وعرب عـاربة ، وعرب مستعربة ، او عرب عـارية ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة(١)، كما يقسم العرب من حيث النسب الى قسمين : قحطانية ، منازلهم الاولى فى اليمن ، وعدنانية ، منازلهم الاولى فى الحجاز(٢) . ويقسم الاخباريون والمؤرخون العرب احيانا الى طبقتين : عرب عاربة ، وعرب مستعربة . ومن الجدير بالذكر ان هذا التقسيم لم يرد الينا من النصوص الجاهلية ، وأنما ورد الينا فى الكتب المدونة فى الاسلام ، وتقسيم العرب ــ الى طبقات ــ وذلك من ناحية القدم والتقدم فى العربية ــ هو تقسيم لانجد له ذكراً فى التوراة أو الموارد اليهـودية الاخرى ، ولا فى المـوارد اليونانية أو الـلاتينية أو السريانية . ويظهر انه تقسيم عربى خالص ، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر انهم بادوا قبل الاسلام فلم يبق منهم غير ذكريات وبين العرب الباقين ، وهم اما من عدنان ، وأما من قحطان .

والعرب البائدة هم الذين كانوا عربا صرحاء خلصاء ذوى نسب عربى خالص ــ نظرياً على الاقل ــ ويتكونون من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضورا ومدين وغيرهم . وأمـا العرب الباقية ــ ويسمون أيضا المتعربة المستعربة ــ فهم الذين ليسوا عربا خلصاء، ويتكونون من بنى يعرب بن قحطان ، وبنى معد بن عدنان . ويقسم ابن خلدون العرب ــ طبقا للتسلسل التاريخى ــ الى طبقات اربعة ، فهم عرب عاربة قد بادت ، ثم مستعربة وهم القحطانيون ، ثم العرب التابعة لهم من

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ١٦ ــ ١٨ .

(٢) طه حسين ، فى الادب الجاهلى ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ص ٧٩ .

عدنان والاوس والخزرج ثم الغساسنة والمناذرة ، واخيرا العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا فى نفوذ الدولة الاسلاميه .

ورغم مافى هذه التقسيمات من مآخذ ، الا اننا سنشير اليها بايجاز ، ولنبدأ بالعرب البائدة ، فقد شك كثير من المستشرقين فى حقيقة وجود اكثر الاقوام المؤلفة لهذه الطبقة ، فعدها بعضهم من الاقوام الخرافية التى ابتدعتها مخيلة الرواة ، وخاصة حين عجزوا عن العثور على اسماء مشابهة لها أو قريبة منها فى اللغات القديمة أو فى الكتب الكلاسيكية ، ولكن ظهر بعد ذلك أن فى هذه الاحكام شيئا من التسرع ، اذ تمكن العلماء من العثور على اسماء بعض هذه الاقوام ، ومن الحصول على بعض المعلومات عنها .

والمقصود بلفظة (بائد) عدم وجود احد من العرب ينتسب الى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين الاسلاميين لتاريخ ما بعد ظهور الاسلام، أما العرب الباقية فنعنى بها الجماعات ــ التى كانت ــ وما تزال ــ تعيش فى هذه المنطقة .

وتعد (عاد)(١) اقدم الاقوام العربية البائدة من وجهة نظر الاخباريين ، ويضربون بهم المثل فى القدم ، وربما تكونت هذه النظرية عند الجاهليين من قدم عاد ، أو من ورود اسم عاد فى القرآن الكريم ، ثم مجىء اسم (ثمود) بعد ذلك ، ومن ثم فقد قدما على بقية الاقوام البائدة .

هذا وقد ذهب بعض الاخباريون الى أن عادا هى (هدورام) فى التوراة، ودليلهم على ذلك اقتران عاد بارم فى الكتب العربية ، وبعض القراءات التى قرأت (بعاد ارم) ، فى الآية : «ألم تركيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد» ، على الاضافة ، أو باضافة ارم الى ذات العماد . وبين (عاد ارم) و (هدورام) تشابه كبير فى النطق . وذهب الاخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الاولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الاولى من اعظم الامم بطشا وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الالف ــ وقد

---

(١) محمد بيومى مهران ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الاول ، فى بلاد العرب ، الاسكندرية ، ١٩٩٥ .

نشأت فكرة وجود طبقتين لعاد عنـد الاخباريين الى ما اشـار اليه القرآن الكريم من ان هناك عادا الاولى ، وعادا الثانية ، وان عاد الاولى انما هم عاد ارم الذين يسكنون الاعمدة التى تحمل الخيام ، وان عادا الثانية انما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع ، وربما كانوا هم قوم ثمود .

اما (ثمود)(١) فقد ورد اسمها فى الكتب العربية مقرونا باسم عاد ، وبعد هذا الاسم فى الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تاريخهم شيئا ، انما روت عنهم قصصا أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم فى القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم فى الشعر الجاهلى . وتكاد تجمع الكتب العربية على ان ثمودا كان مقامها بالحجر الى وادى القرى بين الحجاز والشام،على ان ارتباطها بعاد يقتضى تقاربهما فى المكان ، ولذا ذهب الاخباريون الى ان ثمودا انما كانت باليمن قديما ، فلما ملكت حميرا اخرجوها الى الحجاز ، ولقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الثموديين قد عاشوا فى شمال الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ .

وقد ورد اسم ثمود فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، فجاء منفردا، وجاء مقرونا باسم شعوب اخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) . وتاريخ قوم ثمود يعود الى ما قبل الميلاد بزمان ، فقد كانـوا ضمن الشعوب التى حاربت الاشوريين فى عهد (سرجون الثانى)،وقد ذكر هذا الملك فى النصوص التاريخية التى سجلها ، انه تغلب عليهم ، وانه أجلاهم عن مواطنهم الى السامرة ، ويرى بعض الباحثين ان آخر ذكر ورد فى الوثائق لقوم ثمود كان فى القرن الخامس الميلادى ، حيث ورد ان قوما منهم كانوا فرسانا فى جيش الروم .

أما (طسم وجديس)(٢) فينسبهما الاخباريون الى «لاوذ بن ارم بن سام ابن نوح» مـع القليل أو الكثير من التعديل فى هذا النسـب ، وانهما كانا

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) ابن خلدون ، المرجع السـابق ، ص ٢٤ ، الطبرى ، المرجـع السابق ، الجزء الاول ، ص ٣٣٧ .

قريبا بعهد عاد الاولى ، اما موطنهما فكان فى منطقة اليمامة ، والتى كانت تسمى «جو» من قبل ، ولكن يبدو ان هذا لم يكن هو الوطن الاول ، ويرجح ان يكون بداية استقرار «طسم» فى منطقة العلا ، ثم انتقلت بعد ذلك الى منطقة اليمامة • وربما يرجع سبب انتقالها الى عوامل اقتصادية ، ويبدو أن (جديس) قد نزحت كذلك مع (طسم) • وبهذا يمكن أن نجد صلة نسب قائمة بين القبيلتين •

هذا ولم يرد ذكر اسم هذه الاقوام فى القرآن الكريم ، وقد ورد اسم (طسم) فى نص يونانى عثر عليه فى (صلخد) ويعود تاريخه الى عام ٣٢٢م، كما ان التوراة اشارت الى (طسم) على انه من نسل (دادان بن يقطان) ، اضف الى ذلك ان بعضا من المستشرقين يرى ان اسم Jodisitae أو Jolisitae الوارد فى جغرافية بطليموس[١] هو اسم قبيلة من قبائل شرق بلاد العرب ، وانها جديس بعينها • وقد نسب الاخباريون اماكن عديدة الى طسم وجديس وهى قرى ومدن ذكر انها كانت عامرة آهلة بالسكان ذات مزارع ، ومن بين هذه الاماكن المذكورة (المشقر) وهو حصن بين نجران والبحرين ، و (معنق) وهو من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة •

اما (أميم)[٢] فقد جعلهم الاخباريون فى طبقة (طسم وجديس) وقالوا انهم من نسل (لاوذ بن عمليق) ، وكان من شعوبهم (وبار بن أميم) ، نزلوا برمل (عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فاهلكتهم• ويزعم الاخباريون ان ديار (أميم) كانت بأرض فارس ، ولم يذكروا كيف عدوهم من طبقة العرب الاولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس • وقد جاء فى جغرافية بطليموس اسم شعب عربى ذكر على انه من شعوب العرب الجنوبية وهذا الاسم قريب جدا من اسم (وبار) ، وتقع ارض (وبار) بين رمال يبرين واليمن • ومع ذلك ، فان شعب وبار ، فى رأى كثير من المستشرقين ـ انما هو من الشعوب الخرافية ، وان كانت ذكرى (وبار)

---

(1) Encyclopaedia of Islam, I, p. 992.

(٢) الطبرى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ •

ما تزال فى ذاكرة العرب حتى اليوم ، ففى الربع الخالى اماكن كثيرة زعم الاعراب انها كانت مواضع (وبار) .

أما (عبيل) فقد ذكر الاخباريون انهم اخوان عاد بن عوص ، او اخوان عوص بن ارم[1] ، أو انهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب ، وكان الذى اختطهـا منهم رجل يقـال له (يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل) ، ثم ان قسما من العماليق انحـدروا الى يثرب ، فاخرجـوا منها عبيلا ، فنزلوا موضع (الجحفة) فاقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت (الجحـــفة) .

ونقرأ فى التوراة عن «عبيال» أو «عوبال» على أنه من ولد «يقطان» (قحطان فى المصادر العربية) ، ومن هنا رأى فريق من علماء التوراة أن (عبيل) من الممكن ان يكون «عيبال» او «عوبال» ، ويشير بطليموس الى موضـع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم Avalites Sinus وعليه مدينة تسمى Avalitae Emporium ، وسكانها يدعون Avalitas وقد ورد الاسم عند «بلينى» محرفا الى Abalitae وربما كان هؤلاء هم عوبال . وقد ذكر ان فى اليمن مكانا يقال له عبيل ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ(عبال) وهذان الاسمان قريبان من اسم عبيل .

أما (جرهم)[2] فقد نظر اليهم الاخباريون على انهم طبقتان ، جرهم الاولى : وهم من العرب البائدة ، وكانوا على عهد عاد وثمود والعمالقة ، وقد اقاموا بمكة . ويرجعون انسابهم الى (عابر). ، وقد أبيدوا على ايدى القحطانيين ، أما جرهم الثـانية : فقد اطلقـوا عليهم جرهم القحطانية وينسبهم أهل الاخبار الى (جرهم بن قحطان بن هود) وقد كانوا اصهارا للنبى – ﷺ – هذا وقد ورد اسم جرهم عند بعض الكتبة اليونان .

وفيما يتصل (بالعمالقة)[3] فقد نسبهم الاخبـاريون الى (عمليق بن

---

(1) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ٢١ .
(2) الطبرى ، تاريخ الطبرى ، الجزء الاول ، ص ٢٥٦ .
(3) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

لاوذ بن سام بن نوح) ، ولم تذكر التوراة اصلهم ونسبهم ، ويبالغ الاخباريون فى اهمية العماليق وسعة انتشارهم بدرجة لا يمكن ان يقبلها منطق او يقرها عقل ، فيجعلونهم امما كثيرة تفرقت فى البلاد ، فكان منهم أهل عمان والحجاز والشام ومصر ، فضلا عن أهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الازرق وسعد بن زهران ، هذا الى جانب شعبة منهم ذهبت الى ضنعاء ، كما كان منهم الجبابرة بالشام ـ وهم الكنعانيون ـ والفراعين بمصر ، والارقم ملك الحجاز بتيماء ٠ واما اصل الكلمة (عماليق) أو عمالقة ، فمجهول ، وان كانت هناك آراء تذهب الى انه منحوت من اسم قبيلة عربية، اطلق عليها البابليون اسم (ماليق) أو (مالوق) ، واضاف اليها اليهود لفظ «عم» اى الشعب أو الامة ، فقالوا (عم ماليق) ثم جاءت العربية فقالت (عمـألقة) ٠

ويكاد يتفق الاخباريون على ان العماليق عرب صرحاء ، ومن اقدم العرب زمانا ، ولسانهم هو اللسان المصرى الذى نطقت به كل العرب البائدة ٠ والعماليق فى نظر التوراة ـ من اقدم الشعوب التى سكنت جنوب فلسطين ، ربما لانهم كانوا أول من اصطدم بالاسرائيليين اثناء التيه فى صحراوات سيناء ٠ وقد ورد فى التوراة ان العمالقة هاجموا بنى اسرائيل عند خروجهم من مصر وأسروا جميع مقاتليهم ، كذلك فقد اتحد العمالقة مع «عجلون» ملك مؤاب الذى انتزع من الاسرائيليين مدينة النخل ، وكان (شاول) هو أول ملك اسرائيلى يحارب العماليق ، وقد نجح فى الانتصار عليهم طبقا لما ورد فى التوراة ٠

أما (حضورا)(١) فقد ذكر الاخباريون انهم كانوا يقيمون بالرس ، وهو أما موضع بحضرموت أو اليمامة أو بناحية صهيد ، وكانوا يعبدون الاوثان، وبعث اليهم نبى منهم اسمه (شعيب بن ذى مهرع) فكذبوه ، وهلكوا ٠ وقد

---

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، الطبرى ، المرجع السابق ، ص ٥٥٨ ـ ٥٦٠ ٠

ورد فى القرآن الكريم (اصحاب الرس) مع عاد وثمود مرة ، ومع قوم نوح مرة اخرى • وذهب فريق من المفسرين الى ان شعيب بن ذى مهرع كـان نبيهم ، بينما يتجه فريق آخر الى القول بان نبيهم هو (خالد بن سنان) وان رسول الله ـ ﷺ ـ قد تحدث عنه فقال «ذاك نبى ضيعه قومه»، وذهب فريق ثالث الى انه (حنظلة بن صفوان) •

ويروى الاخباريون ان بختنصر ـ وهو الامبراطور البابلى نبوخذ نصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق٠م) قد غزا (حضورا) واعمل السيف فيهم ، فقتل الغالبية العظمى منهم ، بينما هجر بقيتهم الى امـاكن اخرى من امبراطوريته • واما سبب ذلك فلأن القوم قد كفروا بنبى لهم يدعى (شعيب بن مهدم ذى مهدم ابن المقدم بن الحضور) ، ومن ثم فقد أوحى الله الى النبى اليهودى «برخيا بن أخيبا» إن يترك نجران ويذهب الى نبوخذ نصر ويأمره بغزو العرب ، الذى تمكن من اخضاعهم • وأهل حضـور الذين قتلهم نبيهم ، وقتلهم (نبوخذ نصر) هم شعب من اليمن على رأى الاخباريين ، وفى اليمن موضع يسمى (حضور) ينسبه الاخباريون الى (حضور بن عدى بن مالك ابن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ) ، وذكروا انه المكان الذى قصده (نبوخذ نصر) فقتل أهله • وعلى هذا المكان مسـجد يزار حتى اليوم ، يقـال له مسجد شعيب نبى اصحاب الرس •

أما (المديانيون)(١) فقد تحدث القرآن الكريم عنهم ، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام ، فى مواطن متفرقة من سوره ، ووفقا لما جاء فى القرآن الكريم ، فان شعيبا اتى مدين واصحاب الايكة ، فنهاهم عن عبادة الاوثان وأمرهم ان يقيموا الوزن بالقسـط ولا يخسروا الميزان • وكان أهل مدين قوما عربا يسكنون مدينتهم (مـدين) التى هى قرية من أرض معـان فى اطراف الشام مما يلى الحجـاز ، قريبا من بحيرة قوم لوط • وهـذا وقد كانت مدين هذه انما تمتد من خليج العقبة الى مؤاب وطور سيناء • ويفهم من التوراة ان مواطن المديانيين انما كانت تقع الى الشرق من العبرانيين ،

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، الفصل الثامن •

ويبدو انهم توغلوا فى المناطق الجنوبية لفلسطين ، متخذين منهـا مواطن جديدة ، عاشوا فيها امدا طويلا .

ويرجح بعض الباحثين ان عصر شعيب ، انمـا كان قبل عصر موسى ، معتمدين فى ذلك على ان الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيبا فى القرآن الكريم ـ كما فى سورة الاعراف ويونس وهـود والحج والعنكبوت بعد نوح وهـود وصالح ولوط ، وقبل موسى ، واذا ماعـدنا الى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠ ـ ١٧٦٥ ق.م) وتذكرنا ان لوطا وقومه انما كانوا معاصرين لابى الانبياء ، لامكننا القـول ان شعيبا وقومه انما كانوا يعيشون بعـد القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وبخاصة ان التدراة تذكر ان مدين انما كان من ولد الخليل من زوجه قطره الكنعانية .

الفصل الرابع

دولـــة معـــين

دولـــة معـــــين

يرجح العلماء ان دولة معين ، انما هى دولة نستطيع ان نلمح بعض معالمها وسط جنبات التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية ، وانها ـ طبقا للنقوش التى تركتها فى شمال اليمن حول بلدة معـــين ـ قد قامت فى منطقة الجوف بين نجران وحضرمـــوت ، وهى منطقة سهلة غرينية ، اشـــتهرت بنخيلها واخشابها ومراعيها التى تعتمد على مياه «الخاردن» وعلى الامطار التى تسقط هناك ، فتكون سيولا تسيل فى أودية ، فـــاذا اضفنا الى ذلك كله ، ان الجبال تحيط بها من جهات ثلاث ، مما يكون حماية طبيعية لها ، تبين لنا الى اى مدى ساعدت تلك العوامل الطبيعية على أن تكون منطقة «جوف» هذه مركزا هاما للحضارة فى اليمن القديم .

وكانت معين موقعها من الجوف مالوف لدى الشعراء العرب ، ويستشهد الهمذانى بقول مالك بن حريم :

سخمى الجوف مادامت معين

باســـفله مقـــابلة سرادا

ويذكرها الهمذانى[1] بقوله «معين من محافد اليمن المشهورة» . وهو دلالة على عظم عمرانها ، وانها قام بها قصر للملك من اشهر قصور اليمن . وقد اكدت الجهود الاثرية الحديثة صحة الموقع وظروف العمران . ومصادرنا الاصلية عن دولة معين ، انما هى الكتابات التى تركها اصحاب هذه الحضارة ، فضلا عن كتابات الرحالة القدامى من الاغريق والرومان ، من امثال ديودور الصقلى ، وسترابو ، وثيوفراستوس . أما المصادر العربية ، فلا علم لها بهذه الدولة وان عرفت اسم «معين» و «براقش» على انهما موضعان فى الجوف ،

---

(١) الهمذانى (أبو محمد الحسن بن أحمـــد بن يعقوب) الاكليل ، الجزء الثامن ، بغداد ، ١٩٣١ ، ص ١٠٥

أو محفدان من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة ، كما انها جعلتهما من ابنية «التبابعة» .

أما عن الحدود الزمنية لتاريخ دولة معين ، فقد ظل موضع جدل واختلاف كثير من الدارسين ، وقد كان الغالب من قبل على العلماء هو الغلو فى قدم «معين» فارخها «جلاسر»(١) الى الالف الثانى او الالف الثالث قبل الميلاد . ثم اتجه الرأى بين العلماء الى شىء من الاختزال فى تاريخ الكتابات المعينية ، فهبطوا بتاريخ بداية الدولة الى ما بين ١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م . وانها استمرت حتى عام ٧٠٠ ق.م(٢) ، وهناك من كان اكثر تحديد فجعلها تبدأ فى ١١٢٠ ق.م . وينتهى حكم آخر ملوكها عام ٦٣٠ ق.م(٣) ، ثم ازداد العلماء نقدا لمصادرهم ، وتقدمت اساليب الدراسة المقارنة لتواريخ الشعوب القديمة ، فاقترح احدهم ان بداية دولة معين لا يمكن ان يكون سابقا على عام ٥٠٠ ق.م ، فى حين هبط آخر بهذا التاريخ الى عام ٤٠٠ ق.م وان نهايتها تقع فى منتصف القرن الاول الميلادى أو قبل ذلك كحد اقصى . ويمكن القول ان اسباب هذا الاختلاف بين آراء المؤرخين انما يرجع أولا الى انه بالنسبة لاصحاب التاريخ المبكر ، فقد تأثروا بعبارة «بلينيوس» التى وجهت اذهانهم الى قدم دولة معين ونقوشها . ففى تلك العبارة يربط بلينيوس بين المعينيين والمينويين من سكان جزيرة كريت ، وجعل الشعبين من اصل واحد . وواضح ان السبب هو تشابه الاسمين عند كتابته بالحروف اليونانية أو اللاتينية . ولكن كنتيجة لتقدم دراسة تاريخ الكتابات القديمة وتطورها ، من الكتابة الهجائية الفينيقية ، لان الكتابة المعينية هجائية متطورة عن الكتابة الفينيقية ، فلابد أن تكون لاحقة لها . كل هذا غير من رأى العلماء وخاصة بعد ان ثبت أن حروف الهجاء الفينيقية بلغت مرحلة النضج فى القرن العاشر الميلادى وعلى ذلك لا يمكن ان تكون الكتابات بالخط

---

(١) انظر : جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الثانى ، ص ٧٧ .

(٢) فرينزهومل ، تاريخ العرب القديم ، ص ٦٤ - ٦٥

(3) Philpy, J. B., The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 141.

المسند فى اليمن عامة ، سابقة على القرن العاشر بل لاحقة علية • اما الاسلوب الآخر الاكثر تحديدا للتاريخ فهو الاختبار المعملى للآثار العضوية المعينية بطريقة (كربون ١٤) والتى قد اثبتت ان معين وسبأ كانتا متعاصرتين ، الى ان تمكنت سبأ من احتوائها هى وغيرها من مدن اليمن الاخرى والتفوق عليهم •

ولقد تعاقبت على حكم معين خمس اسرات حاكمة ، لم تحتفظ النصوص بالقاب حكامها الاوائل ، الا انهم يبدو انهم مثل جيرانهم قد بدأت سلطتهم بطابع دينى ، فتلقب الحكام بلقب «مزود» الذى قد يعنى من يزود المعبودات أو المعابد بالقرابين أو من يزود دولته بخيراتها •ونظرا لثراء دولة معين فلقد كانت هدفا لحكام سبأ الذين ما فتئوا فى الدخول فى معارك معها لنهب ثرواتها •

وفى أوائل القرن الرابع ق•م بدأت العصور الملكية فى معين ، وذلك بعد استردادها كيانها من سبأ ، وتلقب ملوكها بعدة ألقاب مثل «صدق» بمعنى الصادق أو العادل ، «يشور» بمعنى المستقيم ، و «ريام» بمعنى المتعالى • وفى ظل وجود النظام الملكى ، فلقد وجد مجلس يتكون من مشايخ القبائل وأعيان العاصمة ، وسمى هذا المجلس «مسد مفعن» بمعنى المجلس المنيع ، وكان الذى يدعوا هذا المجلس للانعقاد للبحث فى تقدير الضرائب والتصديق على العقود التى تعقدها الدولة مع كبار الافراد ، وكذلك المداولة فى أمور الحـــرب •

ويرجح انه قد قامت الى جانب هذا المجلس ، مجالس أخرى فرعية فى المدن الكبيرة والاقاليم ، وتولى رياسة حكم الاقاليم والمدن الكبيرة فى معين موظفون تلقب كل منهم بلقب «كبر» اى كبير ، او وآل ، وكان من اختصاصه تولى القضاء وجباية الضرائب واقامة المشروعات العامة فى اقليمه[1] •

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٩١ – ٩٣ •
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٩٤ •

وهذا وقد اشتهر المعينيون بانهم قاموا بدور فعال فى انماء التجارة مع الشمال • ولعل اشهر نص فى هذا المجال هو النقش المعينى المعروف بنقش «جلاسر» وموضوعه الرئيسى هو عودة قافلة كبرى سالمة الى (قرنـاوى) أهم مدن معين • هذا وقد ذكر اسم شعبى «معين ويتل» فى نهاية النقش مما يدل على أن المدينتين قد اشتركتا فى هذه القافلة ، وهذا يدل على فخامتها وشمولها • ومثل هذه القوافل كان يشبه احيانا الحملة العسكرية فى حجمها وتسليحها ، حتى تستطيع ان تواجه الاخطار التى تتعرض لها ؛ وهناك ما يشير فى النص الى أن تلك القافلة كانت تجارتها مع مصر •

ولقد تعامل تجار معين ووسطاؤها من «معين» مع العواصم المصرية ، واستقر بعضهم فيها ، ومنهم رجل يدعى «زيدايل بن زيد» دفن فى مصر ، وعثر على تابوته فى منف ، ويستدل من الكتابات المنقوشة عليه بخط المسند انه عمل فى خدمة أحد المعابد المصرية ، كما تولى توريد بعض المنتجات العربية اليه مثل المر وذلك فى مقابل ما كان يصدره الى بلده من المنسوجات المصرية • ويؤرخ هذا النص بحوالى عام ٢٦٣ ق•م خلال عهد بطليموس الثانى أو بعده(١) •

كذلك فهنـاك نقش من جزيرة ديلوس اليونانية ببحر ايجه ، ويرجع الى النصف الثانى من القرن الثانى ق•م ورد فيه اسـم الاله (ود) والهة معين ، وهو بهذا يؤكد ان خطوط التجارة المعينية قد تعدت حدود الجزيرة العربية الى مصر ، وعبر البحر المتوسط الى ديلوس ، وان هذا الامتداد لم يكن عن طريق وسطاء آخرين ، ولكن مباشرة بواسطة تجـار معينيين • ونظرا لامكانية تعرض هذه القـوافل للخطر على طول الطـويق ، اقام المعينيون محطات أو مراكز تجارية على طريق القوافل من معين ونجران جنوبا الى فلسطين ودمشق • وقد كشف لنا عن هذه الحقيقة نقش عثر عليه فى موقع العلا فى شمال غرب الجزيرة حيث اقامت معين لها فى هذه البلدة مستوطنة تجارية • ويتضح من انها كانت وثيقة الصلة بالوطن الاصلى

(1) . BASOR, 73, p. 7.

وخاضعة لملك معين ، الذى كان يدير شئون المستوطنة عن طريق (كبير) يذكر اسمه فى الوثائق الى جانب اسم ملك معين(١) ، ومع ذلك يتضح لنا ان معين كانت تمارس تجارتها عن طريق شبكة متقنة من المحطات التجارية المنتشرة على مراحل مناسبة،على طريق القوافل داخل الجزيرة العربية،او خارجها فى مراكز التجارة العالمية فى شرق البحر المتوسط ٠ ويبدو مرجحا انه قد اشتركت مع معين فى هذه التجارة الدولية بعض جاراتها من الدول الجنوبية التى تتكامل معها ، وانسب الاقاليم التجـارية لمثل هذا التكامل اقليم حضرموت نظرا لسيطرته على مناطق اللبـان او تحكمه فيها بحكم موقعه واشرافه على المحيط الهندى من ناحية الجنوب ٠ وكانت حضرموت على اتصال بحرى مباشر بكل من الهند وشرق افريقيا ، بينما تحكمت معين فى زمام طريق التجارة الى الشمال وكان هناك اتصال تجارى مباشر بين الاقليمين ، وفى النقوش المعينية من قرنوا او قرناو (اى معين) ويثل (اى براقش) ــ كلاهما من مدن الجوف ــ اشارات تدل على وجود علاقة خاصة كانت تقوم فى وقت من الاوقات بين معين وحضرموت ، بل لعل هذه العلاقة ارتبطت بنشاط التجارة العالمية لمعين منذ عام ٤٠٠ ق٠م تقريبا ، اذ وجدت أسرة حكمت المنطقتين معا منها «صدق ايل» ملك حضرمـوت والذى حكم معين ايضا ــ وارتباط معين وحضرموت ارتباطا تجاريا وسياسيا ، كان بهدف السيطرة على تجارة البخور وخاصة فيما بين القرنين الرابع والثانى ق٠م٠

أما عن علاقة معين بسبأ ، التى كان نفوذها وسلطانها فى تزايد مستمر خلال القرنين الثـانى والاول ق٠م ، فهناك نقش معروف من مـدينة يثل (براقش) ذكر فيه اسم معين واسماء آلهتها واسماء ملوكها وذكر فيه اسم سبأ وملوكها ٠ ولعل هذا يدل على أن معين كانت لا تزال قائمة ، ولم تكن قد ادمجت بعد فى الدولة السبئية ، ويستدل من هذا النقش ايضا ان أسرة سبئية قد اتخذت مركزا تجاريا لها فى بلدة يثل المعينية مما يشير الى تشابك النشاط التجارى بين تجار معين وسبأ فى المرحلة الاخيرة من تـاريخ معين المستقلة ، اى خلال القرن الاول ق٠م ، ثم ازداد شأن سبأ فى الوقت الذى

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ٠

ضعفت فيه معين وازداد انقسامها الى عدد من حكومات المدن المستقلة ، حتى استطاعت سبأ فى النهاية ان تبتلعها واحدة بعد الاخرى .

ومن اهم المدن المعينية مدينة «قرناو» العاصمة ، وهى تقع فى شرق الجوف ، وقد بنيت فى هيئة مستطيلة ، وكانت مساحتها صغيرة نسبيا تبلغ نحو مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذى مدخلين ، وبنى فوق المداخل ابراج حجرية لحمايتها ، ولقد بقى جزء من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقى . ويوجد بجانب العاصمة معبد كبير ورد اسمه فى النصوص المعينية وهو معبد «رصف» ولا زالت توجد بعض أعمدته ونقوشه وزخارفه(١) .

ومن المدن الاخرى فى معين مدينة «يائل» (براقش) وتدور حول تسمية براقش العديد من القصص ، فراى البعض انها سميت بذلك نسبة الى كلبة عرفت ببراقش ، وزعم بعض اخر أنها امرأة ، وهى ابنة ملك قديم ، ذهب والدها للحرب ، وترك لها مقاليد الحكم ، فشيدت مدينة براقش ومعين ليخلد اسمها ، فلما عاد والدها غضب وأمر بهدمها ، وراى آخرون انها سميت باسم امرأة لقمان بن عاد . «كمنهو» (خربة كمنه) ، «نشان» (خربة السودا) ، «نشق» (خربة البيضاء) .

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

الفصل الخامس

دولـــة حضرمـــوت

دولـــة حضرمـــــوت

تقع حضرموت الى الشرق من اليمن على ســاحل بحر العرب وهى تشغل منطقة واســعة جمعت بـين الجبال العــالية والوديــان العميقة ، وكان واديها مجرى مائيا ضخما خلال العصور المطيرة القديمة ، وتجرى فيه بضعة أنهار صغيرة منها نهر ميفع الذى يبدو أن له صلة قديمة باسم مدينة «ميفعة» أقدم عواصم حضرموت[1] .

وفيما يتصل باسمها ، فقد تردد اسمها فى كتابات الكتاب اليونان والرومان مع شىء قليل أو كثير من التغيير والتحريف ، فورد Chatromotitae و Hadramyta ، أما عند الاخباريين ، فقد اعتبروا «حضرموت» ابنا من ابناء يقظان ، واعتمدوا فى ذلك على رواية التوراة . وقد وصف صاحب كتاب «الطواف حول البحر الارتيرى» سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبؤة يتجنبها الناس ، ومن ثم فلا يجمع التوابل واللبان منها الا العبيد أو المجرمين الذين صدرت ضدهم احكاما صارمة . ومن الواضح أن هذا التفسير يعتمد على المعنى الظاهر من المقطع الثانى للكلمة وهو «موت» وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبرى للكلمة «دار المــوت» ، ومن ثم فقــد قيل اسم حضرموت فى التوراة «حاضرميت» .

ويقدم «ياقوت الحموى» تفسيرا آخر لهذا الاسم ، يعتمد على رواية التوراة يذكر فيه أن حضرموت اسما لرجل هو «عامر بن قحطــان» وانه كان اذا حضر حربا أكثر فيها من القتل ، ومن ثم فقد سمى بحضر موت ، وهناك تفسير آخر لهــا ، انها سميت على اسم «حضرموت بن قحطان» الذى نزل هذا المكان فسميت به ، فهو اسم موضع ، واسم قبيلة[2] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٩٦ .
(٢) انظــر : محمــد بيــومى مهران ، المرجع الســابق ، ص ٢٣٥ وما بعـــــدها .

ويقدم استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبـادى تفسيرا آخر لهـذه التسمية ، فهو يذكر ان اسم حضرموت نسبة لاحد الآلهة السامية القديمة وهو «موت» صنو الاله «ايل» وخصم الاله «بعل» فى اساطير اوجاريت ، باعتبار ان موت اله العقم والعالم السفلى الذى حاربه بعل اله الخصب والنماء(١).

وفيما يتصل بالتحديد الزمنى لعصر دولة حضرموت ، فليس هنـاك اتفاق على بدايته او نهايته ، فهناك من يرجع بدايته الى نهاية الالف الثانى قبل الميلاد ، بينما يرجعه البعض الآخر الى القرن الخامس قبل الميلاد .

ويستدل من النقوش التى كشف عنهـا بعض الامور الداخلية ، وهى توضح كذلك صلات حضرموت بالدول المحيطة بها فى ذلك الوقت . ومن هذه الاصلاحات الداخلية التى ورد ذكرها ، نقش يخص احد كبار الموظفين وهو «شكم سلحان بن رضوان» ، وفيه يذكر انه كلف ببناء سور وباب وتحصينات لحصن «قلت» الذى يشرف على وادى تقطعه الطريق القـادمة من مدينة «حجر» والمؤدية الى ميناء «قنا» ، فضـلا عن انشاء اسـوار وحواجز فى ممرات الوادى الرئيسية لحماية منطقة حجر من اى غزو أجنبى ، ولاسيما غزو الحميريين الذين كانوا يهددون حضرموت ، ويتدخلون فى شئونها . ويذكر ان هذه الاعمال قد تمت فى ثلاثة اشهر ، وقـام شكم سلحان كذلك ببناء سد فى وادى البنة ، وكان ارتفاع هذا السور يبلغ حوالى سبعة امتار ، وبالاضافة الى ذلك فقد انشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من اى هجوم بحرى . ويرى بعض الباحثين أن هـذه الاستحكامات قد تم تشييـدها فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع قبل الميلاد(٢) .

ويرجح من بناء هذه الاستحكامات أن دولة حضرموت كانت تعانى فى

---

(١) مصطفى العبـادى ، تاريخ العرب قبل الاسلام (محاضرات) ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٧٤

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

ذلك الوقت من هجمات الحميريين عليها ، ومن ثم فقد لجأت الى سد الاودية بجدر حصينة قوية حتى يمكنها التحكم فى المرور فى الوادى .

ومن النقوش الهامة التى وصلتنا من دولة حضرموت ، وتوضح صلاتها الخارجية بجيرانها نقش يرجع الى عهد الملك «العزيلط» ملك حضرموت ، وقد دون هذه النقوش رجلان من اشراف حمير بعث بهما ملك سبأ وذى ريدان للمشاركة فى الاحتفال بتتويج ملك حضرموت فى حصن أنود ، كما وردت كتابات اخرى سجلها الملك الحضرمى نفسه ذكر فيها «العزيلط» ملك حضرموت ، ابن عم ذخر ، سار الى حصن انود ، ليتلقب بلقبه(١) .

ولا نعرف تاريخ نشأة هذا التقليد فى حضرموت ، ولا السبب الذى من أجله اختير حصن انود لهذا الغرض . فربما كان وجود المبعوثين الحميرين دليلا على ان العلاقات بين حضرموت وسبأ كانت ودية ، ومن ثم فقد ارسل ملك سبأ وذى ريدان مبعوثين لتهنئة حليفة وصديقه ملك حضرموت بمناسبة تتويجه . الا انها من ناحية أخرى ، قد يستدل من وجود هذين المبعوثين ان ملك حضرموت انما كان يتولى سلطانه برضى من ملك سبأ .

وفيما يتصل بالتتويج عن حصن انود ، فربما كان هناك دافعا دينيا وراء ذلك ، ولقد استمر هذا التقليد الى حوالى عام ٢٠٠م .

ومن النقوش التى تلقى ضوءا على سياسة حضرموت الخارجية كذلك، نقشا يسجل استقبال «العزيلط» لوفود من الهند ، وتدمر ، ومن الاراميين، وسجل نقش آخر مرافقة عشر نساء قريبات للملك الى حصن أنود . وتشير هذه النقوش عن وجود علاقات ودية بين حضرموت وهذه المناطق ، ومن ناحية اخرى ، فاذا كان المقصود من قريش هنا المعروفة بمكة ، فان هذا يعد اقدم ذكر لها فى وثيقة مدونة .

ومن الناحية الدينية ، فلقد كان القمر هو الاله الرئيسى وأطلقوا عليه التسمية «سين» وهو نفس الاسم الذى أطلق علية فى اكبر وبابل بالعراق

---

(1) Philpy, J. B., Sheba's Danghters, London, 1939, pp. 449-450.

القـديم ، وانتشرت معـابد «سبـين» في العاصمة شبوه وكـذلك في المدن الحضرمية الكبيرة(١) .

واذا تحدثنا عن اهم مدن حضرموت،فمما لا شك فيه ان مدينة «شبوة» العاصمة كانت من أهم مدن حضرموت ، ون أهم آثارها التى كشف عنها بقايا المعابد والقصور ، فضلا عن بقايا السدود التى كانت مقامة على وادى شبوة لحصر مياه الامطار والافادة منها فى رى المناطق الخصيبة .

ومن النقوش التى وصلتنا وتتصـل بمدينة شبوة ، نقش تحـدث فيه صاحبه وهو «يدع آل بين بن رب شمس» وذلك حوالى عام ٢٠٠م ووصف نفسه انه من احرار يهبار ، وانه عمر مدينة شبوة واقام فيها ، وبنى معبدها من الحجارة بعد الخراب الذى حل بها ، وانه احتفالا بهذه المناسبة ، قد أمر بتقديم القرابين فى حصن انود فذبح ٣٥ ثورا و٨٢ خروفـا و٢٥ غزالا وثمانية فهود .

ولم يورد النقش سبب هذا الخراب الذى حل بمدينة شبوة ، فهل كان ذلك نتيجة تدخل خارجى من سبأ ، وان المدينة قد عانت من التدمير فى هذا الخراب ، أو انه كان نتيجة ثورة داخلية،وان «يدع آل بين» كان ثائرا على الملك الشرعى فى حضرموت ، وان الحرب قـد انتهت بزوال الاسرة الملكية السابقة ، وتتويج «يدع آل بين» ملكا على حضرموت ، وانه كتب على هذه المدينة ان تلاقى الامرين فى هذه الحرب الاهلية .

ومن مدن حضرموت كذلك مدينة «ميفعة» العاصمة القدمية لحضرموت، وتشير النصوص الى تحصينها وتسويرها وأقامة الابراج حولها لصد الغزاة عنها ، ومنها كذلك مدينة قنا وهى ميناء حضرموت الرئيسى ، وهو يقع الى الشرق من عدن . ومن هذه المدن ، مدينة «مـذب» أو «مـذاب» والتى اشتهرت بمعبدها الذى خصص لعبادة اله القمر «سين»(٢) .

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) انظر فى مدن حضرموت .
جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ ـ ١٦٦ ، محمد بيومى مهران، المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

واما متى انتهت دولة حضرموت ، واصبحت جزءا من مملكة سبأ وذى ريدان ، فهناك من الباحثين من يرى ان ذلك كان فى عام ٢٩٠م ، ويرى آخرون انه كان بعد عام ٣٠٠م فى عهد الملك «شمر يهرعش» ، بينما يذهب فريق ثالث الى انة كان فى القرن الرابع الميلادى .

الفصل السادس

دولـــــة قتبـــــان

دولـــــة قتبـــــان

يقع اقليم قتبان فى جنوب اليمن بين حضرموت شرقا واوسان غربا ، وهى مثلهما تشرف جنوبا على بحر العرب أو المحيط الهنـدى ، وتتصل شمالا بالمرتفعات اليمنية . وتقع فى تلك المرتفعات عاصمتها «تمنع» وقد اشار بعض الكتبة الكلاسـيكيين من امثال «ثيوفراسـتس» و «سترابو» و «بلينى» وغيرهم الى القتبانيين ، أما المصادر العربية فليس فيها شىء يستحق الذكر عن قتبان ، سوى أنها موضع من نواحى عدن ، وانهم من قبائل حمير ــ ويبدو أن هذا الخلط بينهم وبين حمير يرجع الى ضعف قتبان واندماجها بعـد فقد استقـلالها فى حكومة سبأ ، وهى التى يطلق عليهـا المؤرخون اسم (حمير) .

وقد تميزت الكتابات القتبانية بكثرة مـاورد فيها من نصـوص رسمية تتعلق بالضرائب أو القوانين أو التجارة ، ومع ذلك فان غالبيتها قد كتب فى اغراض شخصية ، ومن ثم فهى لا تفيد فى استخراج تاريخ منها .

وفيما يتعلق بتعيين مبدأ أو نهايةمملكة قتبان فقـد أرجع «هومل»(١) تاريخها الى ما قبل سنة (١٠٠٠) قبل الميـلاد ، وذهب (مـلاكر) الى أن ابتداء حكم قتبان كان فى حوالى عام ٦٤٥ ق٠م ، وأن نهاية استقلالها كان فى القرن الثالث قبل الميلاد(٢) . ويرى «جلاسر» أن نهاية هذه الدولة كانت بين (٢٠٠) و (٢٤ ق٠م)(٣) ، وذهب «ريكمنس» أن نهاية مملكة قتبان كانت فى حوالى السنة (٢١٠) أو (٢٠٧)(٤) للميلاد .

---

(١) فريتز هومل ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ ــ ١٠٤ .
(2) BASOR, 119, 1950, p. 3.
(3) Glaser, E., Die Abessinier in Arabien and Africa, p. 114.
(٤) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

هذا وقد كان حكام قتبان الاوائل يلقبون انفسهم باللقب الذى تلقب به حكام سبأ وهو لقب «مكرب» ، وتترجم هذه الكلمة «مقرب» اى التقرب الى الآلهة ـ فهو اذن كتابة عن الكاهن الحاكم الذى يحكم باسم الآلهة التى يتحدث باسمها ـ ثم تلى ذلك ان تلقب حكام قتبان بلقب «ملك» عندما ازدادت سلطاتهم وتجاوزت حدود المعبد .

ومن قدماء مكربى قتبان ـ المكرب (سمة على وتر) وقد عثر على كتابات من عهده كتبت بشكل حلزونى، وهناك كذلك ابنه (هوف عم يهنعم) وجاء بعده (شهر يجل يهرجب) و (أب عم) .

ويحاول بعض الباحثين أن يقسموا تاريخ قتبان الى ثلاث فترات ، تختلف الواحدة منها عن الاخرى ، وأهم حكام الفترة الاولى «يدع اب ذبيان»(١) بن شهر، وقد حكم فى الفترة (٧٥٠ ـ ٧٣٥ ق.م) فى رأى البعض، وكان أول من حمل لقب ملك بجانب لقب مكرب ـ وربما كان فى بادىء الامر كاهنا ، ثم حمل لقب ملك ، ثم اللقبين معا ، وأن اقتصر فى الفترة الاخيرة من حكمه على لقب ملك ، على اساس انه اللقب الرئيسى لحكام قتبان . وقد عثر على عدد من الكتابات القتبانية ، ورد فيها أسم هذا الملك. وقد ورد فى احداها قيام هذا المكرب بعمل ثغرة فى الجبل ليمر منها الطريق المار فى الجبل من مكان الى مكان . وقد اشترك فى هذا العمل الى جانب «يدع اب ذبيان» ، شعب قتبان وقبائل أخرى غير قتبانية هى أوسان وكحد ودهس ، وفى هذا دلالة على وجود فن هندسى راق عند العرب الجنوبيين فى هذا العهد.

ويرى بعض الباحثين أن ملك قتبان كان قد توسع فى عهد (يدع اب ذبيان) هذا فصار يشمل كل (أوسان) وقتبان ومراد ، حتى بلغ حدود سبأ . ولحماية ارضه اقام حواجز وفتح طرقا فى الهضاب والجبال ليكون فى امكان جيشه اجتيازها بسهولة فى تحركه لمقاتلة اعدائه . وتعبيرا عن

---

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ ومابعدها ، فؤاد حسنين ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

فتوحاته هذه فى شمال وفى جنوب قتبان استعمل جملة (أيمنن واشامن) اى (الجنوبيون والشماليون) وهو لقب يعبر عن هذا التوسع الذى تم على يديه .

كذلك قام الملك «يدع اب ذبيان» ببناء حصن «بـوم» تقربـا وتوددا لآلهة قتبان . وينسب الى عهد هذا الملك وثيقة على جانب كبير من الاهمية، وذلك لانها تظهر لنا أصـول التشريع وكيفية اصدار القوانين عنـد العرب الجنوبيين قبل الميلاد ، وهى توضح لنا أن الملك هو المرجع الاعلى للدولة، فهو وحده يملك حق اصدار القوانين ونشرها والامر بتنفيذها ، والى جانبه كان هناك مجالس مسماة بـ(المزود) وتتكون من ممثلى المدن ومن رؤساء القبائل والشعاب ، وهى التى تقترح القوانين وتضع مسـودات اللوائح ، فاذا وافقت المجالس عليها عرضتها على الملك لامضائها ولنشرها بصـورة امر ملكى ، ليطلع الناس على احكام الامر الملكى ويعملوا به . وقد احتوت الوثيقة السالفة الذكر على قانون فى عقوبات القتل العمد أو القتل الخطأ غير المتعمد وفى العقوبات التى يجب ان يعاقب بها من يصيب انسانا بجرح أو جروح قد تحدث آفات وعطلا فى الشخص.وتعتبر هذه الوثيقة الهامة التى ترجع الى عهد الملك «يدع اب ذبيان» من الاوامر التى اصـدرها الملك فى النصف الاول من القرن الرابع ق.م[1] .

وورد أسم ملك آخر من ملوك قتبان يدعى (شهر هلل بن يدع اب) فى قانون اصدره للقتبانيين المقيمين بمدينة «تمنع» اى عاصمة قتبان،ومن يقيم خارجها ، وذلك لتنظيم التجارة ، ولتعيين حقوق الحكومة فى ضرائب البيع والشراء ، والاماكن التى يكون فيها الاتجار . وفى هذا القانون مصطلحات تجارية مهمة ترينا مبلغ تقدم القتبانيين فى اصول التشريع التجارى فى ذلك الـــوقت .

أما الملك «يدع اب يحل» القتبانى ، فقد نشبت فى عهده حرب بين سبأ وقتبان ذكرت فى احدى النصوص التى ورد بها ان قبائل سبأ ثرب وتمردت على ملك قتبان ولكنه تغلب عليها وفرض عليها الجزية واخذ غنائم منها .

---

(١) محمد بيومى مهران ــ المرجع السابق ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

وجاء فى الكتابات القديمة اسم ملك آخر من ملوك قتبان وهو الملك (شهر غيلن بن ابشم)(١) وقد اصدر امر ملكى لجبـاية الضرائب من قبيلة (كحد) كذلك فقد احرز هذا الملك نصرا على حضرموت • ويتبين من ذلك ان قتبان كانت فى عهد هذا الملك قوية • وقد عثر على عـدد من الكتابات القتبانية ورد فيها اسم الملك (شهر يحل بن يدع اب) وجاء بها أمر ملكى فى كيفية جمع الجباية من طائفة معبد الاله فى أرض لبخ ـ ويظهر من هـذا المصطلح ومن مصطلحات مشابهة اخرى أن العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمى الى اله من الآلهة تتسمى به وتقيم حول معبده ، وربما كانت تتعاون فى استغلال الارض وتقدم حقوق الحكومة منهـا الى الجباة الذين يجبون تلك الحقوق •

وقد ورد فى احدى الكتابات القتبانية ان حكومة معـين كانت خاضعة لحكومة قتبان فى عهد الملك القتبانى (شهر يجل يهر جب) ، ويرى بعض المؤرخين ان ذلك كان حوالى سنة ٨٢٠ ق•م ، وان كانت معين قد احتفظت باستقلالها الذاتى ، اذ بقى ملوكها يحكمونها فى ذلك العهد ، ولدينا نص مهم طويل ، هو قانون اصـدره (شهر يجل يهر جب) باسمه وباسم شعب قتبان لقبائل قتبان فى كيفية الاستفادة من الارضـين (المعينية والقتبانية) واستثمـــارها •

وورد اسم ملك آخر من ملوك قتبان ويدعى (نبط بن شهر هلال) وذكر فى عهده حرب اشتركت فيها عـدة جهات ، وهى حرب وقعت فى عهد هذا الملك ، ورغم انه قد تلقب فى الكتابات بلقب ملك ، الا انه كان فى الواقع خاضعا لحكم حكومة حضرموت ، وقد جعل المؤرخين زمان حكمه فى حوالى السنة (١٢٠م) ،وجعلوا نهاية حكم ابنه فى حوالى السنة (١٤٠) بعد الميلاد• ومعنى ذلك ان الحرب المذكورة قد وقعت فى خلال هذه السنين •

ويتفق جميع الباحثين فى دراسة تاريخ الحكومات العربية الجنوبية على ان السبئيين هم الذين قضوا على استقلال حكومة قتبان ، وقد اختلفوا فقط •

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ وما بعدها •

فى تحديد الوقت الذى تم فيه ، فبينما يرى البعض ان ذلك كان فى حوالى عام ٥٤٠ ق٠م ، يرى البعض الاخر ان سقوط مدينة تمنع كـان فى حوالى ٥٠ ق٠م ٠ ولا يعنى سقوط تمنع وخرابها وفقدان القتبانيين لاستقلالهم ، ان الشعب القتبانى قد زال من الوجود ، وان اسمه قـد اندثر واختفى ، فاننا نرى ان الجغرافى الشهير (بطليموس) يذكر اسمهم فى جملة من ذكرهم من شعوب تقطن فى جزيرة العرب ٠

اما عن أهم مدن قتبان،فهى العاصمة (تمنع) وتعرف حديثا بـ(كحلان) وبـ(هجر كحلان) فى (وادى بيحان) فى منطقة عرفت قديما بخصبها وبكثرة مياهها وبساتينها ، وقد تعرضت لاحداث عنيفة انتهت بخرابها بالحريق ٠ أما عن الاسباب التى ادت الى حدوث هذا الحريق الذى دمر المدينة فهى غير معروفة لنا ، وقد ادت فى النهاية الى دمار تمنع وانتقال الحكم منها الى موقع آخر يدعى (حرب) أو (حريب) التى قامت بها أسرة جديدة اتخذوا لقب ملك وضربوا عملة ذهبية بأسمائهم(١) ٠

وفى مجـال العمارة ابدى القتبـانيون اهتمـاما بالغا ببيـوت الآلهة ومعابدها ، وفى هذا تعبير عن عقيدتهم الراسخة وولائهم الدائم لها،ولايخلو نقش مهما كانت مناسبته الا وقد ذكرت فيه العديد من الآلهة ٠ ايمانا منهم بوقوف الآلهة معهم فى احوال السلم والحرب ، ومن ثم كان من الطبيعى ان يقوم اهل قتبان بأداء واجباتهم نحو تلك الآلهة من صلاة ودعاء وشكر ورعاية لبيوتها ، وقد جاءت النقوش القتبانية مصدقة لكل ذلك ٠ وهناك نقوش من عهد المكربين ، ورد فيها اسماء آلهة قتبانية هى (انبى) و (حـوكم) و (عم) ، وورد فيها ايضا بناء معابد للآلهة على سبيل الشكر والدعاء لها لترعى السلام والامان للتجارة المسافرة على الطرق ٠

---

(١) وندل فيلبس ، كنوز مدينة بلقيس ، قصة اكتشاف مـدينة سبأ الاثرية فى اليمن ، ترجمة عمر الديراوى ، بـيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٠٥ وما بعدهــــا ٠

الفصل السابع

دولة سبأ

دولـــــة ســــــبأ

حظيت دولة سبـأ باهمية خاصة بين الـدول التى ظهرت فى جنوب الجزيرة العربية ، ويرجع ذلك الى الصلة التى ربطت بين ملكة سبأ والنبى سليمان ـ عليه السلام ـ وورود أخبار هذه العلاقة فى القرآن الكريم والتوراة . وتشير الادلة الاثرية التى كشف عنها فى العراق القديم ورود اسم سبـأ فى النقوش الاشورية التى ترجع الى الملك الاشورى تيجـلان بلاسر الثالث فى عام ٧٣٨ ق٠م الـذى ذكر أنه تلقى جـزى الســبايين من الـذهب والابل والتوابل ، واكد ذلك نص يرجع الى عهـد الملك سرجون الثانى (٧٢١ ـ ٧٠٥ ق٠م)(١) وذلك فى معرض الدول التى تؤدى اليه الجزية ، ويتجه بعض العلماء الى الاعتقاد بان هذا النص يشير الى قيام السبئيين بدفع الجزية عن تجارتهم فى شمـال جزيرة العرب ، حتى يسمح لهم بالمرور الى شواطىء البحر المتوسط ، وذلك نظرا لان سرجون الثانى لم يصل بفتوحاته الخارجية حتى اليمن.ويشير بعض العلماء الى ان كلمة Sabu = SA-Ba-A-A الواردة فى أحد النصوص السومرية التى عثر عليها فى لجش حوالى عام ٢٥٠٠ ق٠م تعنى سبأ ، واذا كان ذلك صحيحـا ، اصبحت هذه النصـوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل الينا ـ حتى الآن ـ وفيها ذكر سبـأ ، ويكون السبئيون بذلك أول شعب عربى جنوبى يصل ذكره الينا .

وقد اثار هذا النقش جدلا كبيرا بين العلماء،فاتجه البعض الى الاعتقاد بأن السبئيين المذكورين فى النصوص السومرية كانوا يقيمون فى بادية شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا الى اليمن ، واختلفت الآراء كذلك بشأن زمن هذا الانتقال فاتجه البعض الى تحديده بالقرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وأرجعه

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

البعض الاخر الى القرن الحادى عشر ، بينما أرجعه فريق ثالث الى القرن الثامن قبل الميلاد .

ولقد اشارت بعض كتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان الى دولة سبأ ، وكان المؤرخ اليونانى «ثيوفراستس» هو أول من اشار اليهم ، وقد اعتمد فى معلوماته التى ذكرها عن دولة سبأ على ما سمعه من تجار الاسكندرية ومن البحارة الذين كانوا يجوبون البحر الاحمر ويصلون الى العربية الجنوبية وسواحل افريقية والهند ، ونظرا للاطماع السياسة للسيطرة على بلاد العرب ، فقد حاول الرومان الحصول بكافة الطرق على المعلومات المتصلة ببلاد العرب عن طبيعة أرضها ومواردها وحالة سكانها ومواطن الضعف لديهم ، واعتبروا هذه المعلومات من اسرار الدولة التى لا يجوز افشاؤها ، ولقد تم جمعها وخزنت فى الاسكندرية ، ولم يسمح الا لبعض الخاصة من العلماء بالاستفادة منها ، ولقد ادى ذلك بطبيعة الحال الى زيادة المعلومات عن بلاد العرب،ومحاولة تنقيتها من الشوائب وتوثيقها الى ابعد حد ممكن .

وفيما يتصل بالادلة الأثرية السبئية ، فاننا نعتمد فى دراستنا لدولة سبأ اعتمادا كبيرا على الكتابات السبئية التى عثر عليها فى مواضع متعددة من جنوب الجزيرة العربية وبخاصة فى الجوف مقر السبئيين ، الا أنه يؤخذ على الكتابات السبئية انها لم تتخذ تاريخا مطلقا كبداية للتاريخ ، وأنما أرخت الاحداث نسبة الى الاشخاص ، وبعض الاحداث الهامة ، وذلك مما يجعل عملية تحديد زمن هذه النصوص أمرا من الصعوبة بمكان ومع ذلك فلقد أمدتنا هذه النقوش بمعلومات لابأس بها عن نظام الحكم وتتابع الحكام فى بعض الأحايين والاعمال الهامة التى قاموا بانجازها والاحداث الكبيرة التى حدثت فى عهودهم .

وفيما يتصل بالكتابات المقدسة ، فلقد اشار القرآن الكريم فى سورة سميت باسم «سبأ» وهى السورة «٣٤» من القرآن الكريم ، الى ما كانت تتمتع به دولة سبأ من نعيم ورخاء مقيم ، فقال جل من علا : «لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتآن عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له

بلدة طيبة ورب غفور» (آية رقم ١٥) ثم تتحدث آيات القرآن الكريم بعد ذلك عما اصابهم نتيجة اعراضهم ، من تعرضهم لسيل مدمر حطم كل شيء. انظر فى ذلك قوله سبحانه وتعالى : «فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل» (آية رقم ١٦ من سورة سبا) .

واشار القرآن الكريم فى سورة النمل الى قصة زيارة ملكة سبا لسليمان ـ عليه السلام ـ دون الاشارة الى اسمها . ومما جاء فى ذلك قوله سبحانه وتعـــالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين (٢٠) لأعذبنه عذابا شـديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين (٢١) فمكث غـير بعيد فقال أحطت بمـا لم تحط به وجئتك من سبا بنبا

يقين (٢٢) انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من
كل شىء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان
أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤)
الا يسجـدوا لله الـذى يخرج الخبء فى السموات
والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنـون (٢٥) الله
لا اله الا هو رب العرش العظيم (٢٦) قال سننظر
أصدقت أم كنت من الكاذبين (٢٧) اذهب بكتابى
هـذا فالقـه اليهم ثم تـول عنهم فـانظر مـاذا
يرجعـون (٢٨) قالت يا أيهـا الملأ انى القى الى
كتـاب كريم (٢٩) انه من سليمان وانه بسـم الله
الرحمن الرحيم (٣٠) الا تعلـوا على واتـونى
مسلمين (٣١) قالت يا أيهـا الملأ افتونى فى أمرى
ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون (٣٢) قالوا نحن

أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين (٣٣) قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون (٣٤) وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون (٣٥) فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما أتانى الله خير مما اتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣٦) ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون(٣٧) قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين (٣٨) قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين (٣٩) قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر

أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم (٤٠) قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتـدون (٤١) فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كانه هـو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين (٤٢) وصدها ماكانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين (٤٣) قيل لهـا ادخلى الصرح فلمـا رأته حسبته لجـة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسـلمت مع سليمان لله رب العالمين (٤٤)

صدق الله العظيم

ولقد وردت كلمة «سبــأ» و «شبا» فى التوراة ، ولكن كاتبى التوراة كانوا مترددين فى نسبهم ، فهم مرة من الحاميين ، فلقد ورد فى الآية السابعة من الاصحاح العاشر من سفر التكوين : «وبنوكوش سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا ·وبنو رعمه شبا وددان»(١)·وورد كذلك فى الآية التاسعة من الاصحاح الاول من اخبار الايام الاول : «وبنوكوش سبا وحويله وسبتا ورعما وسبتكا· وبنمو رعما شبا وددان» · فلقد ذكروا فى هذين الموضعين على انهم من كوش اى من الحاميين(٢) ·

وهم مرة اخرى من الساميين ، فلقد ورد فى الآيات من ٢١ ــ ٢٨ من الاصحاح العاشر من سفر التكوين ما يشير الى ذلك : «وولد لسام ايضا بنون وهو ابو جميع بنى عابر اخو يافث الاكبر ، بنو سام عيلام واشور وازمكشاد ولود وأرام ، بنو أرام عوص وحول وجاثر وماش وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر ، وولد لعابر ابنان اسم احدهما فالج لانه فى ايامه انقسمت الارض واسم اخيه يقطــان ، ويقطان ولــد الموداد وشالف وحضرمــوت ويارح ، وهدورام واوزال ودقله ، وعوبال وابيمائيل وشبا»(٣) ·

ووصفت ارض «شبا» فى التوراة بانها كانت تصدر اللبان ، وان تجارها كانوا يقومون بالتبادل التجارى مع العبرانيين ، انظر فى ذلك ما جاء فى الآية العشرين من الاصحاح السادس من نبؤة ارميا : «لماذا ياتينى اللبان من شبا وقصب الذريرة من أرض بعيدة»(٤) · وما جاء فى الآيات ٢٢ ــ ٢٤ من الاصحاح السابع والعشرين من نبؤة حزقيال وجاء فيها :

«تجار شبأ ورعمه متجرون معك وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب اقاموا اسواقك ، حاران وكنه وعادان وتجار شبــأ واشور وكلمد متجرون معك ، هــؤلاء يتجرون معــك بالانسجة الفــاخرة وبــأردية من

---

(١) تكوين : ١٠ ، ٧ ·
(٢) اخبار الايام الاول ، ١ : ٩ ·
(٣) تكوين ، ١٠ : ٢١ ــ ٢٨ ·
(٤) ارميا ، ٦ : ٢٠ ·

السمنجونى والوشى وبالنفائس من الثياب المبرمه المشدودة بالحبال المعكومة بين بضائعك»(١) .

ولقد اشارت التوراة الى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مع ملكة سبأ ، ويلاحظ ان التوراة لم تذكر اسم ملكة سبأ . ولقد وردت هذه القصة فى الآيات عن ١ ـ ١٠ ، ١٣ من الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث وجاء فيها : «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان واسم الرب فقدمت لتختبره بأحاجى ، فدخلت أورشليم فى موكب عظيم جدا ومعها جمال موقره اطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة واتت سليمان وكلمته بجميع ما كان فى خاطرها ، ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخف على الملك شىء لم يفسره لها ، ورأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه ، وطعام موائده ، ومسكن عبيده وقيام خدامه ولباسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب فلم يبق فيها روح بعد ، وقالت للملك حقا كان الكلام الذى يلقى فى أرضى عن أقوالك وعن حكمتك ، ولم اصدق ما قيل لى حتى قدمت وعاينت بعينى فاذا انى لم اخبر بالنصف فقد زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته ، طوبى لرجالك طوبى لعبيدك هؤلاء القائمين دائما بين يديك يسمعون حكمتك ، تبارك الرب الهك الذى رضى منك وأجلسك على عرش اسرائيل فانه لاجل حب الرب لاسرائيل الى الابد ، اقامك ملكا لتجرى الحكم والعدل ، وأعطت الملك مائة وعشرين قنطار ذهب واطيابا كثيرة وحجارة كريمة ولم يرد بعد فى الكثرة مثل ذلك الطيب الذى وهبته ملكة سبأ للملك سليمان ... واعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل بغيتها التى سألتها فوق ما أعطاها من العطايا على حسب كرم الملك سليمان وانصرفت وذهبت الى أرضها هى وعبيدها»(٢) .

وتشير احداث هذه القصة الى معرفة العبرانيين بالسبئيين ، وان اختلفت وجهات نظر المؤرخين فى مكان دولة سبأ التى ورد ذكرها فى احداث هذه القصة ، فاتجه بعض الباحثين الى الاعتقاد بانها كانت مملكة عربية صغيرة فى اعالى جزيرة العرب كان سكانها من السبئيين القاطنين فى الشمال .

---

(١) حزقيال ، ٢٧ : ٢٢ ـ ٢٤ .
(٢) الملوك ثالث ، ١٠ : ١ ـ ١٠ ، ١٣ .

ورغم الاختلاف فى تفاصيل كيفية تعرف سليمان ـ علية السلام ـ بملكة سبأ والهدف من الزيارة بين مـا ورد فى القرآن الكريم والتوراة ، الا انها تشـير الى معرفة العبرانيين بالسبئيين والى وجـود هذه المملكة فى القرن العاشر قبل الميلاد .

اصل السبأيين :

اختلف المؤرخون فى اصل السبئيين ، فتذكر الروايات العربية ان سبأ من قحطان ، ويسمونهم العرب المتعربة ، تمييزا لهم عن العرب الذين كانوا قبلهم ، وتشير هذه الروايات ان والـده هو يشحب بن يعرب بن قحطان ، وتذكر ان من أولاده قبائل كثيرة انتشرت فى كل مكان من جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده ، ونسب اليه نسله من السبئيين ، وقد ذكروا ان اسمه الحقيقى هو «عبد شمس» وأما «سبأ» فهـو لقب تلقب به ، وذهبوا فى سبب هـذه الكنية مذاهب متعددة ، فقالوا انه لقب به لانه اول من سبأ ، اى سن السبى من ملوك العرب ، واتجة البعض الاخر الى احاكة الاساطير حوله فقالوا انه بنى مدينة «سبأ» وسد مارب ، وغزا الاقطار وبنى مـدينة عين شمس فى مصر ، وهى امور لاتعدو ان تكون خيالا فى مخيلة كاتبيها(١) .

ولم يعثر فى النصوص العربية الجنوبية التى كشف عنها عن شىء يتصل بشخص يدعى سبأ أو اسمه واعماله ، وكل ما ورد فى هذه النقوش يشير الى ان سبأ هو اسم شعب كون له مملكة وكان له حكامه ونظامه السياسى والادارى والاقتصادى ، وعلاقاته الخارجية .

ويتجه بعض العلماء الى الاعتقاد بان السبئيين كانوا فى الاصل شعب بدوى يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم استقر فى بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق.م ، واخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب جيرانهم من المعينيين والاوسانيـين والحضارمة ، وعملوا بالتجارة

---

(١) انظر : الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، تـاريخ الرسل والملوك ، الجزء الاول ، ص ٢١١ ، ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى) ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الاول ، ص ٢٣٠ .

وسيطروا على الطرق التجارية الرئيسية التى تصل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها وبلاد الشام ، وكان لذلك اثره الكبير فى ازدهار دولة سبأ ونموها بين ممالك العرب الجنوبية(١) •

مراحل التــاريخ السبئى :

أمكن بفضل النقوش السبئية تقسـيم عصر دولة سبأ الى عـدة مراحل وذلك على اساس تغير لقب حكام سبأ ، حيث تغير هذا اللقب عدة مرات ، وفى كل مرة كان يتغير فيها كان يحدث تغيير فى نظام الحكام ، وتدخل سبأ فى عهد جديد يختلف عنوانه عن العهد السابق ، ولقد امكن تحديد مراحل اربعة رئيسية مرت بها سبأ ، وهذه المراحل هى :

١ ـ مرحلة المكـارية : وهى مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب ، اى المقرب من الآلهة ، أو الوسيط بين الآلهة والناس ، وقد اتخذ المكارية من صرواح عاصمة لهم ثم نقلوها الى مأرب ، ويمتد عصر المكارية من عا م٨٠٠ ــ ٦٥٠ ق٠م(٢) •

٢ ـ مرحلة ملوك سبأ : وهى المرحلة التى تلقب فيها حكام سبأ بلقب «ملك سبأ» وتمتد هذه المرحلة حتى عام ١١٥ ق٠م أو ١٠٩ ق٠م •

٣ ـ مرحلة ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ ــ ٣٠٠م) •

٤ ـ مرحلة ملوك سبــأ وذى ريدان وحضرموت واليمن واعرابها فى المرتفعات وفى التهائم • وهو آخر دور من ادوار الحــكم فى سبأ (٣٠٠م ــ ٥٢٥م)(٣) •

١ ـ سبأ فى عهد المكارية :

اتـخذ حــكام سبأ فى اقدم عهــودهم لقب «مكرب»وذلك كمــا ورد فى

---

(1) Burton, R. F., Royal Inscriptions From Sumer & Akkad.

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ •

الكتابات السبئية وتشير اللفظة على التقرب من الآلهة ، فكان «المكرب» هو المقرب أو الوسيط بين الآلهة والناس ، وغلب على حكام سبأ فى هذه المرحلة الصفة الدينية(١) .

وفيما يتصل بالتحديد الزمنى لحكم المكاربة فهناك عدة آراء تدور حول هذا الامر ، فهناك من يرى ان بداية حكم المكاربة ترجع الى القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد ، بينما هناك رأى ثان يرى ان بداية حكمهم كان فى بداية عام ٨٠٠ ق٠م واستمر عهدهم لمدة قرنين ونصف اى حتى حوالى عام ٦٥٠ ق٠م بينما رأى فريق ثالث أن مـدة حكم المكاربة قـد استمرت ثلاثة قرون وذلك من حوالى ٧٥٠ ق٠م وحتى ٤٥٠ ق٠م ٠

ونلاحظ من ذلك اختلاف آراء المؤرخين حول بداية عهد المكاربة وكذلك نهاية هذا العهد ، فبينما يرجع البعض بدايته الى القرن العـاشر ق٠م ، نجد البعض الآخر يرجع بدايته الى أواسط القرن الثـامن ق٠م ، وبينما يجعل البعض نهاية هذا العهد فى منتصف القرن السابع ق٠م ، نجد البعض الاخر يجعلها فى أواسط القرن الخامس ق٠م(١) ٠ ويرجع ذلك ــ كما سبقت الاشارة ــ الى عدم وجود تواريخ محددة وثابتة نستطيع التأريخ على اساسها لدولة سبأ ولعدم وجود تواريخ ثابتة تثبت حكم كل ملك بصورة قاطعة ٠

ومن أقدم مكاربة سبأ الذين وصلتنا معلومات عنهم المكرب «سمه على» وقد وصلنا من عهده بعض الكتابات المكتـوبة بالطريقة الحلزونية ، ولكن هذه الكتابات كانت قصيرة وناقصة ، ولقد ورد فيها اسماء بعض المعبودات مثل : عثتر والمقه وذات حميم ٠

ولقد اختلفت آراء العلماء حول حكام سبأ وترتيب تتابعهم فى الحكم وكذلك سنوات حكمهم ، وحاولوا ترتيبهم على اساس تقـدير عمر البقايا

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٤ ٠

(٢) راجع فى ذلك : جواد على ، المرجع السابق،ص ٢٦٨ ومابعدها، عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ، محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ص ٢٧٣ وما بعدها ،

Philpy, T. B., Op. Cit., p. 141.

الاثرية التى تخلفت من عهودهم والطبقات الاثرية المتخلفة فيها وكذلك على اساس دراسة نماذج الخطوط والكتابات التى وردت عنهم ، ويلاحظ فى ذلك تباين آراء المؤرخين حول عددهم وتتابعهم ، ومن اشهر هؤلاء المكاربة :

- سـمه على ٠
- يـدع ايل ذريح ٠
- يثـع أمر وتر ٠
- يدع ايل بين ٠
- كرب ايل بين ٠
- يثـع أمر وتر ٠
- ذمر على وتر ٠
- يثع أمر بين ٠
- ذمر على ينف ٠
- كرب ايل وتر ٠

سياسة سبأ الداخلية فى عهد المكاربة

١ ـ بنـاء المعابـد :

أهتم مكاربة سبأ ببناء معابد الآلهة وتقديم القرابين لها ، وتشير نقوش المكاربة الاوائل الى تشييدهم لمعابد الآلهة فى صرواح ومأرب وغيرهـا من المناطق السبئية ، ولعل من أشهر هذه المعابد ، المعبد الذى شيده المكرب «يدع ايل ذريح» للاله المقه فى مأرب(١) ، ويسمى هذا المعبد «معبد أوام» وهو يعرف حاليا باسم «محرم بلقيس» ، وهـو يقع جنـوب شرق مأرب الحالية بحوالي اربعة كيلو مترات ٠

وفى محاولة لتفسير معنى التسـمية الحالية للمعبـد ، يذكر الاسـتاذ

---

(١) يتجه بعض الباحثين الى ان هذا المعبد كان موجودا قبل عهد «يدع ايل ذريح» وانه لم يكن البانى له كله ، بل قام ببناء بعض اجزائه فقط ، غير انه لم يعثر على اسم من قام ببنائه ، ومهما كان الامر ، فان اقدم اسم موجود فى هذا المعبد هو لهذا المكرب ، ولهذا فانه ينسب اليه ، حتى تكشف لنا الحفائر التى تجرى فى هذه المنطقة عن اسم بانيه ٠

الدكتور أحمد فخري[1] أن كلمة «محرم» تعني المكان المقدس للاله أو بعبارة اخرى «المعبد» . أما «بلقيس» فيرى المؤرخون العرب أنها ملكة سبأ التي زارت سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ويرون ان اسمها كان «بلقيس» أو «بلقمه» ويرجح علماء الساميات ان «بلقمه» هو الارجح ، وربما كان اسم الاله «المقه» يدخل في تركيبه . أما اسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المفسرين المسلمين فلم يرد على الاطلاق بين الاسماء السبئية المعروفة ، وهناك احتمال بأن الاسم منقول عن العبرية التي نقلته بدورها عن اليونانية ومعناه «أمة» أو جارية .

وفيما يتصل بالتصميم المعماري لمعبد أوام محرم بلقيس[2] ، فيلاحظ أنه يكاد يكون بيضاوي الشكل ، ويوجد مدخلة الرئيسي في الناحية الشمالية، ويوجد أمام المدخل بهو ذي اعمدة على جوانبه ، وبعد المدخل بحوالي عشرة امتار تقوم ثمانية اعمدة كبيرة في صف واحد ، وذلك عدا الاعمدة الصغيرة . ويوجد في الجهة الشرقية من البناء هيكلا صغيرا من الحجر له اربعة اعمدة . وشيد السور الخارجي للمعبد من احجار منحوتة ، وهي تتفاوت في احجامها ، وقد زين أعلى السور ببعض الزخارف . وكان للمعبد باب جانبي آخر في الناحية الغربية وهو مواجه للمدينة القديمة ، وربما كان هناك طريق موصل بين الاثنين ، ومن المحتمل ان تكون هناك ابواب جانبية اخرى مغطاة الآن بالرمال .

وقام مكاربة سبأ بعد ذلك بترميم المعبد وتوسيعه ، ومن هؤلاء المكاربة «يثع امر بين» الذي حكم في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد ، الذي سجل نقشا على الناحية الغربية من سور المعبد اشار فيه الى قيامه باتمام بناء المعبد . ولقد ظل هذا المعبد يؤدي وظيفته في عبادة الاله المقه مدة تناهز الالف عام ، حيث عثر على كتابات بالقرب من باب المعبد تشير

---

(١) أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق الادنى القديم،ص ١٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .

الى القيام ببعض الترميمات فيه ، وترجع هذه الكتابات الى القرنيين الثالث والرابع الميلاديين .

وقام المكرب «يدع ايل ذريح» ببنـاء معبد للاله المقه ايضـا فى مدينة صرواح ، ولكن لا يمكن معرفة التصميم الاصلى بهذا المعبـد ، وذلك نظرا لانه قد استخدم خلال العصور الوسـطى كحصن ، فاستحدثت فيه مداخل وسدت منافذ وهدمت كثيرا من احجاره .

٢ ـ تشييد السـدود :

أهتم مكاربة سبأ بالاصلاحات الزراعية ، فعملوا على استصلاح الارض واستغلالها ، ومن اجل ذلك وجهوا اهتمامهم لبناء السـدود لحجز المياه للاستفادة منها فى اعمال الزراعة ، واقام العرب السدود لقلة المياه فى بلادهم فلم يدعوا واديـا يمكن استثمار جانبيه بالمـاء الا وحجزوا سيله بسـد ، فتكاثرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . ولقد ذكر الهمذانى فى يحصب العلو من مخاليف اليمن وحده ثمانين سـدا ، والى ذلك اشـار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سدا باسم خاص به ، أو بنسبه الى البلد المقام فيه ، ومن اعظم هذه الاسداد فى بلاد العرب واشهرها سـد مأرب[1] . ومن أقدم النقوش التى وصلتنا عن سد مأرب نقش من عهد المكرب «سمه على ينف» وأشار فيه الى تصميمه لسد رحاب للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة من السيول ، وهو جزء من مشروع سد مأرب ، ويشير هذا النقش كذلك الى قيام هذا المكرب بثقب حاجز من الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه منها الى سد رحاب لتسيل الى منطقة يسران ، وكانت تغـذيها مسايل وقنوات عديدة تأتى بالماء من حوض هذا السد .

---

(١) راجع : أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ ـ ٢٠٣ ، عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦١ ـ ٦٦ .

وتشير نقوش «سمه على ينف» وهى اقدم كتابات تصلنا عن سد مارب الى قيامه باعمال هامة فيه ، الا انه لا يمكن القول انه هو مشيده ، فقد يكون تشييده قد بدأ عن قبل حكمه وانه اتم هذا العمل ، ولكن نظرا للنقص الشديد فى الوثائق المتصلة بهذا الموضوع يظل «سمه على ينف» هو اقدم المكاربة الذين نعرف عنهم قيامهم بتشييد سد مارب ، وكان ذلك فى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد ٠ ولقد سار على نهجه من جاء بعده من المكاربة فى الاهتمام بسد مأرب وتعلية جدرانه وترميمها واستحداث اضافات اليه ٠

ويعتبر سد مارب اعظم عمل هندسى قديم فى الجزيرة العربية كلها ، ولقد حظى بكثرة ماورد عنه فى اخبار العرب واشعارهم وذلك على سبيل العظة والعبرة لما اصاب سبأ نتيجة انهياره ، ولقد اشار القرآن الكريم فى سورة سبأ الى ما اصاب سبأ نتيجة حدوث سيل العرم ، فقال تعالى فى كتابه الكريم : «لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل،ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور،وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور» ٠ الآيات من ١٥ ـ ١٨(١) ٠

وسيل العرم الذى يشير اليه القرآن الكريم ، والذى كتب فيه المفسرون كثيرا ، وكان سببا فى خراب المنطقة حدث فى وقت ما بين أعوام ٥٤٣ ، ٥٧٠م ، اى قبيل مولد النبى عليه افضل الصلاة والسلام ٠ ولكن بالرغم من ان حادث هذا السيل كان قريبا من البعثة المحمدية فان ما كتبه الشراح والمفسرون ملىء بالقصص الخيالية سواء كانت عن سبب تخريب السد

---

(١) سورة سبأ ، الآيات ١٥ ـ ١٨ ٠

وتهدمه أو عن الذين قاموا ببنائه،فقال بعضهم أن بانيه هو سبأ بن يشجب، وقال غيرهم بناه لقمان بن عـاد ، وجعله فرسخا فى فرسـخ ، وجعل لـه ثلاثين فتحة ، الى غير ذلك من المبالغات .

ولعل من أوثق روايات العرب عن سد مارب ما ذكره ابى محمد الحسن ابن يعقوب الهمذانى فى كتابه الاكليل ، وكان قد شاهد انقـاضه بنفسه فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكان يقرأ خط المسند ويفهمه ، فوصف انقاضه مع تطبيقها على ما جاء فى القرآن الكريم،ولقد جاء فى رواية الهمذانى(١) :

ذكر مأرب : وهى مسكن سبـأ الذى قال الله فيه : «لقـد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور»(٢) . وهى كثيرة العجائب . والجنتان عن يمين السد ويساره ، وهما اليوم غامرتان ، والغامر العافى ، وانما عفتا لما اندحق السد فارتفعتا عن ايدى السيول . ووجدت فى احداهما غريق اراك ، وفى اصله جذع نخلة أسود قد كبست باقيه السواقى ، فقال بعض من كان معى : لا اظنه الا من بقايا نخل الجنتين ، وما اظنه بقى من العصر القديم . وأما مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعا فرغ من عملهـا بالامس . ورأيت بناء احد الصدفين وهو الذى يخرج منه الماء ، قائما بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير الا أن يشاء الله . وانما وقع الكسر فى العرم وقد بقى من العرم شىء مما يصل الى الجنة اليسرى يكون عرض اسفله خمسة عشر ذراعا، قال تبارك وتعالى : «فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل»(٣) قيل الخمط الاراك والاثل الطرفاء ، والسدر المعروف العرج وهو العلب وجمعه علوب والواحدة علـــبة .

---

(١) الهمذانى (أو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) ، الاكليل ، الجزء الثامن .

(٢) سورة سبأ ، آية رقم ١٥ .

(٣) سورة سبأ ، آية رقم ١٦ .

ومن امثال العرب فى الرجل المنيع الجانب : هو رجل لا يفاش عليه ولا يخلف وثله ودومه ، وبها من الاراك ما ليس ببلد ومن الحمام المطوق فى الاراك ما يجل عن الصفة . وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن ، من (عروش وجانب ردمان وسرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان) . وفى هذا السد يقول الاعشى(١) .

«كفى ذلك للمؤتس اسوة	ومارب قفا عليها العرم
رخام بناه له حمير	اذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث واعنابهم	على ساعة ماؤهم ينقسم
فعاشوا بذلك فى غبطة	فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها	ببهماء فيها سراب يطم»

وفيما يتصل بوصف السد ، فيلاحظ ان السيول المتدفقة فى الوديان تصل الى منطقة قريبة من مأرب فى وادى أذنه حيث تدخل فى جبل يسمى «جبل بلق» وتسمى الفتحة التى تدخل منها المياه باسم «الضيقة» ولكل من جهتيها اسم حسب وصفها بلق الايمن وبلق الايسر .

ويرتفع جبل بلق فى تلك المنطقة الى حوالى ٣٠٠ متر ، ويبلغ متوسط اتساع «الضيقة» ٢٣٠ مترا ، ولكنها تتسع فى الوسط فيصبح اتساعها ٥٠٠ مترا ، ثم تضيق بعد ذلك فلا تزيد عن ١٩٠ مترا تقريبا ، ثم تستمر الناحية الشمالية فى امتدادها بينما تنفرج الناحية الاخرى . وقد اختير هذا المكان لتشييد السد ، فبنى فيه جدارا قويا يعترض الوادى ويوقف مياه السيول المتدفقة ، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين احداهما الى اقصى اليمين واستغلوا ذلك الجبل المرتفع فى هذا الغرض فلم يبنوا الا جدارا ضخما واحدا ليكون صدفا ثانيا للبوابة ، اما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر واعظم ، وتنقسم الى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر ترى فى جهاته

---

(١) انظر : احمد فخرى : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحى الوادى الفســيح ٠

ولقد شيــد هذا الســد لغرضين ، الاول السيطرة على ميــاه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها اذا جاءت فجاة بكثرة غير عادية ، وثانيهما تخزين تلك المياه ورفع مستوها امام السد وعدم صرف شىء منها الا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمون رى وادى مارب الــذى يرتفع عن مستوى السابله بخمسة امتار ، ويامنون توفر كميات المياه اللازمة للرى حين يحين موعد مجىء سيول اخرى ٠

وفيما يتصل بوقت تهدمه(١) ، فيلاحظ ان السد لم يتهدم مرة واحدة وانما صارع عوامل الزمن والطبيعة ، وأهمال الانســان طيلة الفترة التى كان قائما فيها ، ولا ريب انه تــاثر بتلك التحولات السياسية والاقتصادية التى شهدتها اليمن قديما ، وتعرض للاهمال والكوارث الطبيعية مرارا ٠ ومن النقوش التى سجلت تهدم السد والقيام بترميمه ، نقش عثر عليه فى مارب ويعرف باسم «جام ٦٧١» ويرجع الى أواسط القرن الرابع الميلادى ، وفيه يشير «تأران بن يهنعم» وابنه «ملكى كرب يهامن» الى اصلاح ماتهدم من السد فى حوالى ثــلاثة أشهر ٠ ووصلنــا النقش الثانى من عهــد الملك «شرحبيل يعفر بن ابى كرب اسعد» التبع اليمانى وذلك بين عامى ٤٤٩ ، ٤٥٠م ، وفيه يشير الى اصلاح ماتهدم من السد من جداره ، أو قنواته واعيد بناؤه سويا ، كما كان ، وذلك فى خمسة أشهر من العمل المتواصل واشترك فى اصلاحه عشرون الف رجل ٠.

وتهدم سد مارب للمرة الثالثة فى عهد ابرهة الذى حكم اليمن بعد الغزو الحبشى واليا لنجاش الحبشة ثم حاكما مستقلا عنه ، وكان ذلك حوالى عام ٥٤٣م.وقد عمل فى اصلاح السد آنذاك عدد كبير من العمال وصرف على ترميمه اموال طائلة اشير اليها فى نقش ابرهة الذى عثر عليه قرب السد ويطلق عليه

---

(١) انظر : مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٩٩ ــ ١٠١ ٠

(المدونه ٥٤٢) وكان خبر انكسار السد قد بلغ ابرهة وهو فى احدى حملاته لاخضاع بعض القبائل الثائرة ، وعاد ابرهة ومعه من ثار عليه من القبائل واشترك الجميع فى اصلاح السد وباشراف ابرهة نفسه . وقد خلد ابرهة ذكرى هذا العمل فى نقش عثر عليه فى جلازر . ونورد فيما يلى ما جاء فى هذا النص اعتمادا على ماورد فى مؤلف الاستاذ جرجى زيدان عن العرب قبل الاسلام :

«بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ، ان ابرهة عزيز الاحباش الاكسوميين ، ملك اراخميس زبيمان ، ملك سبا وذو ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم فى نجد وتهامة ، قد نقش هذا الاثر تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشه ، عامله الذى كان قد ولاه كندة وريء ، وعينه قائدا ومعه اقيال سبا الصحاريين ، وهم مرة ونمامة وحنش ، ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون اقيال معدى كرب بن السميفع وهفان واخوته ابناء الاسلم ، فانفذ الملك اليه الجراح ذازنبور ، فقتله يزيد وهدم قصر كدار ، وحشد من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت ، وفر هجان الزمارى الى نجران . وبلغ الملك الاستصراخ ، فنهض بجنده الاحباش الحميريين الوفاء فى شهر ذو القياظ من سنة ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل اودية سبا ... فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدى القواد . وهم فى ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف فى شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فامر بالعفو ... وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والاخشاب ورصاص الصب ... لترميم السد فى مأرب ... فتوجه اولا الى مارب وصلى فى كنيستها ، ثم عمد الى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه . وعلم وهو فى ذلك أن القبائل تضايقت من العمل، ورأى اعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم : احباشهم وحميريهم ، وأذن بانصرافهم ... ورجع الملك الى مأرب بعد أن عقد تحالفا مع الاقيال الآتى ذكرهم : اكسوم ذو معاهر بن الملك ومرجزف ذو ذرناح وعبادل ذو غائش

---

(١) انظر : جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٦٩ .

[illegible] شوامن وشبمان ورعين وهمدان والكلاع ... الخ وجـاء اليه وفد [illegible] ووفد ملك الروم ورسول عن المنذر وآخر من الحارث بن جبلة ، والذين جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته فى اواخر شهر داوان ، وبعثوا [illegible] من غلة اراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ [illegible] ٤٥ ذراعا وارتفـاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر مـا انفق فيه من الحجـارة والاطعمة للعملة والحيوانات للعمل) ، واستغرق العمل فى ذلك ٥٨ يوما و ١١ شهرا ، وكان الفراغ منه فى شهر ذو معان سنة ٦٥٨ . وهذه السنة فى حساب الحميريين تعدل عام ٥٤٣ للميلاد ، لانهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد» .

أما متى تفجر سد مارب للمرة الاخيرة ، وهى الحـادثة التى ذكرها القرآن الكريم ، فلا يعلم زمانها بدقة وان كان جمهور العلماء يرى ان تلك الحادثة لابد وان تكون قد تمت بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، اى بعد عام ٥٥٠ ميلادية ، وذلك قبل ميلاد الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، بسنوات قليلة .

٣ ـ بنـــاء المـــدن :

اتخذ مكاربة سبأ من صرواح عاصمة لهم فى بادىء الامر ، وظلت قرونا طويلة عاصمة لهم ، وعنى الكثير من حكام سبأ بتشييد المعابر فيها . وتقع مدينة صرواح فى وادى صرواح الذى يكاد يكون مستذيرا ، وتحيط به المياه من كل ناحية ، وكان له سد لتخزين مياه الامطار . وتوجد المناطق الاثرية فى صرواح فى ثلاثة مناطق متقاربة واحـدة منها هى منطقة السـد وتعرف باسم «البنـاء» ، والثانية هى المنطقة المسـماة «القصر» ، والمنطقة الثالثة وتعرف باسم «الخريبة» وتوجد فيها بقايا المعـابد ، ومن اشهرها المعبـد الكبير الخاص بالاله «المقه» والذى سبقت الاشارة اليه(١) .

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجـع السابق ، ص ٥٧ ومـا بعـدها ، احمد فخرى ، احدث الاكتشافات الاثرية فى اليمن ، ص ١٥٩ ـ ١٦٢ .

سياسة سبأ الخارجية فى عهد المكاربة :

تشير العديد من النقوش السبئية الى الاهتمام بمدينة نشق وتحصينها(١) وهى مدينة معينية فى الاصل ، كانت مهمة بالنسبة لهم ، فقرروا اصلاح ماتخرب منها ، واستصلاح ارضها لاسكان السبئيين فيها ، ووسعوا فى حدودها ، واصلحوا نظم الرى فيها،ووزعوا اراضيها الزراعية على اتباعهم السبئيين . وحولوها بذلك الى مدينة سبئية . ومن هذه النقوش التى تشير الى اهتمام مكاربة سبأ بمدينة نشق ، نقش خاص بالمكرب «كرب ايل بين» ويشير فيه الى انه وسع حدود مدينة (نشق) وحصن المدينة ، واشار ابنه المكرب «ذمرعل وتر» الى انه أمر بتوسيع (نشق) واصلاح الارض المحيطة بها ، وبتحسين نظم الرى فيها ، وذلك فيما وراء الحد الذى وضعه أبوه لهذه المدينة ، وانه قد جعل ذلك وقفا على شعب سبأ .

ويشير الى توسع السبئيين ايضا نقش يرجع الى عهد المكرب «يثع امر بين» وفية يذكر انه سور وحصن قلعة (حريب) وهما من مدن قتبان(٢)» ويشير ذلك الى توسع السبئيين فى عهد المكاربة والى اتخاذهم هذه الحصون مواقع هجومية تذهب منها جيوشهم على جيرانهم الذين اصابت حكوماتهم الضعف .

ولقد ورد فى نقش خاص بالملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) انه تسلم هدايا من عدد من الملوك ، من بينهم «يثع امر» السبئى ، وذهب بعض الباحثين الى الاعتقاد بان «يثع امر» هذا كان احد الملوك السبئيين الحاكمين فى شمال جزيرة العرب على مقربة من البادية فى اعالى الحجاز ، او نجد مثلا ، أو فى الارض الواقعة فى المناطق الجنوبية من الاردن ، بينما يرى آخرون انه هو المركب السبئى الذى حكم فى الجنوب ، وهو ما يتجه اليه معظم الباحثين ، وفى هذه الحالة ، فان هذه الهدايا لا تشير الى خضوع سبأ للاشوريين ، اذ انه من المستبعد بلوغ نفوذ الاشوريين فى ذلك الوقت

---

(١) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(2) Philpy, J. B., Sheba's Daughters, p. 445.

الى اليمن ، وعلى ذلك فان هذه الهدايا تكون مجرد تعبير عن الصداقة التى كانت تربط بين آشور وسبا ، خاصة وان بين اليمن والعراق تجارة مستمرة قديمة ،ومواصلات متصلة ،فلتوطيد الصداقة بين الحكومتين وتسهيل التبادل التجارى بين العراق واليمن ارسل حكام سبا تلك الهدايا لكسب ودهم وتسهيل امور تجارتهم فى أسواق العراق ٠

٢ ـ عصر ملوك سبأ :

يبدأ عصر ملوك سبأ بالملك «كرب ايل وتر» الذى كان «مكربا» ثم لقب «ملك» كما تشير الى ذلك النقوش التى ترجع الى عهده ، ومن اهمها نقش صرواح المنقوش على الجه جدار مشيد من المرمر فى بهو المعبد الرئيسى فى صرواح ، وقد افتتح هذا النقش بجملة : «هذا ما امر بكتابته كرب ايل وتر بن ذمر على مكرب سبأ عندما صار ملكا» ٠ ويشير استخدام حكام سبأ لهذا اللقب الى زيادة صفتهم السياسية عن صفتهم الدينية ٠ وقد انتقلت الحكومة من صرواح العاصمة الاولى القديمة الى مارب العاصمة الجديدة ، حيث استقر الملوك فيها متخذين من قصر سلحين مستقرا لهم ٠

وفيما يتصل بالتحديد الزمنى لعصر ملوك سبأ ، فهناك من المؤرخين من يجعل بداية هذا العصر حوالى عام ٦٥٠ ق٠م[1] ، بينما يرجعه آخرون الى حوالى عام ٤٥٠ ق٠م ، الا ان الرأى الاول هو الارجح ٠ اما عن تحديد نهايته ، فيتجه غالبية العلماء الى تحديده بحوالى عام ١١٥ ق٠م أو ١٠٩ ق٠م ٠

وقد اختلف المؤرخون فى عدد ملوك سبأ ، فذكر «هومل» فى قائمته تسعة عشر ملكا ، وذكر «كليمان هوار» اثنا عشر ملكا ، وأورد «فلبى» اسماء خمس وعشرين ملكا ، ومن هؤلاء الملوك :

ـ سمه على ذريح

---

(١) فريتز هومل ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠
انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ ـ ٣٥٢ ٠

- الشرح بن سمه على ذريح .
- كرب ايل وتر بن سمه على ذريح .
- يدع ايل بين بن كرب ايل وتر .
- يكرب ملك وتر .
- يثع امر بين .
- كرب ايل وتر .
- سمه على ينف .
- الشرح بن سمه على ينف .
- ذمر على بين بن سمه على ينف .
- يدع ايل وتر .
- ذمر على بين بن يدع ايل وتر .
- كرب ايل وتر بن ذمر على بين .
- نشا كرب يهنعم .
- ناصر يهنعم .
- وهب آل يحز .
- كرب ايل وتر يهنعم(١) .

سياسة سبأ الداخلية فى عصر الملوك

١ - الاهتمام بالنواحى الاقتصادية :

أهتم ملوك سبأ باقامة السدود وحصر السيول وشق القنوات لاستصلاح الاراضى الصالحة للزراعة وتنظيم وسائل الرى . وفى ذلك يشير أول ملوك سبأ وهــو «كرب ايل وتر» فى نقش النصر الى شكره لالهته وثنـــائه عليها لمباركتها ارضه وارض شعبه،ووهبت أرض سبأ مطرا سال فى الاودية فأخذت الارض زخرفها بالنبات ، واذ مكنتة من انشاء السدود وحصر السيول حتى صار فى الامكان اسقاء الاراضى المرتفعة ، واحياء الاماكن التى حرمت من

---

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ - ٣٥٢ .

الماء . وكذلك احياء اراضى واسعة بانشاء سد لحصر مياه الامطار يتصل بقناة روت اراض لم تكن المياه تصل اليها ، فوصلت اليها بامتلاء حوض السد بالماء ، وبانشائه مسايل اوصلت المياه الى أراض اخرى ، كما نظم الرى ، حتى صارت المياه تسقى كل أرض . كما اشار فى نقش آخر يعرف باسم Glaser 1000B الى اقامته لخزان ماء فى وادى أذنة ، واقام مسايل للماء فوصلها الى (يسران) وانه شيد وحصن وقوى جدار ماء (بلط) وما يتفرع منه من مساق ومسايل . ويشير فى هذا النقش كذلك الى تعميره لاراض زراعية ، فى ارض (يسران) وغرسه لنباتات فيها[١] .

وورد نقش من عهد الملك «كرب ايل وتر» سجله احد كبراء القبائل بمناسبة قيامه باعمال زراعية وبامور تتعلق برى الارض مثل حفر الانهار وبناء السدود . وقد ورد فى هذا النقش اسماء الاماكن التى أجريت فيها هذه الاعمال ، وهى (اثين) و (مطرن) و (ماتم) و (ذو فنوتم) و (سمطانهان) وهى من مزارع الملك . وغوطة (ذو ضام) فى (سرو أمان) .

وقد ذكر اسم الملك«كرب ايل وتر يهنعم»فى النص المعروف بـ Jamme 563 وقد دونه أناس من (بنى عثكلان) حمدا وشكرا للاله المقه الذى انعم عليهم وحباهم بنعمه ، واعطاهم حصادا جيدا وغلة وافرة ، وليزيد فى توفيقه لهم ونعمه عليهم ، وليبعد أذى الحساد وشر الشائنين . ويوضح ذلك مدى الاهتمام بزيادة المحاصيل الزراعية .

كما جاء اسم هذا الملك فى نص آخر دونه قيه من اقيال (غيمان) معروف بـ Jamme 464 دونه عند تقديمه تمثالا للاله المقه حمدا له وشكرا على انعامه عليه وعلى جيش واقيال الملك كرب ايل وتر يهنعم ، ولانه من عليه وأعطاه حاصلا طيبا وغلة وافرة وأثمارا كثيرة ، وليمن عليه وعلى قومه فى المستقبل أيضا ، وذلك بحق المقه وبحق الالهة عشتر ... ثم يعدد النقش العديد من الآلهة السبئية[٢] .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .
(٢) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ — ١٨٨ .

٢ـ النواحى المعمارية :

العمارة الدينية : اهتم ملوك سبا باقامة معابد الآلهة وترميمها وتقديم القرابين اليها ، ومن بين النقوش التى وصلتنا وتشير الى اهتمام الملوك بترميم المعابد وزيادتها ، نقش يعرف بـ CIH 374 (١) وورد فيه «ان الشرح ابن سمه على ذريح» قد اقام جدار معبدالمقه من موضع الكتابة الى اعلاها ، ورمم ابراج هذا المعبد ، وحفر الخنادق ، ووفى بجميع نـذره الذى نذره لآلهة المقه على الوفاء به بعد أن اجاب دعاءه ، وقد استجاب الهه لسؤاله ، فيسر امره واعطاه كل ما اراد ، شـكرا له على نعمه ، وشكرا لبقية آلهة سبا ، وهى : عشتر وهبس وذات حميم ، وذات بعدن وتمجيدا لاسم والده «سمه على ذريح» أن امر بتدوين هذه الكتابة ليطلع عليها الناس .

العمارة المدنية : اشار أول ملوك سبا «كرب ايل وتر» فى نقش النصر الذى يرجع الى عهده الى بعض ما قام به من اعمال عمرانية ، فذكر أنه اتم بناء الطابق الاعلى من قصر سلحين ابتداء من الاعمدة ، والطابق الاسفل الى اعلى القصر .

وفيما يتصل بعاصمة سبأ فى عهد الملوك فكانت مارب(٢) ، وكان يحيط بها سور قـوى حصين له ابراج ، وشيد الســور بحجر البلق ، كمـا ورد فى النقش المعروف بـ Glaser 418, 419 ، واقيم السور على اساس قوى من الحجر ، وكان يوجد بالسور بابين . ومن اعظم ابنية مارب واشهرها قصر ملوكها وهو المعروف بقصر سلحين ، ومعبدها الكبير الخاص بالاله المقه . وفى الناحية الشمالية والغربية من المدينة وفى خارج اسوارها توجـد بقايا مقبرة جاهلية ، يبدو انها كانت مقبرة مارب قبل الاسلام .

٢ ـ النظم الســياسية :

توجد بعض الاشارات التى يمكن الاستـدلال منها على بعض نواحى التنظيم السياسى فى عصر ملوك سبا . ومن هذه الاشـارات ماورد فى عهد

---

(1) Philby, J. B. The Background of Islam, p. 142.

(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .

الملك «يكرب ملك وتر» وهو النقش المعروف Halevy 51 (٢) ، وقد سجل عليه تأييد هذا الملك لقانون كان قد صدر فى ايـام حكم أبيه لشعب سبأ ، وقبيلة «يوبلح» ، وهو يتصل بحقوق الارض وكيفية استغلالها واستثمارها فى مقابل ضرائب معينة تدفع الى الدولة ، وفى الواجبات المترتبة على سبأ وعلى (يهبلح) فى موضوع الخدمات العسكرية ، وتقديم الجنود لخدمة الدولة فى السلم والحرب . وقد شهد على صحة هذا القانون وأيد صدق صدوره من الملك ووافق عليه جماعة عن الاشراف وسادات القبائل المتضامنة مع سبأ . وقد ذكرت اسماؤهم بعد جملة «شهد على صحة هذا البيان ، وأيده ، ووافق على ماجاء فيه» .

يتضح من هذا النقش اهمية القبائل السياسية فى اتخاذ قرارات القوانين والموافقة عليها ، وانه كان يوجد ـ وذلك فيما يذكر استاذنا الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى ـ ما يمكن ان يطلق عليه مجلس قبائل سبأ ، وان هذا المجلس يتكون من ممثلين لاشراف كل قبيلة ويراسه الملك ، ويبدو انه لابد من موافقة هذا المجلس على ما يصدره الملك من قرارات ، وبعبارة اخرى كان هذا المجلس هو الذى يصنع سياسة الدولة بما يتفق ومصـالح القبائل الممثلة فيه .

ويؤيد ذلك نقش آخر يرجع الى عهد الملك «كرب ايل وتر» ويعرف بـ Glaser 1571 وهو يتضمن أمرا ملكيا يتصل بجباية الضرائب ، وقد شهد عليه ووقعه ممثلون عن القبائل : قبيلة ذى يفعان ،قبيلة نزحتن (نزحتان) ، وقبيلة اربعنهان ، وقبيلة فيشان ، وكبير صرواح .

السياسة الخارجية :

استمر «كرب ايل وتر» أول ملوك سبأ فى سياسة المكـاربة الخارجية ، وذلك فيما يتصل بسياسة التوسع والقضاء على الحكومات العربية الجنوبية

---

(1) Halevy, J., Rapport Sur une Mission Archeologique. dans le Yemen, J.A., VI, Paris, 1872. p. 137.

الاخرى ، أو اخضاعها لحكم سبأ ، وقد سجل فى نقشة المعروف باسم نقش النصر ماقام به من اعمال حربية ونتائج هذه الحروب، ونستطيع من دراستنا للاعمال العسكرية فى هذا النص معرفة الاتساع الذى بلغته سبأ فى عهده وماغنمه فى هذه الحروب وما أوقعه باعدائه أو المتحالفين معه • ولقد اطال فى ذكر البلاد التى فتحها ودمرها ، ويذكر انه فى حربة ضد أوزان قتل ١٦٫٠٠٠ من اعدائه وأسر ٤٠٫٠٠٠ ؛ ويقول انه استمر فى فتوحاته حتى وصل الى البحر ودانت أوزان وملكها «مارتو» لسلطانه • وبعد ان تم له اخضاع الجنوب ، اتجه ببصره نحو مدن المعينيين فاخضعها واحدة بعد اخرى ، وقبل ملوكها دفع الجزية له ، وان يكونوا من أتباعه • ويشير فى آخر النقش الى حملته على نجران • ولقد كانت حروب هذا الملك فاتحة عهد جديد فى تاريخ اليمن القديم ، واصبح ملك سبأ ، ملكا على اليمن باكملها بما فى ذلك حضرموت ونجران ، وما يسمى الآن بالمحميات ، واستمر ذلك الملك الواسع الكبير لسبأ لمدة عدة قرون(١) •

ومنذ عهد الملك «يثع امر بين» دخلت سبأ فى صراع مع قتبان ، ومما يشير الى ذلك نقش سجله كاهن الآلهة ذات غضران بمناسبة اقامته هو وافراد أسرته جدارا فى معبد الاله المقه وشكرهم لآلهة سبأ لانها انعمت عليه اذ كان قائدا عسكريا بالتوفيق فى عقد صلح بين حكومة سبأ وحكومة قتبان وذلك بعد حرب ضارية استمرت لمدة خمس سنوات ، كانت قتبان هى التى اشعلت نارها بهجومها على أرض سبأ ، وقد عهد الى هذا الكاهن والقائد بمحاربة القتبانيين والدفاع عن المملكة ، فاستطاع وقف الهجوم القتبانى واجلائهم وانتهى الامر بعقد صلح معهم ، تمكن السبئيون من استعادة اراضيهم التى احتلها القتبانيون(٢) •

ولم تنته جولات الحروب بين سبأ وقتبان عند ذلك ، فهناك العديد من

---

(١) انظر : جواد على ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ — ٢٩٩ •

(2) Halevy, J., JA, 1874, p. 548.,

Bowen, R. L., and Albright, F., Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958, p. 222.

الاشارات الى وقوع حروب بينهم بعد ذلك ، استمر بعضها سنين طويلة استغرقت عهد العديد من الملوك ، وكان لقتبان الغلبة فى بعضها حيث استولت على بعض املاك القبائل السبئية وسجلتها باسمها .

ويستدل من النص المعروف بـ Glaser 1228 أن «وهب ايل يحز» قد دخل فى صراع حربى مع الريدانيين ، وقد ساعد السبئيين فى هذه الحرب بعض القبائل ومنها مخطران ، وسخيم ، وزو خولان ، وبنوتبع بينما انضم الى جانب الريدانيين سعد شمس ، ومرثد .

ويشير نص آخر الى هـذه الحروب مع الريدانيين ، وهو يعرف بـ Jamme 561 BIS وقد سجله بعض اقيال همدان وذلك عند تقديمهم تمثالا الى الاله المقه لانه من عليهم وعلى قبيلتهم ، واغدق عليهم نعماءه واعطاهم غنائم كثيرة فى الحرب التى وقعت بين ملوك سبا وبين ذى ريدان واشتركوا فيها ، اذ ترأسوا بعض القوات وكذلك فى غاراتهم على ارض العرب المجاورين لقبيلتهم والنازليين على حدودها ، اولئك العرب الذين اخطأوا تجاه امرائهم وساداتهم ملوك سبأ ، وتجاه بعض قبائل ملك سبأ ، ولان الاله المقه انعم عليهم بـان جعل الملك «وهب ايل يحز» ملك سبـأ راضيا عنهم ، مقربا لهم .

ويتبين من هذا النقش ان هؤلاء الاقيال من قبيلة همدان كانوا فى خدمة ملك سبأ ، وانهم قد استركوا مع ملك سبأ «وهب ايل يحز» فى تكبيد بنى ذى ريدان خسائر فادحة فى الحرب التى نشبت بينهم وبين هـذا الملك كما يتبين من هذا النقش كذلك أن أرض همدان قد تعرضت لغارات الاعراب ، وقد نجحوا فى تاديبهم .

وقد وردت أولى الاشارات عن الاعراب وغاراتهم على السبئيين وقوافلهم من عهد الملك «نشا كرب يهنعم» ، وقد دون هذا النص بعض الافراد من قبيلة بنى آل الجميل العرج وهم من كبراء قبيلة يدع ، وذلك حمدا للاله المقة الذى اجاب نداءهم واغاثهم ومن عليهم وعلى بيتهم سلحين فى الجميل وحماهم من الغارة التى أمر بها الملك «نشا كرب يهنعم» على

(أرض عربى) ، اى أرض الاعراب لانقاذ اصدقائهم واهليهم فى مأرب ، وكذلك الجنود والحيوانات التى كانت معهم واعادتهم الى مأرب ٠

ويتضح من هذا النص أن اعراب البادية كانوا قد اغاروا على جماعة من السبئيين ، أو أنهم هاجموا ارض سبأ ، فارسل الملك السبئى «نشأ كرب يهنعم» قوة من الجيش ومن الاهالى للاغارة عليهم فى مضاربهم (أرض العرب) ولاسترجاع ما أخذوه من غنائم واسلاب واسرى ، وقد رجعت الحملة سالمة ٠ ومن الواضح أن (ارض عربن) تشير هنا الى اعراب البادية المتنقلون الرحل والذين لم يكن لهم موطنا محددا ولا اسما معينا ، وذلك بعكس القبائل المستقرة فى اليمن والتى كانت تذكر باسماء قبائلها ومواطنها(١) ٠

٣ ـ دولة سبأ وذى ريدان :

اتخذ ملوك سبأ فى هذا العهد لقب جديد وهو «ملوك سبأ وذى ريدان» وذلك اشارة الى ضم ذى ريدان الى مملكة سبأ ٠ الا انه لا يمكن الجزم بذلك ، فقد ظل للريدانيين كيانهم الى جانب دولة سبأ ، مما قد يرجح فيما يرى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى أن ذلك يعنى تحالفا بين سبأ وقبائلها وكيان ذى ريدان وحمير ٠

وقد اختلف المؤرخون حول بداية هذا العهد ، فيتجه اغلب العلماء الى أن ذلك كان حوالى عام ١١٨ أو ١١٥ أو ١٠٩ ق٠م ، الا أن البعض يتجه الى الاعتقاد بأن ذلك اللقب لم يظهر الا فى أواخر القرن الاول قبل الميلاد(٢)٠

وتتميز هذه المرحلة من الناحية الداخلية بالاضطراب وعدم الاستقرار وكثرة الحروب الداخلية ، وأدى ذلك الى تهدم المدن وتخريب القرى وعدم الاهتمام بوسائل الرى مما حول الكثير من الاراضى الزراعية الى صحارى مجدبة ٠ وتوجد من هذا العصر الكثير من النصوص التى يتوسل فيها الاهالى الى الآلهة بأن تمن عليهم بنعمة الطمانينة والهدوء والاستقرار ،

---

(١) أنظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٥٠

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ وما بعدها ٠

وكان من نتائج هذه الحروب انتشار الاوبئة والامراض التى كانت تفتك بالناس بالجملة .

وأول ملوك هذا العصر هو «الشرح يحضب» ، وتشير النقوش المتبقية من عهده أنه كان مقاتلا خاض العديد من الحروب حتى قبل ان يصبح ملكا، استمرت الحروب للتنافس على العرش بينه وبين «شمر» وهو من حمير ، ولقد تدخل الاحباش فى هذا الصراع الداخلى ، ولم تكن لهم سياسة ثابتة ، فقد كانوا يغيرون سياستهم تبعا للاحوال المتغيرة،فنزاهم مرة مع الحميريين وتارة عليهم ، وكان ذلك نتيجة للاحوال القلقة المضطربة التى كانت تتحكم فى العربية الجنوبية آنذاك ، ولمصالح الحبش الذين كانوا يريدون تثبيت اقدامهم فى السواحل العربية المقابلة وتوسيع رقعة ما يملكونه باستمرار .

وينسب الى الشرح يحضب تشييد قصر غمدان فى صنعاء ، وقد ذكر هذا القصر فى نصوصه مع قصر سلحين ، وقد يشير ذلك الى اقامته فى القصرين وحكم منهما . وقد لمع اسم (صنعو) اى (صنعاء) فى ايام الشرح يحضب ، وهى لابد أن تكون قد بنيت قبل عهده ، وكان لتشييده قصره فيها أثره فى زيادة مكانتها ، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام .

ومن الناحية الخارجية ، فلقد تعرضت سبأ خلال هذا العهد للحملة الرومانية التى قام بها اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق.م، وذلك بهدف الاستيلاء على اليمن للسيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها السبئيون ، فقد تمكنت بحكم موقعها من التحكم فى نقل السلع الآتية من الهند وأفريقيا الشرقية الى الشمال ، وذلك بالاضافة الى تصدير ماتنتجه بلاد الجنوب العربى من محاصيل الى الشمال ، ومثلت هذه التجارة والطرق التجارية مصدر ثروة اليمن(١) .

واعتمد اليوس جالوس فى حملته على مساعدة الانباط له ، الا أن الحملة فشلت فشلا ذريعا ، ولم تحقق أغراضها ، اذ تعرضت للامراض

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

والاوبئة والجـوع والعطش ووعورة الطرق ، ولقـد وصف سترابو(1) الذى يبدو أنه قد رافق الحملة ، ما تعرضت له الحملة وصفا دقيقا ، الا انه ألقى بتبعة فشل الحملة على كاهل الوزير النبطى «صالح» الذى رافق الحملة وعمل دليـلا لهـا .

وكان لفشل الحملة اثره فى عزوف الرومان عن السيطرة على بلاد العرب بطريق القوة ، واقتصروا على محـاولة السيطرة على التجـارة البرية ، وتدعيم مصالحهم التجارية عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات فى الجنوب العربى .

دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت :

يبدأ هذا العهد من حوالى عـام ٣٠٠ ويستمر حتى عام ٥٢٥ ويشـير اتخاذ الملوك لهذا الاسم على ان دولة سبأ وذى ريدان اصبحت تضم اليها حضرموت وكـذلك يمنت ، وهى فى رأى غالبية العلمـاء تشـمل المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد العرب ، من باب المندب وحتى حضرموت .

وأول ملوك هـذه الدولة هو «شمر يهرعش» ولقد نسـب اليه القيام بالكثير من الفتوحات فى العـديد من البلدان ، حتى قيل انه وصـل حتى الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر ، ومن الواضح أن ذلك نوعا من المبـالغة ، اذ لا تثبت الادلة النصية والاثرية فى منطقة الشرق الادنى القديم حدوث مثل هذا العمل ، ولكن يبدو ان هذه المبالغة ترجع الى قيامه بالعديد من الفتوح فى جنوب بلاد العرب ، مما دعا الاخباريين العرب الى المبالغة فى أمر فتوحاته .

وبعد وفاته تمكن الاحباش من احتـلال اليمن فى سنة ٣٤٠م ، واخذ نجاش الحبشة لقب «ملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وصلح وتهامة والبجاء وكسو» ، وربما كان هذا الاحتلال الحبشى لليمن راجعا فى

---

(1) Strbo, XVI, 23-24.

المقام الاول للعوامل الاقتصادية ، وذلك لحماية التجارة الحبشية كرد فعل للغزو الذى قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة(١) .

ونظرا لحدوث بعض الثورات فى المناطق الافريقية لملك الحبشة وانشغال الاحباش بالقضاء على هذه الثورات ، فلقد انتهز اليمنيون الفرصة وطردوا الاحباش من اليمن وذلك فيما بين عامى ٣٧٠ ، ٣٧٨م .

وكان لاعتناق آخر ملوك سبأ «ذو نواس» الدين اليهودى ومحاولته فرضه بالقوة على شعبه ، واضطهاده للمسيحيين، اثره فى تشجيع الاثيوبيين على غزو اليمن واحتلالها عام ٥٢٥م وذلك بتشجيع من الدولة البيزنطية .

وأدت هذه الاحوال المضطربة الى توقف التجارة العالمية التى اشتهر بها عرب الجنوب وكان مصدر ثرائهم وازدهارهم ورخائهم ، ويضاف الى ذلك تصدع سد مارب مما ادى الى ضعف هذه المنطقة ضعفا شديدا ،وفى عام ٥٧٥م تمكن الفرس من احتلال اليمن ، وظل اليمن خاضعا لهم حتى ظهور الفتوحات الاسلامية الكبرى فى القرن السابع الميلادى التى انهت دولتهم(٢).

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٥٣٠ وما بعدها .

الفصل الثامن

مكـــة المكرمـــة

مكـــة المكرمـــة

تعتبر مكة المكرمة من أهم مواضع الحضر فى الحجاز على الاطلاق • ويتسم مناخها بقسوته ، اذ تشرف عليها جبال جرد ، وليس بها ماء ، غير ماء زمزم•لذلك لم تصلح أرض مكة لان تكون ارضا ذات نخيل وزرع وحب، ونتيجة لذلك فقد اعتمد سكانها على التعيش مما يكسبونه من الحجاج ، بالاضافة الى العمل بالتجارة • وتتميز مكة بموقعها الجغرافى ، اذ تتجمع بها القوافل التى ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام ، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية ، ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل السفر وفائدته ، فعملوا بالتجارة ، ثم احتكروا التجارة فى العربية الغربية وسيطروا على حركة النقل فى الطرق المهمة التى تربط اليمن ببلاد الشام والعراق وذلك فى القرن السادس م •

هذا ولم يرد اسم مكة فى كتابات الجاهلية ، أما الموارد التاريخية المكتوبة باللغات الاعجمية ، فقة جاء فى كتاب (جغرافيا) لبطليموس الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى ، اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا) ، وقد ذهب الباحثون الى أن المدينة المذكورة هى (مكة)[1] • واذا كان هذا الرأى صحيحا يكون (بطليموس) أول من أشار اليها من المؤلفين وأقدمهم• كذلك ذهب بعض الباحثين الى أن المعبد الشهير الذى ذكره (ديودور الصقلى) فى أرض قبيلة عربية دعاها (Bizomeni) وقال أنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة ، وان كان هناك من يعارض هذا الرأى استنادا الى أن الموضع الذى يقع المعبد فيه ، هو موضع بعيد عن مكة بعدا كبيرا • أما الاخباريون فانهم لم يشيروا الى هذا الاسم الذى ذكره (بطليموس) ، ولا الى اسم آخر قريب منه ، وانما اشاروا الى اسم آخر هو

---

(1) Ptolemy, Geographia, VI. 1, 32.

(بكة) . وقد ذكر هـذا الاسـم فى القرآن . قالـوا انه اسم مكة ابـدلت فيه الميم بـاء . وقد اتجه بعض الاخبـاريين الى القـول ان المقصـود بـ (بكة) بطن مكة ، وذهب آخرون ان بكة موضع البيت ، ومكة ماوراءه ، وقال فريق ثالث ان البيت هو مكة وما والاه بكة(١) . وقد عرفت مكة عند الاخباريين أيضا بأسماء أخرى منها : صلاح ، لامنها ، ومنها ام رحم ، وذكرت فى القرآن الكريم بـ(أم القرى) .

ويختلف المؤرخون فى اشتقاق كلمة (مكة) ، فـذهب فريق منهم الى انها انما سميت كذلك لانها تتمك الجبارين ، اى تذهب نخوتهم ، وذهب فريق ثان الى أنها انما تقع بين جبلين مرتفعين عليها ، وهى فى هبطة بمنزلة المكـوك ، وذهب فريق ثالث الى أن الكلمة مشتقة من (امتك) من قولهم : أمتك الفعييل ضرع أمه ، اذا مصه مصا شديدا ، ولما كانت مكة مكانا مقدسا للعبادة ، فقـد امتكت ، أى جذبتهم من جميـع الاطراف . وهناك من يرجح أن الاسم انما أخذ من لغة الجنوب ، مستندا الى البيت الحرام ، فمكة أو (مكرب) فى رأى هـذا الفريق ـ كلمة يمنية مكونة من «مك» و «رب» ومك بمعنى بيت ، فتكون مكرب بمعنى «بيت الرب» أو «بيت الاله» ومن هذه الكلمة اخذت مكة ، أو بكة ـ بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب(٢) .

وفيما يتصل بتاريخ مكة فقد ذهب بعض الاخباريين الى أن (العماليق) كانوا قد انتشروا فى البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ،وعتوا عتوا كبيرا ، فبعث اليهم موسى جنـدا فقتلوهم بالحجاز . وجـاء اليهود فاستـوطنوا الحجاز بعد العماليق ثم جاءت (جرهم) فنزلت على (قطورا) أسفل مكة ـ وكان عليها يومئذ (السميدع بن هوثر) ، ثم لحق بجرهم بقية من قومهم باليمن وعليهم (مضـاض بن عمز) فنزلوا بـ«قعيقعـان» باعلى مكة ، ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا ، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع) .

---

(١) ياقوت الحموى (شهاب الدين ابو عبد الله) ، معجم البلدان ، الجزء الخامس ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص١٨٢ .
(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، جـ ١ ص ٣٣ .

وجرهم قوم من اليمن قحطانيون ، جدهم هو ابن (يقطن بن عامر) وهم بنوعم (يعرب) وكانوا باليمن وتكلموا بالعربية ثم غادروها فجاءوا مكة . ومن جرهم تزوج سيدنا (اسماعيل بن ابراهيم) وكانت هاجر قد جاءت به الى مكة ، فلما شب وكبر وتعلم لغة جرهم وتكلم بها ، تزوج امرأة أولى قالوا ان اسمها (جرا) ثم طلقها وتزوج بامرأة اخرى هى السيدة بنت (الحارث بن مضاض) . وعاش نسله فى جرهم ، والامر على البيت لجرهم الى ان تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة) وهم خزاعة ، فانتزعت منها الملك وزحزحتها ، واقامت عمرو بن لحى ـ وهو منها ـ ملكا عليها ، وظلت خزاعة صاحبة مكة ، الى ان كانت ايام عمرو بن الحارث وهو (ابو غبشان) فانتزع قصى منه الملك واخذه من خزاعة لقريش . وكان (عمرو ابن لحى) أول من نصب الاوثان وادخل عبادة الاصنام الى العرب ، بعد ان كان اسماعيل بن النبى ابراهيم ـ عليه السلام ـ يدعو الناس فى مكة ومجاوراتها الى عابدة الله(1) .

ويعد (عمرو بن لحى) أول رجل يصل الينا خبره من الرجل الذين كان لهم أثر فى تكوين مكة وفى انشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لها . حتى صار لهذه المدينة شان عند القبائل المجاورة وذلك لاتيانه بأصنام نحتت نحتا جيدا بأيد فنية قديرة ، وعلى رأسها الصنم (هبل) ووضعها فى البيت ، فجلب بذلك انظار أهل مكة وانظار القبائل المجاورة نحوها ، فصارت تقبل عليها ، وبذلك كون للبيت شهرة بين الاعراب ، فصاروا يقدمون علية للتقرب الى (هبل) والى بقية الاصنام التى جاء بها من الخارج فوضعها حوله وفى جوفه .

والجدير بالذكر أن تاريخ مكة حتى ظهور قصى بن كلاب غامض غموضا شديدا ولا سيما فى عصوره الجاهلية القديمة وذلك لعدم وجود نصوص أثرية تعين الباحث على استنباط تاريخ قائم على أسس علمية ، ولذا فان تاريخ مكة يعتمد فى هذه الفترة على روايات الأخباريين المتناقضة

---

(1) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٣٩٤ ـ ٤٠٠ .

المتضاربة و (قصى بن كلاب) هذا من قريش ، وقريش كلها من نسل رجل اسمه فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فهى من القبائل العدنانية ، اى من مجموعة العرب المستعربة فى اصطلاح علماء النسب ، و (قصى) كان زعيم قريش ومكة بامرها ثم أورثت الى أولاده من بعده ، فصارت قريش بذلك صاحبة مكة .
وقد اشتهرت قريش بالتجارة ، وبها عرفت وذاع صيتها بين القبائل ، وتمكن رجالها من الاتصال بالدول الكبرى فى ذلك العهد : الفرس والروم والحبشة ، وحكومة الحيرة والغساسنة وبسادات القبائل وتكوين علاقات طيبة معها ، كما تمكنوا من عقد احلاف مع سادات القبائل ضمنت لهم السير طوال أيام السنة بهدوء وطمانينة فى كل انحاء الجزيرة فنشروا تاجرتهم فى جميع ربوعها . وقد علمت الاسفار سادة قريش امورا كثيرة من أمور الحضارة والثقافة ، فقد جعلتهم يشاهدون بلادا غريبة ذات تقدم وحضارة، وجعلتهم يحتكون بعرب العراق وبعرب بلاد الشام ، فتعلموا من الحيرة اصول كتابتهم ، وهذبوا لسانهم ، ودونوا به امورهم . وقد علمت الطبيعة أهل مكة انهم لا يتمكنون من كسب المال ومن تامين رزقهم فى هذا الوادى الجاف ، الا اذا عاشوا هادئين مسالمين ، يدفعون الاساءة بالحسنة ، فصار التاجر والبائع والمشترى يفد على سوق مكة ، يبيع ويشترى بكل حرية ، لانه فى بلد آمن ، اخذ سادته على انفسهم عهدا بالا يتعدى احد منهم على غريب — لان الاضرار به يبعد الغرباء عنهم — وبذلك تحرم مكة من التجارة التى هى أساس حياتها . وقد اصطلحت قريش على أن تاخذ ممن ينزل عليها فى الجاهلية حقا ، دعته (حق قريش) ، وفى جملة ما كانوا يأخذونه من الغريب القادم اليهم بعض ثيابه أو بعض بدنته التى ينحر .

وقد تمكنت قريش فى نهاية القرن السادس وبفضل نشاطها التجارى أن تصبح من أهم المراكز المرموقة فى العربية الغربية فى التجارة ، وفى اقراض المال للمحتاج اليه ، كما تمكنت من تنظيم امورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة .

أما عن (قصى بن كلاب) فقد قام بعدة اصلاحات فى مكة ، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين فى نواحى متعددة الى وادى مكة ، جعل لكل بطن

حيا خاصا به على مقربة من الكعبة ، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة ، ويدفعـون عنه الخطر ، ومن ثم فانه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش ، الا بمقدار مـا يسمح للناس بالطواف ، وان كان اهم اعماله انما هو انشاؤه (دار الندوة) حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل امر قريش ـ ما ارادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح ، فما كان لرجل ولا لامرأة ان يتزوج الا فيها ، وماكان لفتاة من قريش أن تدرع الا فيها ، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده ، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم اذا بلغن الحلم ، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش ـ ذكورا كانوا أم اناثا ـ واما اعضاء دار الندوة ، هذه ، فكانوا جميعا من ولد قصى ، وبعضـا من غيرهم ، على شريطة أن يكون الواحد منهم قـد بلغ الاربعين من عمره ، أو كان من ذوى القدرات الخاصة · وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة فى آن واحد ، يديرها الملأ من القوم ـ الذين كانوا يشبهون الى حد ما اعضاء مجلس الشيـوخ الاثينى ، ويتكونون من رؤساء العشـائر واصحاب الراى والحكمة فيهم للنظر فيما يعترض القوم من صعاب(١) ·

وكان قصى شديد العناية بعمارة البيت الحرام ، الـذى يزعم البعض نه أعاد بناءه ، ومن ثم فهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش،ثم سقفها بخشب الدوم وجريد النخل ، كما كان أول من اظهر الحجر الاسود بعد ان دفنته (اياد) فى جبال مكة ، ثم أوكل امره من بعده الى جماعة من قريش ، حتى اعاد القوم بناء الكعبة عام ٦٠٦م (٣٥ ق·هـ) فوضعوه فى ركن البيت بازاء باب الكعبة فى آخر الشرقى(٢) ·

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة (سـدانة الكعبة) ـ وهى خدمة البيت الحرام ـ من أهم الوظائف فى عهده ، والامر كـذلك بالنسبة

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ٣٣٤ ، اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) ، تـاريخ اليعقـوبى ، الجزء الاول ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠ ·

(٢) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٣٦٦ ·

الى وظيفة «السقاية» بخاصة فى بلد شحت مياهه فى وقت كان يستقبل فيه اكثر مما يطيق من الحجيج ، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار البيت الحرام،حتى ييسر لهم مهمة الحج ، ويجعل الاقبال عليه كبيرا ، ومن ثم يذهب الاخباريون الى أن قصيا قد حفر بئرا اسماها «العجول» ، وكانت (الرفادة) ـ وهى خرج تدفعه قريش من أموالها الى قصى ليصنع منه طعاما للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة ـ من الوظائف الهامة التى ظهرت فى مكة على أيام قصى . وتروى المصادر العربية أن قصيا قال لقومه : «انكم جيران الله واهل بيته وأهل الحرم ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدوا عنكم» ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من اموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى» ، فجرى الامر على ذلك فى الجاهلية والاسلام ، واخيرا كان من اعمال قصى «اللواء» وهى رئاسة الجيش فى الحروب ـ ويسند لمن بيده اللواء ، يسلمونه اليه عند قيام الحرب . وتجمع المصادر الاسلامية على أن مولانا وسيدنا رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد ألغى جميع هذه المناصب يوم فتح مكة ، الا سقاية الحاج وسدانة الكعبة . ويجمع المؤرخون على أن قصيا انما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعا حتى وفاته ، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع فى قومه ، لايخالف ولا يرد عليه شىء أقره ، ولعله فى جمعه لرياسة الندرة وعقده اللواء وجمعه الرفادة ، يقابل فى اصطلاحاتنا الحديثة ، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية ـ أن جاز هذا التعبير(١) .

ولعل هذا هو الذى دفع «الاب هنرى لامانس» الى القول ، بان مكة انما كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية،وقد يكون لشخصية (قصى) الفذة تاثير فى ذلك ، الا أن تنظيمات قريش لم تكن فى واقع الامر ، الا تنظيما قبليا فى جوهره،وان بدا فى ظاهره تنظيما جمهوريا،لان الزعيم لم يكن يحمل لقبا معينا ، فضلا عن أن هناك من الادلة ما يشير الى أن العشيرة انما كانت تتمتع بحرية كاملة ، ولا تخضع لسلطان غيرها فى كثير من

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

الاحايين ، بل أن كثيرا من الافراد انما كانوا يخرجـون على رأى العشيرة نفسها ، ومن النوع الاول عدم مشاركة بنى زهرة لقريش فى موقعة بدر ، رغم موافقتها على القتال وخروجها اليه ، بل ان بنى عـدى لم يخرجوا للقتال اصلا ، ومن النوع الثانى خروج أبو لهب على رأى بنى هاشـم ، وانضمامه الى بقية بطون قريش فى مقاطعتها لبنى هاشم ، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش ، رغم تضامنه مع بنى هاشم ، هذا الى جانب أن العشيرة انما كانت تخرج احيانا على رأى مجلس القبيلة ، ومثال ذلك اجتماع بنى هاشم والمطلب على حماية المصـطفى – ﷺ – ومواجهة قريش . ويرى الدكتور طه حسين ، أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاما من نظم الحكم التى يعرفها الناس ، فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهـورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ايضا ، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها ، وانما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص قبائل البادية ، فهى منقسمة الى احياء وبطون وفصائل . والتنافس بين هـذه جميعا قد يشتد حينا ويلين حينا آخر ، ولكنه لا يصل الى الخصومات الدامية ، كما هو الحال فى البادية ، وأمور الحكم ، تجرى كما تجرى فى البادية ; وكل ما وصلت اليه قريش من التطور فى شئون الحكم هو انها لم يكن سيد أو شيخ يرجع اليه فيما يشكل من الامر ، وانما كان لها سادة أو شيوخ يتكون منهم مجلس يجتمع فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة(1) .

اما قانون أهل مكة ودستورهم فهو : (أنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) . فهم محافظون حريصون على كل ما وصل اليهم ، لا يريدون له تغييرا ولا تبديلا ، مهما بدا لهم فى الجديد من منطق وحق ، فملأ مكة اناس محافظون لا يقبلون تجديدا و لاتطـويرا ، سنتهم التعلق بالماضى وكره الثورة والخروج عن العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . أما المستهين بالعرف المخالف

---

(1) انظر فى ذلك :
محمد بيرمى مهران ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

لسنة الآباء والاجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه . وهم باستماتتهم فى التمسك بالماضى كيف كان ، ويتطرفهم فى المحافظة على العرف،انما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد المحافظة على مصالحها ، استنادا الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد .

ومن الناحية المعمارية فقد طرأ تغيير فى نظام بيوت مكة فى هذا العهد، فقد اصبحت بيوت اثريائها وساداتها مقامة بالحجر ، وبها عدد من الغرف، ولها باباب متقابلان ، باب يدخل منه الداخل ، وباب يقابله يخرج منه الخارج ، ولعلها بنيت على هذا الوضع لتتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر عند وجود ضيوف فى رحبة الدار عند الباب المقابل ، وكان لبعض الدور (حجر) عند باب البيت يجلس تحته ليستظل به من اشعة الشمس . هذا ولم تعمر بطن مكة ولم تبن البيوت المستقرة فيه الا منذ ايام (قصى) أما قبل ذلك فقد كان الناس يسكنون (الظواهر) : ظواهر مكة ، اى اطرافها وهى مواضع مرتفعة تكون سفوح الجبال والمرتفعات المحيطة بالمدينة ، أما باطن مكة وهو الوادى الذى فية البيت ، فقد كان حرما آمنا لا بيوت فيه ، أو أن بيوته كانت قليلة حصرت بسدنة البيت وبمن كانت له علاقة بخدمته ، لذلك بنيت فيه الشجر حتى غطت سطح الوادى ، من السيول التى كانت تسيل اليه من الجبال .

ولما مات (قصى) دفن (بالحجون) وقد كان القوم يزورون قبره ويعظمونه ، والحجون جبل باعلى مكة ، كان أهل مكة يدفنون موتاهم فيه، فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة ، وقد ذكر فى شعر جاهلى .

هذا وقد أنجب (قصى) ثلاثة ابناء – عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى – ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته ، الا أن عبد مناف كان أكثر شهرة ، وأرفع شأنا واعظم مهابة ، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة ، فاسند اليه كثيرا من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه القوية ، ومن هذه الوظائف أنه جعل له دار الندوة والحجابة

(أى حجابة الكعبة واللواء ، فكان يعقد لقريش الويتهم ، وسقاية الحجيج والرفادة . وما أن تمضى الايـام ويرث الابناء الآباء ، حتى يقـوم النزاع بينهم ، وينتهى ذلك بان يتولى عبد المناف السقاية والرفادة ، أما الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة فقد ظلت فى بنو عبد الدار[1] . وتولى هاشم بن عبد المناف السقاية والرفادة ، وقد ذكرت رواية الاخباريين أن اسمه (عمرو) وهو أكبر ابناء عبد مناف ، وقد قيل له هاشم ، لانه أول من هشم الثريد لقومه بمكة وأطعمه . وذكر أن قـوما من قريش كانت قـد اصابتهم لزبة وقحط ، فرحل الى فلسطين فاشترى منها الدقيق ، وقـدم به الى مكة ، وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس او وارد عليه[2] .

كذلك يـذكر الاخباريون أنه هـو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف ، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه انه أول من سنهـا . وقد قام (هاشم بن عبد المناف) بحفر بئرا عرفت بـ(بـذر) ، وبئرا آخر يقال لها بئر (جبير بن مطعم) فيسر بذلك لمكة الماء ، وساعد على أكثاره عندهم ، واخذ (هاشم) عهدا على نفسه بان يسقى الحجاج ويكفيهم بالماء ، قربة الى رب البيت ما دام حيا .

ومن أعظم المآثر التى تنسب (لهاشم بن عبد المناف) أنه عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع امير غسان ، معاهدة حضـن جوار ومودة ، وحصل من الامبراطور الرومانى على الاذن لقريش بان تجوب الشام فى أمن وطمانينة ، وقد ذكران تاجرته قد وصـلت الى (غزة) وربمـا توغل نحو الشمال ، حتى زعم أهل الاخبار انه ربما بلغ (أنقرة)[3] .

---

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ .

(٢) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الثانى ، ص ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

(٣) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) تاريخ اليعقوبى ، الجزء الاول ،، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ .

وينسب كذلك الى (هاشم بن عبد المناف) ايلاف قريش والمقصود بالايلاف عهود ومواثيق مع سادات القبائل فى مقابل اسهامهم باموالهم وبحمايتهم لقوافل قريش فى مقابل ضرائب معينة تدفع لهم ، وسهاما من الارباح تؤدي لهم ، مع اعطائهم رؤوس اموالهم وما ربحته فى الاسواق ، وبذلك كسبت قريش حياد هذه القبائل ودفاعها من المصالح . كذلك فقد عقد نوفل والمطلب حلفا مع فارس ، ومعاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن . ويذهب الاخباريون الى أن هاشما وعبد شمس توأمان ، وان احدهما ولد قبل الآخر واصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنحيت فسال الدم ، فقيل يكون بينهما دم ، ومن ثم فانهم يرون أن امية بن عبد شمس قد حسد هاشما على رياسته واطعامه فتكلف أن يصنع مثله ، ولكنه قد عجز ، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش وتنافر هو وهاشم ، وانتهى الامر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك اول خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية ، وفى الواقع كما يقول الاستاذ العقاد ، فلقد كان بنو هاشم اصحاب عقيدة واريحية ووسامة، وكان بنو امية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء، وينعقد الاجماع – أو مايشبه الاجماع – على اخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الاسرتين ، وبقي الكثير منها الى ما بعد قيام الدولة الاموية فلم يفتقدوه .

وورث عبد المطلب زعامة ابيه هاشم ، واسم عبد المطلب هو (شيبة) وقد عرف بين الناس بعبد المطلب ، لان عمة (المطلب) لما حمله من يثرب الى مكة ، كان يقول للناس ، هذا عبدى ، أو عبد لى ، فسمى من ثم بعبد المطلب ، وشاعت بين قومه من أهل مكة حتى طغت على اسمه ، وقيل انه عرف بين أهل مكة بـ(شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له ، وكان يقال له (الفياض) لجوده ، و (مطعم طير السماء) لانه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش على رؤوس الجبال . هذا وقد تولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فاقامها للناس ، واقام لقومه ماكان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه احد من أبائه ، وأحبه قومه ، وعظم أمره فيهم . وفى الواقع ان عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب، وانما كان عظيما كذلك فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية،

ومن ثم فان المؤرخين يرون انه قد ذهب الى اليمن مهنئا بالملك ، عندما تولى «معد يكرب» (سيف بن ذى يزن) عرش اليمن ، بعد أن نجح بمساعدة الفرس فى طرد الاحباش من اليمن ، مما يدل على ان الرجل كان ذو مكانة عند ملوك العرب ، تعطية الحق فى الاتصال بهم ، ثم تهنئتهم بعروشهم ، كما يدل فى الوقت نفسه على مكانته عند قريش ، حتى انه كان رئيسا لوفدها فى هذه المهمات العظيمة ، والتى ربما كان من نتائجها ان يأخذ ايلافا لقومه من ملوك اليمن ، ومن ثم فقد اصبحت قريش تنظم عيرا الى اليمن فى كل عام[1] .

هذا وتذهب المصادر العربية الى ان عبد المطلب قد لقى الكثير من المتاعب فى توفير المياه للحجيج عندما تولى امر السقاية والرفادة ، وذلك بسبب دفن زمزم ، ربما منذ ايام جرهم ، وزاد الامر صعوبة أن مكة كانت آنذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الامطار وجفت مياه الآبار ـ أو كادت ـ فى وقت كان موسم الحج قد بدت طلائعه ، وهنا رأى عبد المطلب ـ فيما يرى النائم ـ انه يؤمر بحفر طيبة ، وحين يسال عنها لا يتلقى جوابا . غير ان الرواية تتكرر اياما ثلاثة ، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر «برة» ثم (المضنونة) ثم (زمزم) ، وحين يسال عبد المطلب عن (زمزم) يجيبه «الهاتف» تراث من ابيك الاعظم ، لا تنزف ابدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الاعظم ، وهى بين الغرث والدم ، عند نقرة الغراب الاعظم عند قرية النمل وينجح عبد المطلب فى حفر زمزم ، غير ان قريشا سرعان ما تطلب بحقها فى زمزم ، على اساس انها بئر ابيهم اساعيل ، وان انتهت الامور الى جانب عبد المطلب[2] .

هذا وقد تميز عبد المطلب ـ جد النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ باريحة لا نستطيع ان تسميها الا بالمطلبية ، أريحة فريدة فى نوعها ، لا تدل الا علية ولا تصدر الا منه ، وكانت كلها مزيجا من الانفة والكرم والرصانة

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر واناة ، وذكر عنه انه كان يامر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الاخلاق ، وينهاهم عن دنيات الامور ، وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وان وراء هذه الدار دارا اخرى يجزى فيها المحسن باحسانه ، ويعاقب المسىء باسائته ، ويقال انه رفض فى آخر عمره عبادة الاصنام ووحد الله .

وروى عنه أنه وضع سننا وردت فيما بعد فى القرآن الكريم واقرتها سنة النبى - ﷺ - منها الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا ، وان لا يطوف بالبيت عريان ، وذكر انه كان أول من سن دية النفس مئة من الابل ، وكانت الدية قبل ذلك عشرا من الابل ،فجرت فى قريش والعرب مئة من الابل واقرها رسول الله على ما كانت عليه . والجدير بالذكر ان عبد المطلب لم يكن اغنى رجل فى قريش ، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع كما كان قصى ، اذ كان فى مكة رجال كانوا اكثر منه مالا وسلطانا ، انما كان وجيه قومه ، لانه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم ، فهى وجاهة ذات صلة بالبيت . ويروى أهل الاخبار أن عبد المطلب كان قد نذر : لئن اكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ان يذبح احدهم . فلما تكاملوا عشرة ، هم بذبح احدهم ، فضرب بالقداح فخرج القداح على عبد الله ، ولكن القوم منعوه ، ثم اشاروا عليه بأن يرضى الله بنحر ابل فدية عنه ، وكان كلما ضرب القداح يخرج على عبد الله حتى بلغ العدد مئة فخرج على الابل ، فنحرها بين الصفا والمروة ،وتركها فى الفضاء لكل من يريد لحمها من انسى أو وحش أو طير(١) .

وتعد حملة (ابرهة الحبشى) من أهم الاحداث التى وقعت فى حياة عبد المطلب ، وقد أرخت قريش بوقوعها ، وصارت الحملة مبدأ التاريخ ، لاهميتها بالنسبة لمكة ، وقد تركت اثرا كبيرا فى نفوس قريش ، بدليل تذكير القرآن الكريم لهم بما حل بـ(أصحاب الفيل) . وقد اشار عبد المطلب على قومه بالتحرز بشعاب الجبل ، وبترك البيت وشانه لان للبيت ربا يحميه ، وبعدم التحرش بالحبش وتركهم وشانهم ، والظاهر أنه وجد ان عدد

---

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .

الاحباش كان كبيرا وان من غير الممكن مقاومتهم والدفاع عن مكة فى الوادى، ثم انها حرم آمن لا يجوز القتال فيه ، وليس فيها حصون وآطام يتحصن بها ، لهذا رأى ضرورة الرحيل عن الوادى والاحتماء برؤوس الجبال والاشراف منها على الدروب والطرق ، فذلك انفع واحمى للمال والنفس ، ثم انه من الممكن مباغتة الحبش منها ومهاجمتهم وانزال الخسائر بهم حين يشاؤون ويقررون ، وقد نجحت فكرة عبد المطلب ، ولم يصب أهل مكة بسوء أما البيت الحرام فقد حماه الله من اصحاب الفيل وهلكوا جميعا .

ومات عبد المطلب بعد ان جاوز الثمانين وكان ذلك فى حوالى عام ٥٧٨م ، وقد دفن بالحجون وذكر انه لم يقم بمكة سوق اياما كثيرة لوفاة عبد المطلب ، ومن ولد عبد المطلب : عبد الله وهو والد الرسول ، وأبو طالب والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة وبرة وأميمة .

ولم يكن ولد عبد المطلب من رجال مكة الاثرياء ، وكل ما كان عندهم ثراء روحى ، استمدوه من أسم (قصى) وهاشم - فكانوا من وجهاء القوم من هذه الناحية ، أما من ناحية المادة والمال فلم يكونوا من السباقين فيه ، لقد كانوا وسطا ، وكانوا تجارا يخرجون بتجارتهم على عادة فيهم الى بلاد الشام ، أو الى اليمن ، فيبيعون ويشترون ، وقد توفى (عبد الله) وهو فى طريقه من غزة الى مكة .

وتعد (ايام الفجار) من الحوادث المؤثرة فى تاريخ مكة ، وقد سميت بذلك لانها كانت فى الاشهر الحرم ، ويعد (فجار البراض) الذى وقع بعد عشرين سنة من عام الفيل هو اعظم ايام الفجار ، وقد اطلق عليه ايضا (يوم نخلة) ، وكان البراض قد قدم باللطيمة الى مكة ، فأكلها وهى لطيمة (النعمان بن المنذر) ، التى وضع النعمان زمامها بيد (عروة بن عتبة الرحال) وكان سمى بالرحال لرحلته الى الملوك ، فكان ذلك مما أهاج الحرب ، وقد رأس قريش حرب بن أمية ، وكان موضعه فى القلب ، وعبد الله بن جدعان فى الميمنة ، وهشام بن المغيرة فى الميسرة ، والتقوا بـ«نخلة» فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجن عليهم الليل ، فكان اليوم

لهوازن • ثم رأس (الزبير بن عبد المطلب) بنى هاشم ، وكان فى جملة من شهد (حلف الفضول) فى دار (عبد الله بن جدعان) •

وحلف الفضول من الاحداث الهامة التى يذكرها أهل السير والاخبار فى تاريخ مكة ، واذا صح ما يذكرونه من انه عقد بعد الفجار بشهور ، وفى السنة التى وقع فيها الفجار الذى حضره الرسول (فجار البراض) ومن ان الرسول حضره وهو ابن عشرين سنة ، فيجب ان يكون عقد هذا الحلف قد تم فى حوالى السنة ٥٩٠م ، ويذكر ان الذى دعا اليه هو الزبير بن عبد المطلب •

وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم ، وذكر انهم تعاهدوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه • وفى التآسى فى المعاش ، كذلك تحالفوا الا يظلم احد بمكة الا قاموا معه حتى ترد ظلامته•

أما عن سبب تسمية هذا الحلف (بحلف الفضول) فقد ذكر البعض انه سمى بذلك لانهم تحالفوا ان يتركوا عند احد فضلا يظلمه احدا الا اخذوه له منه ، وذهب آخرون الى انه سمى بذلك الاسم تشبيها بحلف كان قديما بمكة ايام جرهم على التناصف والاخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن ، وسمى حلف الفضول ، لانه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل ، فقيل حلف الفضول جميعا لاسماء هؤلاء ، وذكر انه سمى حلف الفضول ، لان قريشا قالت هذا فضول من الحلف ، فسمى حلف الفضول •

وقد ذكر الاخباريون ان هدف هذا الحلف انصاف المظلومين من أهل مكة ، من الضعفاء والمساكين ومن لا يجد له عونا يحميه ويدافع عن حقوقه ، وانصاف الغرباء الوافدين على مكة من حجاج أو تجار ، ممن يعتدى عليهم فيأخذ أموالهم ويأكلها ولا يدفع لاصحابها عنها شيئا ، ويعتقد أن هذا الحلف استمر قائما الى وقت ما فى الاسلام ، ثم فقد بعد ذلك قيمته ، فمات• فورد انه كان بين (الحسين بن على بن ابى طالب) وبين (الوليد بن عتبة بن ابى سفيان) منازعة فى مال متعلق بالحسين ، فماطله الوليد • (فقال الحسين للوليد : احلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لاقومن

بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لادعون لحلف الفضول ، فلما بلغ ذاك الوليد بن عتبة انصف الحسين منحقه) • وتدخل مكة بعد ذلك فى طور جديد ببداية دعوة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم الى عبادة الاله الواحد الاحد ونبذ عبادة الاصنام(1) ،

---

(١) انظر عن حلف الفضول :

عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ابن كثير ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ ، اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، ص ١٧ وما بعدها •

الفصل التاسع

المـــدينة المنـــورة

المـــدينة المنـــورة

كان تعرف المدينة المنورة قبل هجرة النبى سيدنا محمـد عليه أفضل الصلاة والسلام باسم (يثرب) .وتعددت الاشارات التى ظهر فيها هذا الاسم، واقدم اشارة لدينا وردت فى النصوص البابلية التى ترجع الى القرن السادس ق.م ، وقد ورد فيها قيام ذلك البابلى نبونيت (٥٥٥ ــ ٥٣٩ ق.م) بحملة الى بلاد العرب احتل فيها بعض المدن ومنها «اتريبو» وهى «يثرب» .

وقد ورد اسم «يثرب» فى جغرافية بطليموس تحت اسم «يثربه»[١] ، وعرفها الاخباريون باسم «أثرب» و «يثرب» ورأوا أنه نسبة الى «يثرب ابن قانيه من ولد سام بن نوح» ، بينما رأى آخرون انها نسبة الى «يثرب» ابن قائد بن عبيل .

ولقد ورد اسمها فى القرآن الكريم «المدينة» وفى ذلك قوله جل من علا فى سورة التوبة (الآية ١٢٠) «ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسم عن نفسة»[٢] . ويتجه البعض الى القول بأن هذا الاسم مأخوذ من الكلمة الآرامية «مدينتا» .

ولقد كثرت اسماء المدينة فى العصر الاسلامى ، ومن أهم هذه الاسماء التى عرفت بها المدينة و يثرب و طيبة و العاصمة و المبـاركة و المختارة و المقدسة و قرية الانصار و سيـدة البلدان و دار الهجرة و بيت الرسول ومدينة الرسول[٣] .

وفيما يتصل بالتتبع التاريخى لتاريخ «المدينة» فان اعتمادنا بالدرجة الاولى يقع على روايات الاخباريين ، وذلك نظرا لعدم وجود أدلة أثرية أو

---

(1) Ptolemy, VI, 7, 31.

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٠ .

(٣) انظر : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق، ص ٣٣١ ــ ٣٣٤ .

نصية ترجع الى تاريخها القديم ، وذلك نظرا لعدم القيام بحفريات علمية فى هذه المنطقة ، وعلى ذلك فـانه تجدر الاشـارة الى طبيعة المعلـومات المـتقاة من روايات الاخبـاريين وضرورة توخى الحذر فيما تقـدمه من معلومات • وقد عثر فى بعض الامـاكن القريبة من «يثرب» على كتابات جاهلية لم تعرف طبيعتها ، وذلك نظرا لعدم دراستها دراسة علمية حتى الآن •

وتشبه «يثرب» «مكة» فى كونها محرومة من الحماية الطبيعية ، فلم يكن يحيط بها سور أو حائط أو خندق يدفع المغيرين عليها ، ومن ثم فقد كان أهلها يدافعون عن أنفسهم بالتحصن فى بيوتهم وبسد منافذ الطرق أثناء الخطر • أما الاغنياء الموسرون فكانوا يعتمدون على آطامهم وحصونهم وقصورهم ، يلجأون اليها عند الشدة ، ويرمون أعداءهم من فوق السطوح بالسهام والحجارة ، وقد تحارب الاوس والخزرج على الآطـام ، وأرخوا بتلك الحرب ، فعرفت باسم «عام الآطام» •

ويلاحظ أن جو يثرب الطف من جو مكة ، ولم يعانى أهلها ما عانى اهل مكة من قحط فى الماء ، فالماء متوافر بعض الشىء فى المدينة ، وهو غير بعيد عن سطح الارض ، ومن الممكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ولهـذا صار فى امكان أهلها زرع النخيل واقامة البساتين والحدائق(١) •

وحسب المعلومات المتاحة لنا فانه يمكن القاء الضوء على عناصر السكان الذين سكنوا المدينة وذلك حسبما ورد فى روايات الاخباريين الذين يذكرون أنه تتابع على سكن المدينة العماليق ثم اليهود ثم العرب •

وفيما يتصل بالعماليق فيرجعون بنسبهم الى «عملاق بن أرفخشد بن سام» وينسبون لهم انهم أول من زرع النخيل بالمدينة وأول من شيدوا فيها المبانى واتخذوا الضياع(٢)

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٩ •
(٢) ياقوت الحموى ، المرجع السابق ، الجزء الخامس ، ص ٨٤ (مادة مدينة) •

أما عن اليهود فتعددت رواياتهم وتباينت تباينا كبيرا ، فترى بعض الروايات ان وجودهم يرجع الى ايام سيدنا موسى عليه السلام الذى بعث جيشه الى سكان هذه المدينة من العماليق وامرهم بقتل جميع سكانها ، وأنه لامر ما بقى هذا الجيش فى المدينة ، وكانوا اول من سكنها من اليهود ، الا ان هذاالرأى لا يحالفه التوفيق الى حد بعيد • وتذهب رواية ثانية الى أن موسى عليه السلام قد حج الى بيت الله الحرام ومعه بعض من بنى اسرائيل، وعند عودتهم وجدوا فى موضع المدينة أوصاف بلد النبى المذكور عندهم فى التوراة بانه خاتم النبيين ، وعلى ذلك فقد اقاموا فى مكان سوق بنى قينقاع، وكانوا هم أول من سكن المدينة وهو أمر عار من الحقيقة كذلك •

وتتجه بعض الآراء الى أن اليهود قد قدموا الى المدينة فى عهد «داود عليه السلام» (١٠٠٠ ــ ٩٦٠ ق•م) وذلك نتيجة الانقسام الذى حدث بين داود وابنه ابشالوم ، وهذه الرواية تحريف لما جاء فى التوراة عن الاحداث التى ذكرتها عن اخريات أيام داود(١) •

وهناك من يجعل هذا الوجود فى القرن الثامن قبل الميلاد بعد سقوط السامرة فى ايدى الاشوريين وذلك اعتمادا على ماقسام به الاشوريون من تهجير عناصر السكان الى أماكن متفرقة من بلاد الشام والعراق وفارس ، الا أنه يقف فى وجه هذا الرأى عدم وجود اشارة فى التوراة أو فى النصوص الاشورية الى تهجير اليهود من السامرة الى يثرب(٢) •

ويرى البعض أن هجرة اليهود قد تمت فى القرن السادس قبل الميلاد بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل على يد «نبوخذ نصر» وابعاد كثير من اليهود الى بابل وهو ما عرف «بالسبى البابلى»(٣) ، ففى تلك الاثناء فر كثير من اليهود الى مصر بعد مقتل نائب «نبوخذ نصر» فى أورشليم، وترى هذه الروايات أن بعضهم قد فر الى يثرب ولكن لا توجد أى اشارة الى ذلك•

---

(١) ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص ٩٧ •
(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ ــ ٤٤٧ •
(3) Dozy, R., Die Israeliten zu Mekka, 1864, p. 135.

وترجع الادلة التاريخية أن وجود اليهود في يثرب انما يرجع الى القرنين الاول والثانى بعد الميلاد(١) ، ومما يؤيد هذا الاتجاه المناخ السياسى الموجود فى تلك الفترة ، وذلك بعد نجاح الرومان فى السيطرة على الشام ومصر فى القرنين الاول والثانى الميلاديين ، ففر الكثير من اليهود الى بلاد العرب ، وكانت اكبر الهجرات اليهودية بعد عام ٧٠م وذلك فى أعقاب الثورة اليهودية ضد الرومان وقيام الرومان بالقضاء عليها بعنف شديد ، فدمروا المدينة المقدسة وتم احراق المعبد اليهودى ، وكان من نتيجة ذلك فرار مجموعات كبيرة من السكان الى بلاد العرب ، حيث وصل بعضهم الى يثرب ، وتتابعت الهجرات اليهودية فى النصف الاول من القرن الثانى الميلادى نتيجة ثورة اليهود على أيام هادريان ، وكان من نتيجتها القضاء تماما على اليهود ككيان سياسى فى فلسطين ، فهاجر كثير منهم الى بلاد العرب حيث وصل بعضهم الى يثرب . وهم الذين كونوا الجالية اليهودية فى شمال الحجاز وفى يثرب بصفة خاصة ، وزاد عددهم بمرور الزمن حتى كان معظم السكان من اليهود عند ظهور الاسلام ، وتركز اليهود فى ثلاث قبائل رئيسية هى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وذلك بجانب بطون وعشائر يهودية أخرى .

ويتجه معظم المؤرخين الى القول بأن يهود بلاد العرب انما هم من يهود فلسطين ، وعلى أنه يجب الا يفهم من ذلك ان جميعهم من أصل يهودى ، فهناك الكثير من العرب المتهودين ، ويشير الى ذلك أسماءها العربية الاصيلة ومنها بعض من الاوس والخزرج وبنى الحارث وقوم من غسان .

وفيما يتصل بوجود العرب فيرى الاخباريون أن القبائل العربية من الاوس والخزرج أخوان ، فهما ابناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الظريف بن امرىء القيس

---

(١) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء السادس ، ص ٥١٤ .

البطويق بن ثعلبة بن مازن بن الازد» الذى ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان . ويرى بعض الباحثين ان كلمة (الاوس) هى اختصار لجملة (اوس مناة) ، والاوس هو جد الاوس ، اما (مناة) فهو صنم من أصنام الجاهلية ، وينقسم الاوس الى عدة بطون ، منها : عوف ، والنبيت ، وجشم ، ومرة ، وامرؤ القيس . اما الخزرج ، فهم اخوة الاوس ـ كما سبق القول ـ وهم ينقسمون ايضا الى عدة بطون ، من اشهرها : بنو النجار ، والحارث ، وجشم ، وعوف ، وكعب ، ويلاحظ ان جشما وعوفا هما اسما بطنين من بطون الاوس .

وترى هذه المصادر أنهم قد هاجروا من اليمن الى يثرب بعد تعرض سد مارب لسيل العرم ، ولا يمكن تحديد زمن هذه الهجرة على وجه التحديد نظرا لتعرض سد مارب للتهدم عدة مرات . وان كانت الروايات العربية تشير الى أن هذه الهجرة قد حدثت فى القرن الرابع قبل الهجرة(١).

وكانت هناك أسباب أخرى بجانب تهدم سد مارب ادت الى هجرة هذه القبائل الى شمال الجزيرة العربية ومنها ضعف الحكومة فى اليمن وظهور المشاحنات الدينية بين القبائل والتدخلات الخارجية فى شئون اليمن الداخلية ، وادى كل ذلك الى اضطراب الامن فى البلاد ، وزاد الامر سوءا تحول الطرق التجارية ، ولم تعد اليمن صاحبة السيادة عليها ، كما لم تعد الوسيط الوحيد فى نقل التجارة الى المناطق الشمالية ، وأدى ذلك الى كساد الاحوال الاقتصادية(٢) ، وهكذا كان للاحوال الاقتصادية والسياسية اثرها الكبير فى دفع العديد من القبائل العربية الى الهجرة الى شمال الجزيرة العربية .

ولقد اقام الاوس والخزرج فى المدينة بجانب اليهود الذين سمحوا لهم بالاقامة بجوارهم للاستفادة من خبراتهم فى مجال الزراعة والتجارة ، وعاش

(١) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(٢) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الاول، ص ٢٤٦ .

الاوس والخزرج فى ضيق من العيش ، فى أول الامر ، لعـدم قدرتهم على مجابهة اليهود ، الا أنهم بمرور الزمن أخذوا يتطلعون الى وضع اقتصادى أفضل ، وكانت وسيلتهم فى ذلك اما مشاركة اليهود فى تملك الاراضى الخصبة أو الاستيلاء عليها منهم(١) .

ويذهب بعض الباحثين الى الاعتقـاد بأن تطلع الاوس والخزرج الى مشاركة اليهود والتغلب عليهم انما يرتبط بالاحداث الدولية حينئذ ، ويرون أن الدولة البيزنطية كانت هى المحركة لهذه الاحداث ضد اليهود ، فهى التى قضت على اليهودية فى اليمن بعد حملة أبرهة ، ثم دفعت بالغسـاسنة الى التدخل فى شئون يثرب ، ومناصرة الاوس والخزرج ضد اليهود .

ومن جهة أخرى ، فان هناك من الباحثين من يعارض هذا الاتـجاه ، ويرى أن النزاع كان محليا بين العرب واليهود ، وأن مرجعه الى الظروف الاقتصادية واعتماد السكان على استثمار الاراضى الزراعية ، ويعتمدون فى ذلك على بعض الحجج التى لعل من أهمها هو استمرار الصراع بين الاوس والخزرج انفسهم بعد تغلبهم على اليهود ، واشتراك كل طوائف المدينة فيه تبعا لمصلحتها الاقتصادية ، وهو ما سنشير اليه .

وانتهى الصراع ما بين الاوس والخزرج واليهود بغلبة الاوس والخزرج وأصبح لهم كيان سياسى بارز فى يثرب يفوق ما كان لليهود ، وكان لذلك أثره فى قيام التنافس والصراع بين الاوس والخزرج .

فقد كـان للتنافس على الزعـامة فى يثرب أثره فى وجـود مشاحنات بينهما ، وزاد من هذه المشاحنات رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند اليهود ، وزاد النيران اشتعالا موقف اليهود الذين أخذوا فى الايقاع بينهما ، واثارة الاحقاد والضغائن بينهم ، واشتعلت نيران الحروب بينهما لاقل الاسباب ، وكان معظمها غير ذى بال .

وأول حرب وقعت بين الاوس والخزرج ـ حسب رواية الاخباريين ـ

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٤٦٠ .

هى حرب «سمير»(١) وحسب هذه الرواية ، فان سميرا وهو من الأوس ، شتم رجلا أسمه كعب بن العجلان ، كان ضيفا على مالك بن العجلان رئيس الخزرج ، ثم مالبث سمير أن قتل كعب،ونشبت الحرب بين الاوس والخزرج لاختلافهما حول دية كعب ، وانتهى الامر الى احتكامهم الى «المنذر بن حرام» الخزرجى ، وهو جد حسان بن ثابت ، الذى قضى بينهما ، وانتهت الحرب بينهما ، الا أنها تركت ندوبا فى النفوس قلما تندمل ، فتمكنت العداوة منهما وتعددت الحروب ٠

ومن هذه الحروب التى دارت لاسباب لا قيمة لها ، وما كانت لتقع لولا هذه العصبية الضيقة التى يثيرها فى الغالب افراد لا منازل كبيرة لهم فى المجتمع ، فاذا وقع على أحدهم اعتداء ، نادى قومه للاخذ بثاره ، فتثور الحرب ، حرب يوم السراره ، وحرب بنى وائل بن زيد الاوسيين ، وبنى مازن بن النجار الخزرجيين ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، وحرب الفجار لاولى ٠

وكان آخر الحروب التى وقعت بين الاوس والخزرج هى الحرب المعروفة باسم «يوم بعاث»(٢) وقد حدثت قبل الهجرة بخمسة أعوام ٠ وفى هذه الحرب حاولت كل من الاوس والخزرج استمالة البطون اليهودية اليها ، فتحالفت الاوس مع بنو قريظة والنضير وبنى مزينة ، أما الخزرج فقد تحالفوا مع بنى أشجع وبنى جهينة ٠

ونشبت الحرب بين الفريقين عند حصن يدعى «بعاث» وانهزم الاوس فى اليوم الاول ، غير أن موازين الحرب تغيرت نتيجة لمقتل قائد الخزرج ، فانتهز الاوس الفرصة ، وهزموا الخزرج شر هزيمة ، فاخذوا يقتلون

---

(١) انظر عن هذه الحرب :
ابن الاثير ، المرجع السابق ، ص ٦٥٨ - ٦٦٢ ، جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ ٠

(٢) انظر :
ابن خلدون ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن الاثير ، المرجع السابق ، ص ٦٨٠ - ٦٨٤ ٠

رجالهم ويحرقون منازلهم وبساتينهم ، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة سوى خشية الاوس من استعادة اليهود لمكانتهم السابقة ، بعد أن وضحت نياتهم فى اذلال الخزرج ونهب أموالهم ، ومن ثم فقد اكتفى الاوس بالقضاء على روح التسلط فى الخزرج ٠

وقد أضعفت هذه الحرب بطون يثرب كلها ، وأضعفت فيهم روح العداوه والحقد فى النفوس ، وان ظلت البذور موجودة ، حتى شرفت المدينة بقدوم سيد الخلق سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فامرهما بالكف عن العداء ، ووجههما وجهة أخرى أنستهما الخصومة العنيفة التى كانت فيما بينهما ٠ ونظرا لمساعدة أهل يثرب للرسول عليه الصلاة والسلام ومناصرتهم له وللمهاجرين ، فقد عرف الاوس والخزرج فى الاسلام بـ(الانصار) ، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية ، حتى غلبت عليهم،وصارت فى منزلة النسب ٠

الفصل العاشر

الانبــــــــاط

الأنبـــــــــــاط

تعد دولة الانباط التى قامت على الاطراف الخارجية لمنطقة فلسطين فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد من اهم الدويلات التى قامت على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الاحمر الى اطراف سوريا وفلسطين والعراق ، وقد اتخذت من البتراء عاصمة لها(١) .

وقـد بلغت دولة الانباط اقصى اتساعها الجغرافى إيام ملكها «حارثة الرابع» فى أواخر القرن الاول قبل الميلاد والنصف الاول من القرن الاول الميلادى ، اذ ضمت منطقة واسعة الى جنوب البتراء بلغت حتى حـدود العلا ، وكان وجودها واضحا فى منطقة النقب ، ومن الشمال وصلت اقصاها بضم دمشق ، وهذا الاتســاع فى معظمه سياسى وتجارى . فمن النــاحية السياسية كان التوسع ناحية الشمال أسهل لانهم لم يجدوا مقاومة تصدهم عنها ، ومن الناحية التجارية كان يمثل المكان الذى تتجه اليه السلع الآتية من الجنوب ، فهو الاتجاه الطبيعى الذى لابـد من تامينه ، وربما يكون ذلك السبب وراء عدم اتجاههم فى بـداية تاريخهم للسيطرة على المناطق الجنوبية ، لان الامتـداد نحو الجنوب لم يكن يمثل أهمية لهم فى هـذه المرحلة أو ربما كان راجعا الى وجود قبائل قوية رأوا من مصلحتهم حينئذ أن لا يستثيروا عداوتها . وتعويضا عن ذلك قاموا بتوسيع رقعتهم فى المنطقة الساحلية عند العقبة ، أما الامتداد جنوبا فلم يتجاوز الحوراء على الساحل وتيماء والحجر فى الداخل(٢) .

وبعد تامينهم للمنطقة الساحلية استولوا على المنطقة المعروفة اليوم باسم شرق الاردن حتى بلغوا حـدود مادبا الى الشـمال ، وأن كانوا قد

---

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٦ .

(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٠٢ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

اتجهوا الى ماوراءها بعد ذلك • وحين اتسعت تجارة القوافل النبطية كان من الضرورى لهم تامين الطرق التجـارية التى تذهب من البتراء مخترقة النقب الى غزة أو العريش • ومن ثم عملوا على الاستيلاء على النقب كله لتامين طرقهم التجارية من ناحية واستغلاله فى الزراعة من ناحية أخرى •

وعلى ذلك فان المناطق التى شملها الامتداد النبطى كانت ثلاث مناطق رئيسية أنشاوا لهم فيها مراكز ومواقـع استيطانية تعد بالمئـات ، وهذه المناطق هى :

١ ـ منطقة النقب وكانت أهم مراكزهم فيها عبـده وكرنب ونصتان وخلصـــه •

٢ ـ منطقة جنوبى سوريا وكانت اهم المراكز فيها ـ بالاضـافة الى بصرى ـ هى سيعاء والسويداء •

٣ ـ المنطقة الواقعة شرقى نهر الاردن وتمتد جنوبا لتشمل جانبا من شمال الحجاز ، وبالاضـافة الى البتراء أهم مـركز نبطى فى هذه المنطقة فانها تحتوى على أكبر نسبة من المراكز النبطية ومنها موقع ذبيان ووادى روم وهو يقع عند نهاية شرق الاردن وبداية الجزيرة العربية ، ومن أهم المنشآت النبطية فى هذه المنطقة معبد لا يزال فى حالة جيدة نسبيا •

وفيما يتصل بالتسمية ، فهناك من الباحثين من يربط بين كلمة «نبط» ولفظة «نبايوت» التى وردت فى العهد القديم كاسم للابن البكر لاسماعيل، ومن الباحثين من قرنها بلفظة «النبياتيين» و «النبايتى» التى وردت فى نصوص الملك العراقى تجلات بلاسر الثالث ، ثم فى نصوص أسرحدون ، ومن بعد ذلك فى نصوص الملك أشور بانيبال •

وفيما يتصل بالمصـادر التى نعتمـد عليها فى دراسة التطور السياسى والحضارى لدولة الانباط ، فمن أهمها المصادر الاثرية وكتابات المؤرخين والرحالة اليونان والرومان ، وما سجله المؤرخ اليهودى «يوسفوس فلافيوس ٣٧ ـ ١م» ، وسنتناول هذه المصادر بشىء من التفصيل فيما يلى :

أولا المصادر الاثرية :

بدات الجهود الاثرية الجادة تاخذ طريقها فى المواقع النبطية من عام ١٩٢٩ ، حينما قامت بعثة برئاسة جورج هورسفيلد بالعمل فى موقع البتراء، وتتابعت بعد ذلك البعثات ، فتمكن البرايت من الكشف عن «معلاة كونواى» علم ١٩٣٤ وعن خزنة فرعون وقبر الجرة وقبر الجندى الرومانى عام ١٩٣٦ · ومنذ عام ١٩٥٤ بدات دائرة الآثار الاردنية بالقيام باعمال حفظ وصيانة الآثار النبطية وكذلك عمليات الكشف المستمرة فى هذه المواقع مما كان له الاثر الكبير فى الكشف عن الكثير من الادلة الاثرية التى اماطت اللثام عن تاريخ وحضارة الانباط ·

ومن أهم هذه المكتشفات الاثرية ما كشف عنه من نقوش استدل منها على نوع كتابتهم ولغتهم وأسماء الاعلام الشائعة بينهم ، وأسماء الآلهة التى عبدوها ، وأسماء عدد من ملوكهم وملكاتهم ، وبعض شعائرهم الدينية وغير ذلك من الامور ·

ويمكن ان نميز فى نقوشهم النماذج التالية :

١ ـ نقوش تذكارية قصيرة كالتى وجدت فى البتراء والحجر وسيناء ·

٢ ـ نقوش مدونة نصب المقابر ·

٣ ـ نقوش معمارية يذكر فيها اسم المبنى والذى قام بتشييده وتاريخ البناء ، وفى بعض الاحيان لا يكتب اسم المبنى اذا كان بناء شهيراً ·

٤ ـ نقوش وقفية يذكر فيها اسم واهب الوقف والشىء الموقوف وأسم المعبود الذى قدم اليه الوقف ·

٥ ـ نقوش تمثل توقيعات البنائين او توقيعات تدل على الملكية ·

٦ ـ نقوش تكرميه وهى نادرة عند الانباط ·

ومن الواضح أن هذه النقوش على كثرتها لاتتحدث عن احداث تاريخية، ومن ثم تنحصر الاستفادة منها فى معرفة أسماء الاعلام والآلهة والمبانى ،

وعلى ذلك يستعين المؤرخ بالمصادر الاثرية الاخرى كالمسكوكات وبقايا المقابر والتماثيل والرسوم والمصنوعات المختلفة ٠

ثانيا ـ المصادر اليونانية والرومانية :

من أهم المؤرخين اليونان والرومان الذين كتبوا عن الانباط نذكر كلا من ديودور الصقلى واسترابو ، ولقد اعتمد ديودور الصقلى فيما كتبه عن الانبــاط على مصــدر معاصر للانبــاط فى القرن الرابع قبل الميــلاد وهو «هيرونيموس القاردياثى Hicronymus of Cardia » ، ويرجع الفضل لهذا المؤرخ فى اماطة اللثام عن تاريخ الانباط فى هذه الفترة المبكرة(١) ٠

وأما استرابو فقد اعتمد فى كتابته عن الانباط على بعض المصادر والتى من أهمها ماكتبه صديقين له أحدهما هو «أثنودور الطرسوسى Athenodorus of Tarsus» المتفلســف الرواقى الذى ولد وعــاش فى البتراء وخبر حياة أهلها وعاداتهم ومعتقداتهم ٠ اما الآخر فهو ايليوس جالوس الذى قاد حملة الى اليمن ايام أوكتفيان ورافقه فيها استرابو ٠

ثالثا ـ المصــادر اليهودية :

أشار يوسفوس فلافيوس فى كتابية حروب اليهود ، وآثار اليهود الى الكثير من المعلومات الخاصة بالانبــاط وذلك من خلال عــلاقاتهم بالدولة المكابية سلما كانت تلك العلاقة أم حربا ٠ وهو متعصب كثيرا للمكابيين ، ولهذا فقد يكون حديثه عن الانباط فى لحظات صراعهم مع الدولة اليهودية مشمولا بالهوى ، وثمة جانب غير مأمون فيما يقصه من أخبار وأحداث ، وذلك أنه ينصب من نفسه مفسرا للوقائع ، فيحجب بتفسيره حقيقة الرواية التى قد تتحمل ـ لو رويت على وجهها ـ تفسيرا آخر أو تفسيرات أخرى ، هذا الى أنه كثيرا ما يقع فى الخطأ والتضارب والتشويه ، ويخلط الشائعة بالحقيقة التــاريخية ٠

وقد اختلف المؤرخون فى الموطن الاصلى للانباط ، فذهب فريق منهم

---

(1) Diodorus, 19, 94, 1-100.

الى أنهم من أهل العـراق ، وانهم قد هاجـروا من العراق الى (ادوم) ، وذهب فريق آخر الى انهم عراقيـون اتى بهم «نبوخـذ نصر» فى القرن الـسادس قبل الميلاد عندما اكتسح فلسطين ، فانزلهم «البتراء» ومجاوراتها ، وذهب فريق ثالث الى أنهم من جبل شمر فى أواسط بلاد العرب ، ثم سرعان ما نزحوا الى العراق وظلوا بها ، حتى دهمهم الاشوريون فاخرجوهم من هنـــــاك .

والثابت أن الانباط الاوائل هم من سـكان العراق ، اذ ورد ذكرهم فى آثار اشور منـذ القرن السابع قبل الميـلاد على أيام اشوربانيبال . وهـذا يفسر كيف أن العرب عندما عرفوا الانباط لاول مرة كان ذلك فى بطـائح العراق حيث يكثر الماء حتى قالوا : «وسمى نبط السواد نبطا ، لاستنباطهم المياه وسقيهم الانهار» . هذا وقد دخل الانباط فى نطاق العرب عن طريق اتخاذهم للثقافة الارامية واصطناعهم لكتابة ولغة الاراميين ، ويرجع ذلك الى انها كـانت اللغة الشـائعة فى ذلك العصر ، بل انهـا اصبحت لغة المراسلات الدولية فى الشرق الادنى القديم منذ حوالى عام ٥٠٠ ق.م ، كما اصبحت اللغة التى يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب ـ وكذا الانباط ـ كما انها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد .

فعندما بدأ الانباط يعملون بالتجارة ، ولم يعودوا نقلة لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم اكتشفوا حاجتهم الماسة الى الكتابة ، وكانت اللغة السائدة فى كل أنواع المعاملات والسفارات فى بلاد الشرق الادنى حينئذ هى الارامية ، فكتبوا بها ، وظلوا يستعملون لغتهم العربية فى حياتهم اليومية فيما بينهم . وقد كان اختيارهم للارامية ضرورة حضارية ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها فى مكاتباتهم ، وظلت هى لغـة الكتابة بعـد أن سقطت دولتهم لمدة مائتى سنة .

ويتبين من اقدم الاخبار الواردة فى كتابات المؤرخين اليونان والرومان أن النبط كانوا فى بادىء أمرهم اعرابا ورعـاة ماشية ، وفى ذلك يقـول ديودور الصـقلى .

«لقد آلوا على أنفسهم الا يبذروا حبا ، ولا يغرسوا شجرا يؤتى ثمرا ، ولا يعاقروا خمرا ، ولا يشيدوا بيتا ، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت وهم يلتزمون بهذه المبادىء لانهم يعتقدون ان من تملك شيئا استمرأ ما ملك وعز عليه التخلى عنه واضطر من اجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت» .

ومع ذلك فانهم ـ فيما يبدو ـ لم يقنعوا بتربية الابل والماشية ولم يقتصروا على حياة الرعى ، بل كانوا قد تميزوا عن كثير من البدو ، بالاقبال على حياة التجارة شراء وبيعا ، وعلى القيام بدور الوسطاء فى دنيا البيع والشراء حتى عرفوا بالثراء(١) ، وهذا ما يؤكده قول ديودور الصقلى :

«ثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعى لقطعانها ، ولكن الانباط يفوقون الجميع بثرائهم» .

أما اقدم ما وصلنا من أخبار عن الانباط فهو ما ذكره (ديودور الصقلى) من أن «انتيجونوس» الذى خلف الاسكندر فى سورية قد جرد حملة على النبط قوامها اربعة آلاف جندى من المشاة ليجبرهم على التحالف معه وتاييد مصالحه ، وكان ذلك فى عام ٣١٢ ق٠م ، وسار قائد هؤلاء الجنود وباغت الصخرة (أم البيارة) فى منتصف الليل ، فقتل من حاول المقاومة وأسر خلقا منهم ، وترك الجرحى ، واستولى على ماوقعت عليه يده من البخور والتوابل والفضة ، ثم أمر قواته بالاسراع بالرجوع ، فلما قطعت مسافة ، أضناها التعب ، واضطرت الى الاستراحة فى معسكر اقامته ، وفيما كان الجنود ينعمون بنومهم ، هاجمهم النبط وأعملوا فيهم السيوف ، فلم ينج من رجال الحملة الا خمسون فارسا هربوا بسلام ، ثم كتبوا الى الملك من جانب النبط عادوا الى الصخرة ونظموا أمورهم ، ثم كتبوا الى الملك «انتيجونوس» كتابا بالسريانية يلومون فيه قائد الحملة التى بعثها الملك على ما فعل بهم ، ويعتذرون فيه عما بدر منهم ، وقد أجابهم الملك بأن ما حدث انما كان بغير علم منه ، وأن قائده قد تصرف برأيه ، ثم يختم

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، ص ١٠ ٠

رسالته باعلان صداقته لهم ، بينما كان في واقع الامر ، انما يعد لجولة جديدة قد يهىء لها من الاسباب ما يكفل لها النجاح . وهكذا ما أن يمضى وقت طويل حتى يرسل اليهم ولده «ديمتريوس» على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة . ويبدو أن الانباط انما كانوا يتوقعون الخيانة من «انتيجونوس»، ومن ثم فقد كانوا فى حيطة من أمرهم، فامنوا أموالهم فى مواضع حصينة لا تصل اليها أيدى الطغاة الطامعين ، ثم تفرقوا فى الصحراء وهكذا ما أن وصل «ديمتريوس» الى الصخرة (أم البيارة) حتى هاجمها بعنف وشراسة ، الا أن محاولته هذه لم يكتب لها نصيب من النجاح ، ومن ثم فقد عاد بخفى حنين ، قانعا بما قدمه اليه الانباط من هدايا(١) .

ومن المعروف أن البطالمة قد طمعوا فى دولة الانباط بسبب موقعها كمحطة تجارية هامة ، وبسبب خيراتها الوفيرة ، ومن ثم فقد اهتموا بالسيطرة على البحر الاحمر من أجل تامين تجارتهم فى بونت والهند . فلقد كانت سفن الهند تفرغ بضائعها فى بلاد اليمن ومن هناك كانت تنقل شمالا بطريق البحر الاحمر أو بالطريق البرى الى أيلة ثم الى بترا . وفى عهد بطليموس الثانى (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق.م) ونتيجة لتحرش الانباط بسفن البطالمة ومهاجمة سفنهم المتجهة الى مصر واخذ ما فيها ـ قام بانشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية ، وقد الحقت هذه القوة خسائر فادحة باسطول النبط ، وادت سياسة بطليموس الرامية الى السيطرة على البحر الاحمر ، واعادة فتح القناة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الاحمر ـ الى الحاق خسائر فادحة بالنسبة للانباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التى كانت تمر ببلادهم ، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة على السفن الذاهبة أو الآتية من مصر(٢) .

وفيما يتصل بملوك الانباط ، فيختلف المؤرخون حول ترتيبهم ، ويزيد

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(2) Strabo, III, p. 402.

من صعوبة هذا الامر وجود العديد من الفجوات التى لايوجد مايملأها ، ومن اهم هؤلاء الملوك :

الحـــارث الأول :

هو أول ملوك الانباط ، عرف اسمه ، وهو اسم كثير الشيوع فى اسماء الاعلام ، ولما كان هو أول من عرف اسمه دعى «الأول» تمييزا له عن كل من جاء بعده ممن اسمة «الحارث» . ولكنه ليس من الضرورى أن يكون أول ملك نبطى .

وكان الحارث الاول معاصرا لمؤسسى الاسرة المكابية (أسرة حاكمة يهودية) ، فلقد ورد ذكره فى سفر المكابيين الذى أطلق عليه «اريتـاس» وذلك عندما حدث نزاع بين اليهود عام ١٦٩ ق.م حول من يتولى الكهانة العليا ، وفر أحد المتنازعين الى الحارثة . ولكنه طرده ربما لوجود اتفاق مابين الحارث والاسرة المكابية .

ولم يصلنا اى شىء آخر بخصوص الحارث الاول ، وان كان هناك من الباحثين من يرى أن النقش الذى عثر عليه فى الخلصه يخصه ، وقد جاء فى هذا النقش «هذا هو الموضع الذى أقامه عبد نثيرو لحياة حارثة ملك النبط (نبطو)» . ويتجه أصحاب هذا الرأى أن هـذا النقش لا يتجاوز فى تاريخة عام ١٥٠ ق.م (١) .

الحـــارث الثانى :

وجاء بعد الحارث الاول الملك زيدال وذلك فى حوالى عام ١٤٦ ق.م، ثم تلاه على العرش الملك الحارث الثانى الذى حكم حوالى عام ١١٠ ق.م، ودام حكمه حتى حوالى عام ٩٦ ق.م ، وقد نعته المؤرخ يوسفوس بلقب «ملك» مما يدل على أن هذا اللقب صار لقبا رسميا لحكام النبط فى ذلك العهـــد .

---

(١) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ، فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ــ ٢٦٩ .

وفيما يتصل بالاحوال التاريخية خلال هذه المرحلة يذكر المؤرخ يوسفوس فى كتابه «آثار اليهود» عن بداية تضارب المصالح بين الاسرة المكابية والانباط ، وكانت الدولة السلوقية حينئذ قد أخذت تدخل مرحلة ضعف وتقهقر مما اغرى ملك المكابيين بانتهاز الفرصة للتوسع وجعل هدفه مدينة غزة التى استغاث أهلها بالملك الحارث الثانى المجاور لهم ، الا انه خيب آمالهم فلم يقدم يد العون لهم رغم وعده لهم بذلك مما مكن المكابيين من الاستيلاء على غزة ، ولم يتركوها الا لوجود حرب أهلية عندهم .

وأشار يوسفوس أيضا الى أن الملك الحارث الثانى قد انتهز فرصة ضعف الاوضاع فى مصر وبلاد الشام ، فهاجم بجنوده بعض هذه الاراضى ، وغنم منها غنائم كثيرة ، فكون بذلك لنفسه وللعرب صيتا بعيدا .

وفى زمن الحارث الثانى ، صدرت نقود نبطية ، ولعله أول ملك نبطى يفعل ذلك ، اذ لم تصلنا نقود للملك قبله .وتحمل النقود المنسوبة اليه حرف "A" وهو الحرف الاول من اسمه « Arethas » ، وقد وجدت حديثا كمية غير قليلة من العملة البرونزية وفيها نماذج تحمل حرف (ح) بالآرامية اشارة الى حارثة .

ولقد انتهى حكم الحارث الثانى عام ٩٥ ق.م ، وخلفه على العرش النبطى ابنه عبادة الاول[١] .

عبـــادة الأول :

ورد نقش سجله رجل يدعى أصلح بن أصلح من هل البتراء على غرفة للعبادة فى الصخر فى الممر الضيق المؤدى الى البتراء وجاء فيه : «هذه هى القاعة التى اقامها أصلح بن أصلح لذى الشرى اله منبتو لحياة عبادة ملك النبط فى أول سنة من سنى حكمه» . وقد أرخ هذا النقش بعام ٩٥ ق.م . وفى هذا اشارة أكيدة لتاريخ اعتلائه العرش .

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢٥ .
Hastings, J., Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh,9, p. 121.

ولقد استمر فى عهده النزاع بين الانباط والمكابيين فى عهد ملكهم اسكندر جينوس ، لان أطماع جينوس التوسعية امتدت الى جلعاد ومؤآب ، واستطاع التغلب على عرب هاتين المنطقتين ، ولذلك تصدى له عبادة فى معركة عند جدارة (أم قيس) الى الشرق من بحيرة طبرية ، واضطرته «هجانة» الانباط الى الوقوع فى واد عميق ، وكاد يفقد حياته ، واضطر جينوس الى التخلى عن طموحه والتفرغ لضغوط اخرى بزغت فى مكان آخر ، فرد الى ملك العرب ما كان استولى عليه من مؤآب وجلعاد وما فيها من معاقل فى مقابل أن يمتنع عبادة عن مساعدة خصومه(١) .

رب ايل الأول :

هو ابن الحارث الثانى وأخو عبادة الاول ، حكم فى الفترة من ٨٨ ــ ٨٧ ق.م ، لم يذكره يوسفوس بالاسم ، ولذلك اضطربت المصادر بشأنه ، ونسبت الاحداث التى تمت فى عهده الى عهد أخية عبادة ، غير ان المؤرخ أسطفانس البيزنطى ذكره لدى حديثه عن الحملة الثانية التى قام بها انطيوخس الثانى عشر ضد العرب ، وكانت هذه المعركة فى أواخر عام ٨٨ ق.م ، أم أوائل التى بعدها . وقد أحرز الانباط فى هذه المعركة نصرا مؤزرا ، وقتل انطيوخس وفرجيشه وهلك معظمه جوعا .

الحارث الثالث :

هو ابن حارثة الثانى ايضا وأخو عبادة الاول ورب ايل الاول ، وهو يعد من أشهر الملوك المتقدمين من النبط . ويرى بعض الباحثين أنه حكم من عام ٨٧ حتى عام ٦٢ ق.م ، وقد قطف ثمار الانتصار الذى حققه سلفه ضد انطيوخس ، اذ خلا جواره المباشر من تدخل السلوقيين مؤقتا واستطاع أن يمضى قدما فى السياسة النبطية التوسعية . وقد اقترن عهده بفتوحات واسعة بدأت باستيلائه على دمشق ، وعلى سهل البقاع ، فى حوالى عام ٨٥ ق.م ، وذلك بناء على دعوة تلقاها من سكان المدينة العريقة ــ وكانت عاصمة السلوقيين وقتذاك ــ لانقاذهم من هجوم «الايتوريين» الذين كانوا

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٢٦ .

يطمعون في الاستيلاء عليها ، وادخلها في جملة أملاكه ، ولقبه أهلها (محب اليونان وحاميهم) لانه انقذهم من غزو الاعراب لهم[1] ٠

وهكذا اصبح (للحارث الثالث) مملكة واسعة الاطراف ، عمل على تدعيمها ببناء جيش قوى ، فبعد أن كان جيش النبط فى بادىء الامر مجرد جماعات غزو غير منظمة تهاجم عدوها وتباغتة على طريقة الاعراب ثم تتراجع ، حاول الحارث ادخال الكثير من الاصلاحات عليه ، واستعان بعدد كبير من اليونان فى تدريب جيشه ، وتكوين وحدات نظامية مدربة ، استعان بها فى تقوية مركزه حتى صار من اقوى ملوك النبط الـذين حكموا حتى ايامه ٠ ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخل فى شئون مملكة يهوذا المتداعية ، فغزا ارض يهوذا ، وفى معركة واحدة وقعت عند موضع (اويدا) انهار الجيش اليهودى وتشتت شمله ولم يبق أمام ملكهم الا طلب الصلح ، وعاد النبط منتصرين الى ديارهم ٠ كذلك عمل (الحارث الثالث) على مجابهة الرومان ولكنهم تغلبوا عليه ، ويرجع ذلك الى حيازة الرومان لجيوش منظمة مدربة ٠

ودعت الظروف السياسية الحارث مرة أخرى للتدخل فى شئون مملكة يهوذا[2] إبان الخلاف الذى دب بين ولدى «اسكندر جينوس» (ارسطوبولس وهركانوس) ، وانقسام اليهود الى فريقين ، الصدقيون ويؤيدون «ارسطوبولس» والفريسيون ويؤيدون «هركانوس» الذى فر الى البتراء ، لعله يجد الحمى عند الحارث ، فضلا عن اعادة التاج اليه وتثبيت ملكه ، على أن يعيد للحارث فى مقابل ذلك ، المدن الاثنى عشر التى كان قد أخذها أبوه من العرب ، ويقبل الحارث آملا فى أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا ، ان لم يقدر له أن يوجه اليها الضربة القاضية ٠ وهكذا يوجه الحارث جيشا قوامة خمسون الف رجل لمهاجمة «أرسطوبولس» الذى سرعان مايفر الى القدس بعد هزيمة منكرة ، فيتابعه الحارث الى المدينة المقدسة ، ويكاد

---

(١) جواد على ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣٠ ٠

(2) Josephus, The Jewish War, p. 302.

يستولى عليها ، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق ، ثم ارسال حملة عسكرية الى القدس نفسها للتدخل فى النزاع القائم بها وقتذاك ، ولمنع الانباط من الاستيلاء عليها • وأدرك الحارث أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان المدربة ، المنظمة والمسلحة تسليحا جيدا حديثا بالنسبة الى أسلحة ألنبط ، ففك الحصار وتراجع ، الا أن «أرسطوبولس» الذى نجح فى اكتساب ثقة قائد الحملة الرومانية سرعان ما تعقب الانباط وهم فى طريق عودتهم ، فانتصر على الحارث وقتل ستة آلاف من أتباعه •

وتعقدت الامور مرة ثانية بين الرومان والانباط ، فهدد الرومان النبط بالزحف عليهم وتخريب بلادهم ، ووجد الحارث أنه من المستحيل عليه الثبات أمامهم ، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن يدفع الحارث جزية للرومان • واعتبر «بومبى» حاكم الرومان أن ذلك أنما هو خضوع من الانباط للرومان ، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث فى موكب نصره ، كما أمر القائد الرومانى أن تضرب النقود وعليها صورة الحارث راكعا على ركبتيه الى جانب جمل وهو يقدم غصنا فى خضوع الى القائد الرومانى ، تعبيرا عن استسلامه • أما الانباط فلعلهم وجدوا أن دفع بعض الاموال لا يخدش وجه سيادتهم واستقلالهم الذاتى ، خصوصا وأن استيلاء الرومان على كل سورية قد وضح لهم مدى قدرتهم على المبادرة بالتحدى • وكانت هذه الاحداث هى خاتمة حياة الحارث الثالث الذى وافته المنية فى عام ٦٢ ق•م(١) •

الملك عبادة الثانى :

وحكم بعد (الحارث الثالث) ابنه الملك (عبادة الثانى) الذى حكم فى الفترة من ٦٢ – ٤٧ ق•م على رأى ، وفى الفترة من ٦٢ – ٦٠ ق•م على رأى آخر • ولدينا من عهده نقد من الفضة ضرب بأمره فى السنة الثانية أو الثالثة من حكمه وهو من فئة ال(دراخما) وقد صور عليه وجه الملك حليقا، وشعر رأسه قصيرا(٢) •

---

(١) جواد علي ، المرجع السابق ، ص ٣٣ •
(٢) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ٨٨ ، وكذا السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ٢٣٤ •

مالــلك الاول :

حكم الملك (مالك الاول) بعد (عبادة الثانى) وفى عهده شارك النبط يوليوس قيصر فى حصاره لمدينة الاسكنـدرية عام ٤٧ ق٠م ، فامدوه بقوة من جيوشهم ٠ ثم حدث بعد ذلك أن تدهورت العلاقات بين الرومان والنبط، وربما يرجع ذلك الى امتناع الانباط عن دفع الجزية للرومان ، أو لان النبط قد وقفوا الى جانب الفرس عندما ارادوا الاستيـلاء على فلسـطين ٠ وايا كان السبب ، فان الروم وبعد انتصارهم على الفرس ، بدأوا يتجهون نحو النبط واجبروهم على دفع جزية كبيرة ، ثم زاد الموقف تعقيدا عندما منح (مارك انطونيو) وهو الذى عهد اليه الرومان بتولى أمور الشرق ، جزءا كبيرا من فينيقيا وسوريا ، فضلا عن بلاد الانباط ، الى «كليوباترا» ملكة مصر ٠ وهكذا أصبحت (كليوباترا) صـاحبة الحق فى جزية الرومـان من الانباط ، غير أن النبط قـد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر ، ومن ثم فقد طلبت كليوباترا من مارك انطونيو الاسراع فى تاديب الانباط ٠ وفى نفس الوقت دفعت كليوباترا بملك اليهود (هيرودوس) لمحاربة الانباط ، وكانت تهدف من وراء ذلك اضعاف مركز كل من ملك اليهود والانباط حتى تتمكن منهما ، وتصبح سيدة بلاد العرب ٠ وبادر هيرودس بمحاربة النبط ، فالتقى بهم عند «اللد» وانتصر عليهم ، ثم التحم بهم فى (قنا) فى البقاع ،وكاد يتغلب عليهم ، الا أن موازين النصر سرعان ما تغيرت الى جانب النبط ، فقتلوا عددا كبير منهم وأسروا آخرين ، وفر «هيرودوس» الى القدس[1] ٠

وفى القدس أخذ (هيرودوس) يحرض قومه على الانتقام من العرب ، والاخذ بالثأر ، ولا سيما أن الانباط أخذوا فى الهجوم على مدنه ، فنشبت سلسلة من الحروب بين الطرفين ، كلفت كل منهما خسائر كبيرة ٠ ويدعى المؤرخ (يوسفوس) أن النصر كان فى الخاتمة فى جانب اليهـود ، واضطر النبط بعد ذلك الى دفع الجزية الى (هيرودوس) وعقدوا صلحا معه ، لم يخالفه الانباط بعد ذلك ٠ وليس هناك شك فى أن قوة هيرودوس لم تكن

---

(١) فليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٣١١ ــ ٣١٢ ، وكـذا محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥١٤ ــ ٥١٥ ٠

هى فى الحقيقة التى جعلت الانباط يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم ، انما كانت قوة الرومان وراء تلك الانتصارات التى حققها هيرودوس نتيجة ما تقدمه له من مساعدات عسكرية فعالة(١) ٠

عبادة الثالث ـ (٣٠ ـ ٩ ق٠م) :

يصفه كل من يوسفوس واسترابو بالكسل وتراخى الهمة ، وبانه لم يكن يعير الشئون العامة ، فضلا عن الشئون العسكرية اى اهتمام ٠ وفى نفس الوقت فقد أسهبوا فى مقارنته بوزيره الشاب النشط «صالح» أو «سليوس» Syllaeus ، وبذلك تضاءلت شخصية عبادة الثانى بجوار وزيره صالح ، وتصدرت الاحداث شخصية الوزير صالح الذى كان يلقب فى النقوش «أخا الملك» اى اليد اليمنى للملك ٠

وعلى الرغم من ضآلة الدور الذى ينسب الى عبادة فهناك نقشا يستشف منه أنه قد اله فى عهد خليفته ، وليس لهذاالتاليه من سبب الا اذا كان خليفته الذى قام بهذا العمل كان يهدف من وراء ذلك الى جعل هذا التاليه سنة متبعة ، وبذلك يضفى فى نفوس أهل المملكة هيبة جديدة لملك الانباط ليكتسب لنفسه تلك المكانة بعد موته أيضا ، وقد يكون من أسباب ذلك أيضا اضفاء نوع من التقديس والاحترام على شخص عبادة بسبب قوة وزيره صالح الذى كان أشبه بالوصى عليه ٠

ومن أهم الاحداث التى حدثت فى عهد هذا الملك الحملة الرومانية على على بلاد العرب الجنوبية عام ٢٥ ـ ٢٤ ق٠م ، وكانت تهدف الى الافادة من مصادر الثروة السبأية ، ونظرا لمرور هذه الحملة فى أراضى تحت سيطرة الانباط أو موالية لهم ، وأن دليل الحملة كان الوزير صالح ، فقد ارتبطت هذه الحملة بالانباط ٠ وقد فشلت الحملة فى تحقيق اهدافها فشلا ذريعا ، وحاول استرابو أن يضع كل مسئولية الفشل على عاتق الوزير صالح واتهمه بالمكر والخداع وأنه قد غرر بالجيش ، الا أنه قد بالغ كثيرا فى القاء التهم على الوزير صالح فى محاولاته المستميتة فى تبرير فشل الحملة ٠

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ٣٧ ٠

ومن الناحية الداخلية ، فقد أصدر عبادة الثانى نوعين من النقد أولهما صدر فى أوائل حكمه ويسمى النقد البطلمى ، وقد صور على أحد وجهيه رأس عبادة وعلى الثانى رسم صقر ، وثانيهما يسمى النقد اليونانى وقد صدر بين السنة العاشرة والعشرين من حكمه ، وقد صور على أحد وجهيه رأس الملك وعلى الوجه الثانى صورة رأس الملك والملكة ، وكتب على جميع النقود عبارة «عبادة الملك ، ملك الانباط»(١) .

الحارث الرابع (٩ ق٠م - ٤٠م) :

ورد اسمه فى عدد من الكتابات النبطية ، وقد حمل لقب «رحم عم» أى المحب لامته ، وقد قام هذا الملك بتزويد القائد الرومانى (واروس) بقوة من المشاة والفرسان حين زحف على يهوذا ، وقد فعل ذلك انتقاما من اليهود وتقربا الى الرومان . ثم حدث بعد ذلك أن اصطدم النبط باليهود وذلك نتيجة قيام هيرودوس بطلاق ابنة الحارث الرابع ، وكان قد تزوجها منذ حين ، وبسبب اختلافهما ايضا على حدود المنطقة .

وانتهت الحروب بين الطرفين بانتصار الحارث على خصمه انتصارا كبيرا فى جلعاد وتشتيت شمل جيوشه ، فاستنجد هيرودوس بسيده وحاميه قيصر الروم ، الذى غضب وكتب الى عامله فى سورية يحثه على السير لمحاربة الحارث والقبض عليه حيا وارساله مكبلا بالسلاسل الى روما ، أو يبعث برأسه اليه ان قتله . وبينما كان العامل يهم بالزحف على مملكة النبط جاءته الاخبار بوفاة القيصر فتوقف عن الحرب ، وساء موقف هيرودوس ونحاه الرومان عن عرشه(٢) .

ويستدل من رسالة بولس الثانية الى أهل كورنثة أن دمشق كانت تتبع الحارث ملك الانباط ، وقد كان بولس فى دمشق حوالى عام ٤٠ م وهى آخر سنة فى حكم حارثة . وفى ذلك يقول : «كان الحاكم بدمشق تحت أمرة ارتاس (الحارث) الملك» ، ويدل ذلك على عودة دمشق الى الدولة النبطية

---

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ .

(2) Josephus, Antiquities of The Jeus, V, 18. 1.

وربما كـان ذلك حوالى عـام ٣٧٠م ابان الحرب التى استعر أوارها بين الحارث وهيرودوس ، وربما بقيت تحت سيـادة الانباط فى مقـابل مبلغ يدفعونه للرومان(١) ٠

ويتميز عهد الحارث الرابع بحركة عمرانية واسعة تركزت حول القسم الجنوبى من المملكة ، فتحولت المنشاة النبطية فى مدائن صالح (الحجر) الى مدينة كبيرة ، وظهر ذلك أيضا فى المقابر المنحـوتة فى الصخر والتى تضاهى فى فخامتها المقابر المنحوتة فى الصخور فى البتراء نفسها ، ويحمل أكثرها نقوشا تشـير الى أنها قد شيدت فى النصـف الاول من القرن الاول الميلادى ، ويحمل أقدمها نقشا يشير الى السنة الاولى بعد الميلاد ٠ ومن الجدير بالملاحظة أن معظم هذه المقابر كان خاصا بالضباط العسكريين من ذوى الرتب المختلفة ، وربما يشير ذلك الى ان هذه المنطقة (مدائن صالح) قد جعلها الحارث منطقة عسكرية لحصانتها ، وأن تكون كدرع أمان للدولة النبطية فى المستقبل من أطماع الرومان ٠

ويضاف الى ذلك ، أن الانبـاط كانوا قد خسروا كثـيرا من توسعهم التجارى بعد أن أصبح البحر الاحمر مجالا لنشاط السفن الرومانية ، ومعنى ذلك أنهم لم يخسروا التجارة البحرية وحسب ، بل تضاءلت حصتهم من التجارة البرية ، وأخذ طريق البتراء ــ غزة تكاد تصبح مهجورة وعلى ذلك ، فقد كان هـذا الاتجاه نحو الجنـوب كمحاولة لانعاش الوضـع التجارى وتعويض الخسائر ٠ ودلت النقوش التى اكتشفت فى الجـوف عند الطرف الجنوبى لهذا الوادى على كثرة الرتب العسكرية ، ويدل هذا أيضا على أن الحارث كان يحاول تقوية هذه المنطقة ليتم لتجارته الوصول من خلالها الى بصرى ، دون حاجة الى المرور بالمنطقة الواقعة شرق الاردن التى قد تفكر روما ذات يوم فى ضمها الى الولاية السورية ٠

ولعل التخوف من المنافسة الخارجية فى النشاط التجارى هو الذى دفع الحارث الى الاهتمام بالزراعة ، ويتضح ذلك فى زيادة حركة الاعمـار فى

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٤ ٠

مدن النقب مثل عبدة وكرنب ونصتان . وكان الرى هو العـامل الرئيسى والضرورى لهذا الاعمار ، ولقد كشف عن بعض الاثار التى تشير الى وجود نظام متقدم لحفظ مياه المطر وتسييرها الى الارضى الصالحة للزراعة ، ولم يقتصر الاهتمام بالاعمار على المناطق الجنوبية ، بل امتد كذلك الى المناطق الشمالية ، فرأينا آثاره فى بصرى شمالا وهى تسيطر على الطرق الداخلية من وادى سرحان ، ابتداء من الجوف وباتجاه دمشق .

وحظيت البتراء بنصيب كبير من العمران فى عهد الحارث ، فقد شيد فى عهده أكبر أثرين من آثار تلك المدينة وهو المسرح المحفور فى الصخر ، والمعبد القائم فى وسط المدينة والذى يعرف اليوم باسم قصر البنت(١) .

ولقد خلد الحارث ايام حكمه بتوالى الاصدارات النقدية ، حتى لا تكاد سنة من سنوات حكمه تمضى دون اصـدار نقد جديد ، ولقـد سجل على بعض القطع النقدية بعض الاحداث التى تمت فى عهده ومنها تخليده للحركة المعمارية التى أجراها فى مـدائن صالح ، ومنها كذلك اصـداره فى العام العشرين من حكمه نقدا تذكاريا لزواجه من شقيلة التى أصبحت ملكة بعد وفاة زوجة سابقة له . كما حملت بعض النقود أسماء بعض أبنائه وبناته . ويلاحظ أن معظم النقود التى أصدرها قد كتب عليها «الحارث ملك النبط، محب أمتـه» .

ومن ناحية أخرى ، فلقد عثر على العديد من النقوش التذكارية التى أقامها أفراد من الشعب النبطى لملكهم الحارث ، وقد أرخت هذه النقوش بسنوات حكمه ، وكتب فيها «محب أمته» ويشير انتشار هذه النقوش فى أماكن متعددة حتى وصل بعضها الى ايطاليا الى اتساع الافاق التى كان يؤمها الانبـاط وعلى امتـداد تاثيرهم التجارى والحضـارى الى مناطق بعيدة(٢) .

ومن هذه النقوش التذكارية نقشا يتميز بقيمته التاريخية وقد عثر عليه

---

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٥٢ .

فى موقع مادبا وجاء فيه «هذا هو القبر ومعه الهرمان المبنيان فوقه الذى اقامه عبد عبودت من اجل اتايبل الستريج (حاكم المقاطعة) والده ، ومن اجل اتايبل رئيس معسكرى لحيطو وعبرتا فى مقر حكمهما الذى شغله فترتين اى ستة وثلاثين عاما فى مجموعهما ، فى أيام الحارث ملك الانباط ، محب أمته» . ولقد تم انشاء ذلك الضريح فى السنة السادسة والاربعين من حكم الحارث اى عام ٣٧م . ويلاحظ أن لحيطو هى لهيت التى ذكرت فى سفر اشعيا ، واما عبرتا فتعنى المخاضة او المعبر ولعلها هى المخاضة الموجودة على نهر عرنون فى الطريق الى الكرك .

مالك الثانى ـ (٤٠ ـ ٧٠م) :

هو ابن الحارث الرابع ، ويلاحظ ان البقايا الاثرية والتاريخية المتبقية من عهده قليلة وان كان مرجحا أنه قد تابع سياسة أبيه فى الاهتمام باعمار المناطق الجنوبية من الدولة ، ولقد توقف اصدار النقد فى السنوات الست الاخيرة من أيامه ، وفى الوقت نفسه استأنفت دمشق اصدار نقدها مما دعى الباحثين الى الاعتقاد بأن الانباط قد فقدوا دمشق فى عهده ، ولقد جاء بعده على العرش النبطى ابنه رب ايل الثانى(١) .

رب ايل الثانى ـ (٧٠ ـ ١٠١م) :

كان صغيرا حين تولى العرش ولهذا عينت أمه وصية عليه ، وهى تظهر على النقود التى أصدرت فى سنوات حكمه الاولى ، وبعد أن تزوج أصبحت زوجته «جميلة» هى التى تصور على مايصدره من نقود .

وكانت فترة حكم رب ايل قليلة الاحداث ولهذا لم تثر انتباه مؤرخى الدولة الرومانية . وهناك مجموعة من المخربشات تشير الى قيام ثورة فى بداية حكمه ، ومما يلفت النظر أن رب ايل كان يقضى أكثر وقته فى بصرى وتلك كانت بداية غروب مجد البتراء السياسية وان بقيت بمجدها التجارى.

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤١ .

ولقد اتخذ رب ايل لقبا لافتا للنظر وقد الحقه باسمه حيثما ذكر وهو «واهب الحياة والخلاص لامته»(١) .

مالك الثالث (١٠١ ــ ١٠٦م) :

آخر ملك نعرفه من ملوك الانباط هو مالك الثالث ، وفى عهده قضى تراجان قيصر الروم على استقلال مملكة الانباط وجعلها تحت حكم حاكم سوريا ، وذلك فى عام ١٠٦م وأطلق عليها اسم (المقاطعة العربية) ونقل مقر الحكم من البتراء الى بصرى ، فتضاءل بذلك شان العاصمة القديمة وصارت مجرد موضع قليل الشان . وكانت بصرى حتى ذلك الوقت موقعا غير ذى اهمية ، فامر الامبراطور تراجان باعادة تاسيسها ، ويشهد بذلك لقبها الرسمى المنقوش على عملتها وهو «بصرى الجديدة التراجانية» . وحين اصبحت بصرى العاصمة بدأ بذلك تقويم جديد اسمه تقويم الولاية ، وأصبحت بصرى قاعدة الفيلق الرومانى الثالث ووضعت الحاميات الرومانية على طول الطرق الرئيسية التى تكون ما يسمى بالحد الغربى ، وكانت الطريق الجديدة التى بناها تراجان تصل بين سوريا والبحر الاحمر(٢) .

النشــاط الاقتصــادى :

من أهم أوجه النشاط الاقتصادى عند الانباط النشاط التجارى ، وقد أوضحنا فيما سبق الجهود التى بذلها ملوك الانباط فى سبيل توسيع رقعة نشاطهم التجارى ، ولقد كان النشاط التجارى من الاسباب التى أدت الى بروز مظاهر كثيرة فى الحياة النبطية وفى مقدمتها العناية بتربية الجمال وتوفير المؤونة بها والتزود بكل الادوات التى تساعد على تجهيز البضائع وترتيبها وتصنيفها وبناء السفن والتدريب على ركوب البحر وتهيأت كل ما تطلبة الموانى من معدات ، وتخصيص أماكن للتفريغ والتخزين . وأدى

---

(1) Hastings, J., ERE, 9, p. 121,

جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٨ ، فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

وفيليب حتى ، المرجع السابق ص ٤٢٤ .

(٢) فيليب حتى ، نفس المربع السابق ، ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥ .

النشاط التجارى كذلك الى حركة صناعية وتعدينية وزراعية ورعوية ، فلم يكتف الانباط باستقبال السلع الخارجية وتسويقها .

ويصف استرابو بعض جوانب من ثروتهم الحيوانية وسلعهم المحلية والمستوردة فيقول :

«والضان لديهم ذات صوف ابيض ، وثيران كبيرة ، ولكن بلادهم لا تنتج خيولا ، وتقوم الجمال بتلبية خدماتهم مقام الخيل ... وبعض الحاجيات مستوردة من بلاد أخرى . الا أن حاجيات أخرى ليست كذلك وخاصة ما كان منها نتاجا محليا كالذهب والفضة ومعظم العطور ، فاما النحاس والحديد والثياب الارجوانية والميعة والزعفران ، والادوات المزينة بالنقوش الفاخرة والرسوم والمصنوعات المقولبة فلا تصنع فى بلادهم» .

ومن المواد الهامة التى كانوا يتاجرون بها القار ، وكانوا يستخرجونه من البحر الميت ، وللقار فوائد متعددة منها استخدامه فى تقوية المواد والادوات ، أو أن يتخذ كعنصر فى التغرية ،كما استخدمه المصريون فى تلوين المعادن وكذلك فى التحنيط .

وكانت التجارة الخارجية هى عماد ثروة الانباط وكانت تعتمد على السلع القادمة من جنوب بلاد العرب ، اذ كانت تلك السلع تباع بأثمان عالية وفى مقدمتها البخور الذى كان يمثل مادة ضرورية فى حياة الناس وعبادتهم ، كما كان هو والمر يستعملان فى تركيب العقاقير ، وكان المر وحدة يستخدم فى صناعة مواد التجميل والعطور وفى شئون الدفن .

ولا ينازع هاتين السلعتين من السلع المحلية سوى البلسم والقار ولقد تحدثنا عن أهمية القار ، أما البلسم فكان يستخدم فى الامور الطبية ، ولقد أشار اليه ديودور فقال : «فى أحد الوديان ينمو النبات المسمى بالبلسم وهو يعطى دخل كبير ، اذ لا يوجد فى أى مكان آخر من العالم المعمور ، واستعماله كعقار مهم جدا لدى الاطباء» . وبجانبهما يرجح كذلك أن صناعة الخزف كانت تدخل فى نطاق التجارة الخارجية .

وقد مارس الانباط النشاط الصناعى ومنه سك العملة من البرونز

والفضة ، كما صنعوا بعض التماثيل الصغيرة والحلى والاسلحة وكذلك الاوانى المعدنية المستخدمة فى الادوات المنزلية ، كما ظهرت صناعات اخرى مثل النسج وصناعة الاحذية والادوات الموسيقية .

وقامت الزراعة بدور كبير فى نشاط الانباط الاقتصادى ، وتدل السدود التى اقاموها والقنوات والمجارى التى شقوها وخزانات المياه التى شيدوها على اهتمامهم بالنشاط الزراعى . ويرجح انهم مارسوا زراعة شتى انواع الحبوب واشجار الفواكه وبخاصة العنب ، وتشير رسومهم الى اهمية العنب والرمان كعنصر زخرفى . وهكذا بلغ الانباط مستوى اقتصادى رفيع بالتضافر بين انواع النشاط الاقتصادى المتعددة من تجارة وصناعة وزراعة(١) .

نظام الحكم :

اما عن تنظيم الدولة وكيفيتها عند النبط ، فمن الواضح ان الملك كان بالطبع رئيس الدولة ، وكان الحكم متوارثا بداخل الاسرة الملكية ، وحسب المعلومات المتاحة لنا حاليا فان الحكم الملكى لم يخرج عن اسرة واحدة . وهناك ما يستشف منه ان الاسرة المالكة كانت حسنة التماسك ، ولم تكتف بذلك بل اصبغت على ملكها صفة الالوهية لتبعد عنها كل مدعى طامع ، واحاطت الحاكم من تلك الاسرة بروابط الاخوة ، وفى ذلك بالاضافة الى معنى المشاركة فى المشورة وبعض المسئولية رغبة فى اضفاء نوع من وحدة الحكم ، فزوجة الملك اخت له وصورتها تظهر مع صورته على النقود ، ووزير الملك اخ له وكليهما بهذه الاخوه يشاركه المسئولية او جانبا منها ، ولم تكن هذه اخوة بالدم ولكنها اشارة الى عمق المشاركة .

ويبدو مرجحا ان الوزير كان مسئولا عن السفارات فى الخارج ، واجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات وما شابه ذلك .

وكانت البلاد مقسمة الى ولايات لكل ولاية حاكم يسمى فى النقوش

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

ـترتج ، وتدرجت الوظائف الادارية فى الدولة سواء كانت سياسية أو دينية أو قضـــائية .

الحيـــاة الاجتماعية :

كانت العائلة هى الوحدة المهمة فى المجتمــع النبطى ، وكانت شديدة التماسك وتقوم على روابط قوية بين افرادها والتزاوج فيما بينهم ، ويرى الباحثون ان المرأة النبطية كانت تتمتع بمنزلة مرموقة فى المجتمع ، وانها كانت تعامل باحترام وانها كانت مصونة الحقوق ، ويسـتدلون على ذلك بمكانة ربة الخصب السامية بين الارباب ، وأنها كانت تتفوق على قرينها زيوس ، وكذلك بوجود صورة الملكة الى جانب صــورة الملك على العملة النبطية ومعها لقبها ، كمــا كان للمرأة النبطية الحق فى الوراثة والتملك والتصرف فى أمــلاكها(١) .

الفكر الـــدينى :

كان لانتقال الانباط من حياة بدوية أو شبه بدوية الى حيــاة مستقرة العامل الاول فى تطور فكرهم الدينى ، فقد كان الاستقرار يعنى خلق اوضاع جديدة لابد أن تؤثر فى كثير من المفاهيم الدينية التى صاحب حياة البداوة. اذ كان أول مايعنيه الاستقرار ظهور الحاجة الى وجود معبد بما يتضمنه من تطور معمارى ، كما اثرت الحياة الزراعية المستقرة على تطور فكرهم الـدينى كذلك .

ومن النواحى المؤثرة فى هذا التطور اتصال الانباط بالحضارات الاخرى المجاورة لهم أو التى كانت لهم بها صلات سياسية أو تجارية .

ومن المرجــع أن الانباط قد حملوا معهم من مــواطنهم الاولى أربابا معينة هى اللات والعزى ومناة وذو الشرى وهذه المعبودات تتناسب وعيشة البــــداوة .

وكانت اللات وهى تمثل فى الارجح الشمس ، وهى عندهم أما للارباب ،

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ٥٢ .

وقد اقيمت لها معابد كثـيرة فى المواقع النبطية، ولكن يـلاحظ أن اسمها قليل الورود فى نقـوش البتراء حيث كانت ربة بصرى وصلخد حيث كان عبادها المخلصون من بنى روحو •

ولا تحتل العزى ومناة دورا بارزا بين الارباب النبطية وخاصة بالنسبة لذى الشرى الرب الاكبر الذى حمل طبيعة بعض الآلهة السامية فى دور مبكر فاصبح يناظر كل من بعل وهدد ، ثم اصبح فيما بعد صنوا لزيوس ، وكان فى البدء يعبد على شكل حجر مربع أو مستطيل ، وكانت مكانته كبيرة فى البتراء ، ونظرا لكونه الها شمسيا فقد كانت أنصابه ورموزه موجهة نحو المشـــــرق •

وكان تقديم القرابين من أهم الشعائر لدى الانباط مثلهم فى ذلك مثل الشعوب السامية ، وكان ذلك بالضحايا الحيوانية التى يسـفح دمها على مذبح أو على رأس النصب ، وليس لدى الانباط ما يشير الى وجود التضحية البشرية • وتجدر الاشارة أن القرابين المقدمة فى المعابد لم تكن تحرق كلها بل كان معظمها يأكلة موظفى المعبد والعباد فى غرفة خاصة بالولائم المقدمة حيث يجتمع الكهان والحجاج الى المعبد فى المواسم والاعياد الدينية حيث يجلسون فى هذه الغرف ويأكلون هذه الوجبة التى يطلق عليها «الوجبة التعبدية» وكانت لها أهميتها فى العبادات لدى الانباط ، لانها تعنى المشاركة بين الالة وعبـــاده •

وقد تم الكشف عن معابد نبطية أهمها معبد خربة التنور ومعبد وادى رم ومعبد ذيبان ، وتشترك جميع المعـابد فى عناصر رئيسية هى المـذبح ووجود تماثيل للارباب أو صور لهم ، وأنها تتجه نحو الشرق •

وكان هناك جهاز دينى يقوم بالاشراف على العبادة فى المعابد وتنظيم الاعياد المرتبطة بالفصول واعداد الجنائز وطقوس الدفن ، وكان على رأس هذا الجهاز الكاهن •

الفن النبـــطى :

تميز الفن المعمـارى النبطى بقـدرته على التأثر بالفنـون المعمارية

للحضارات المجاورة له ، ففيه المظاهر المصرية والايرانية واليونانية ، ولكن فى صورته العامة ياخذ الطابع النبطى ، ويتجلى بشكل واضح فى القبور المحفورة فى الصخر وفى المعابد ٠

وفيما يتصل بالمقابر فكان الصانع يبدا بنحتها فى اعلى الهضبة فيجعل سطحها أملس ثم ينحت الواجهة ثم يتم العمل فى الاجزاء الداخلية لها ، وكانت الاعمدة فى الغالب عارية من الزخرفة فى تيجانها ، وان كـانت فى بعض الاحيان تزين برؤوس بشرية ، وكانت الرموز المصاحبة لهذه الاضرحة تكاد لا تتغير فهى الصقر والقناع الآدمى ، امـا داخل غرفة الدفن فتكاد تكون الزخرفة معـدومة ٠

ويختلف الفن المعمارى فى المعابد عنه فى القبـور من حيث أن المعابد لا تنحت احيانا فى الصخر بل تبنى بالحجارة ٠

وفيما يتصل بالعمارة المدنية فمن اهمها المعبد الرئيسى فى البتراء وقد تمثلت فيه قدرة المعمارة النبطى على اتقان النحت والبناء بالحجر ٠

وبرع الفنان النبطى فى نحت التماثيل ومنها التماثيل الادمية الصغيرة المفردة والتماثيل الآدمية النصـفية وتماثيل الحيوانات كالجمـال والقرود وغيرهـــا ٠

وبالاضافة الى صنـاعة التماثيل فقد وجدت العديد من الرسـوم سواء كانت رسوم جدارية أو رسوم على الخزف

الفصل الحادى عشر

تدمـــــــــــــــر

تدمـــــــــــــر

تقع مدينة تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلو مترا من حمص ، ١٥٠ كيلو مترا الى الشمال الشرقى من دمشق، فى منتصف المسافة تقريبا بين دمشق والفرات، ومن ثم فقد كانت موقعا هاما على الطريق التجـارى بين العراق والشام ، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق ، وما يتصل بها من اسواق فى ايران والهند والخليج والعربية الشرقية ، وبين تلك التى على البحر المتوسـط ، وبخاصة فى الشام ومصر ، فضـلا عن اتصالها بالعربية الغربية وباسواقهـا الغنية باموال افريقية ، والعربية الجنوبية والهنـد . وهكذا اصبحت (تدمر) ملتقى جميع القوافل ، وبخاصة فيما بـين القرن الاول قبل الميلاد ، وعام ٢٧٣م ، ومن ثم فقد وجد فى نقوشها عبارة (زعيم القافلة» و (زعيم السوق) باعتبار ان المشار الية من زعماء المواطنين[1] .

والاسم اليونانى للمدينة هو (بالميرا Palmyra) وهو مشتق من لفظة Palma اللاتينية ومعناها (نخل) ، ويرى بعض البـاحثين ان الاسـكندر الاكبر لما تغلب عليها اطلق عليها Palmyra اى مدينة النخل ، وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة ، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الاسم . بينما ذهب فريق آخر الى أن Palmyra هى ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) Tamar العبرانية ومعناها (نخلة) ، وهى فى الاصل اسم موضع فى الجنـوب الشرقى من يهـوذا ورد ذكره فى (سفر حزقيال) . ويرى علماء التوراة انه الموضع الذى بناه سليمان والمذكور فى (اخبار الايام الاول) ، ويرى البعض ان الرأى السابق خاطئا ، لان اسم المدينة يرجع ظهوره للمرة الاولى الى ايام الملك الاشورى «تجلات بلاسر» الاول (١١١٦ ـ ١٠٩٠ ق.م) اى قبل مولد سليمان نفسه ، وبفترة تسبق

---

(1) Cooke, G. A., Palmyra, in Encyclopaedia Biblica, 17 (1964), p. 274, 279.

مادون في التوراة بشانها ، باكثر من سبعة قرون • وربما تكون الشهرة التى اكتسبتها مدينة تدمر فى ايام كتبة اسفار (اخبار الايام) هى التى حملتهم على اضافتها الى اعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلـوغ ملكه فى ايـــامه •

وذهب المؤرخ اليهودى (يوسفوس فلافيوس) الى أن النبى سليمان قد شيد مدينة تدمر • ويعـد المؤرخ (بلينوس) أول كاتب كـلاسيكى تعرض لمدينة تدمر ، فذكر انها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز ، وارضها خصبة وبها ينابيع وعيون ، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الاطراف(١) •

وأهم المصادر التى يعتمد عليها المؤرخ فى دراسته تاريخ هذه المدينة مجموعات الكتابات التـدمرية التى درسها المستشرقـون وترجموها الى لغاتهم • وهى الارامية واليونانية ثم اللاتينية والعبرانية ، ونشرت فى كتب خاصة ، كـذلك هناك مؤلفـات المؤرخين اليونان والرومـان ومن بينهم بلينيوس ، ثم هناك كتابات اخرى ذات قيمة ثانوية ذكرت تـدمر عرضا لوجود مناسبة دعت الى ذلك مثل سجلات المجامع الكنيسية والتلمود •

وأهل تدمر كانوا عربا ـ شأنهم فى ذلك شان الانباط فى البتراء ـ بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الاصيلة فى كتاباتهم • كما أن اسماء الاصنام عندهم عربية ، والامر كذلك بالنسبة الى اسماء الاعـلام ، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء انهم من القبائل العربية التى اخذت تستولى على المناطق الخصبة فى شرق الاردن ، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة ، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية فى عام ٥٣٩ ق•م ، ثم اخذت تستعمل الارامية ـ وهى لغة الكتابة والثقافة فى غرب الفرات وقتذاك ـ لغة لها • أما الثقافة التدمرية ، فكانت مزيجا من الثقافات العربية والارامية واليونانية واللاتينية ، ذلك لان تدمر قـد نمت فى ظل حضـارة الاراميـين واتخذت

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ، حصن ظاظا ، الساميين ولغاتهم ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١١٥ •

لغتهم ، فضلا عن المبادىء الاساسية فى تفكيرهم الثقافى والدينى ، هذا فى الوقت الذى اخذت فية الكثير عن اليونان والرومان(١) .

وكان اهل تدمر خليطا من تجار ومزارعين ، اما اطرافها فكانوا اعرابا ورعاة . وكان فى تـدمر جاليات يونانية ورومانية ، اقامت فيهـا وفضلت السكنى بها ، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت اليها ربما قبل سقوط القدس فى ايدى الرومان ، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا فى تهويد بعض السكان .

هذا وقد بدأت تدمر فى الازدهار والقوة منذ النصـف الاول من القرن الاول قبل الميلاد ، وذلك بسبب الاهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريتى الفرس والروم المتنافستين ، وقد حاول «مارك انطونيو» عام ٤١ ق.م الاستيلاء على خزائن المدينة ففشل ، وان اصابها منه ضرر كبير ، غير ان مـدينة مهمة كتدمر لها ثروة ومـال وليس لها جيش قـوى ضخم ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها ، لا يمكن ان تبقى فى مأمن ومنجاة من مطامع الطامعين ولو كانت فى بقعة منعزلة وفى بادية بعيدة . ومن ثم فقد طمع فيها أهل العراق ، وطمع فيها الفرس ، وطمع فيها اليونان والرومان والبيزنطيون . وكان اول طامع فيها وصل خبره الينا من فاتحين الاقوياء هو الملك (تجلان بلاسر الاول) تلاه جملة غزاة ورثوا الحكم والملك فى الشرق الادنى . وقد صارت تدمر فى جملة الاراضى التى اخضعها الاسكندر الاكبر لحكمه ، ولما انقسمت دولته بعد وفاته صارت تدمر من نصيب السلوقيين على مايظهر . وقد حاولت تدمر ان تقف موقف الحياد بين الفرس والروم ، وتمكنت من ذلك أمدا ، اذ كان من مصلحة الدولتين المتنافستين وجود محل منعزل محايد ، لكى يتمكن تجار الدولتين من الاتجار والتسوق فيه .

وقد قام احد القادة السلوقيين ببناء حصن ليضم اليه الجنود المقدونيين فى مدينة (تدمر) ، وكان ذلك فى عام ٢٨٠ ق.م ، ولعل هذا الحصن هو واحد من سلسلة حصون اقامها السلوقيون فى المواضع الهـامة ذات المكانة

---

(١) سبتينو موسكاتى ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد علية الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٣ .

الخطيرة من الوجهة السياسية والعسكرية والتجارية لحماية مصالحهم فيها.
هذا وقد اعترفت تدمر بنوع من السيادة عليها للرومان ، منذ أوائل العصور المسيحية ، ودليلنا على ذلك المراسم الامبراطورية التى ترجع الى عهد (تيبيروس) ١٤ ـ ٣٧م ، والتى تتعلق بالرسوم الجمركية ، وقد عثر فى تدمر على قوائم ترجع الى عام ١٧م وتبين بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية . هذا ويبدو ان تدمر قد اصبحت على ايام «فسباسيان» تحت الاشراف الرومانى ، وان كان هذا لا يعنى الخضوع لروما ، أو ان الاشراف على الشئون المدنية بالمدينة كان بايدى الرومان ، وانما كان هناك اشراف رومانى عام على المدينة ، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحامياتها فى خارج تدمر .

هذا وقد قام الامبراطور (هدريانوس) (١١٧ ـ ١٣٨م)(١) بزيارة تدمر ، وبذل عناية كبيرة بها ، حتى قيل فيه انه مؤسس المدينة الثانى ، فاعتنى بها عناية خاصة بحماية الطرق البرية ، التى تصلها بنهر (الفرات) الذى كان شريانا مهما من شرايين التجارة العالمية فى ذلك العهد ، وسعى الى تحسين صلاته بالفرس والمحافظة على الامن فى البادية ، لتتمكن القوافل من المرور منها بامن وسلام .

وهناك من الآراء ما يذهب الى ان تدمر قد منحت درجة مستعمرة رومانية عليا ، فاكتسبت بذلك حق الامتلاك التام والاعفاء من الخراج ، والحرية الكاملة فى ادارة سياسة المدينة . وان هذه المنحة كانه فى عهد الامبراطور هدريانوس ، بينما يرى آخرون انها كانت فى عهد (سبتمتوس سيفيروس) (١٩٣ ـ ٢١١م) . وقد أفادت تدمر من سياسة هدريانوس التى كانت تميل الى السلم وتجنب الحرب ، فوسعت تجارتها وزادت فى عدد قوافلها ، وحصلت على ثروة طائلة ، وتعد الفترة من عام ١٣٠ وحتى ٢٧٠م هى أزهى سنوات المدينة ، فالى هذه الايام ترجع معظم النصب والآثار العظيمة التى مازالت آثارها قائمة حتى ذلك اليوم . وقد تاثرت تدمر باصول اليونان والرومان فى ادارة الحكم ، فكان للمدينة مجلس شيوخ

---

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

له سلطة سن القوانين والتشريع ، وله رئيس وكاتب واعضاء ، ويشرف على السلطة التنفيذية شيخان وديوان يتالف من عشرة حكام ، أما السلطة القضائية فينظر فيها بعض الوكلاء وغيرهم من العمال .

أسرة أذينــــة :

كان لتجدد الحروب بين الفرس والروم بعد تاسيس دولة الساسانيين فى فارس عام ٢٢٦م أثره فى ارتفاع شان أسرة عريقة فى تدمر وزعيمها الذى يدعى أذينة ،فقد استفادت هذه الاسرة من هذه الحروب وتمكنت من الحصول على مركز عال لدى الرومان ، وزعيم هذه الاسرة هو (اذينة) وجده الكبير كان يدعى (ناصر) (نصرو) والد «وهب اللات» (وهبلات) وان هذا الاخير انما وهو والد «خيران» أو «أذينة»،وقد تولى رجال هذه الاسرة رئاسة تدمر وزعامتها ، واستطاعت بفضل تاييدها للرومان وتقربها اليهم ان تكتسب ود القياصرة وعطفهم عليها والانعام على افرادها بالالقاب والاوسمة وبالمال فى بعض الاحيان ، وبالقوة والمعونة فى احيان اخرى . ولم يتعرض الرومان لحكم افرادها بل تركوهم يديرون شئونها وفق السياسة الرومانية(١) .

ويعد (نصور) اقدم اسم وصل الينا من اسماء هذه الاسرة التى حكمت تدمر ، وان كنا لا نعرف عنه شيئا ما . أما (أذينة) فقد ورد اسمه فى كتابة يرجع الباحثون زمان كتابتها الى حوالى سنة ٢٣٥م ، وقد لقب فيها بلقب (سقلطيق) ، وكان يحمل لقب عضــو فى مجلس الشيوخ الرومــانى ، ثم لقب بلقب ملك فى حوالى عام ٢٥٠م وجمع الناس عليه ، فادرك الرومان ما وراء هذه الدعوة من خطر على مصالحهم ، فــاوعز القيصر الى قائده «روفينوس» باغتياله ، فقتل وتخلص الرومان منه .

وتولى بعده حكم تدمر ولده «خيران» وفى عهده اخذت تدمر دورها فى القضايا الدولية ، وما ان قامت الدولة الســاسانية فى عــام ٢٢٦م ، تحت زعامة «أردشير بن بابك بن ســاســان» (٢٢٦ ـ ٢٤١م) حتى بـدأ الشرق

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٤١ ـ ٥٤٢ .

يضطرب بالصراع بين الروم والفرس . وكان على التدمريين ان يختاروا الانضمام الى احدى القوتين الكبيرتين ، فآثروا الانضمام الى الروم .

وتولى بعد (خيران) هذا ، الملك أذينة ، وكان له ثار عند الرومان منذ ان قتل قائدهم «روفينوس» أباه (اذينة الاول) وعدم موافقة الامبراطور فاليران على ان يأخذ بثار ابيه من (روفينوس) ، ومن ثم فانه ما ان علم بهزيمة الروم فى عام ٢٦٠ على ايدى الساسانيين ، حتى اسرع بالاتصال بالفرس ، مقدما لهم الهدايا ، وعارضا عليهم صداقته ، الا ان الامبراطور الفارسى ، الذى كان يحسن فى ذلك الوقت انه ملك الشرق والغرب جميعا ، احتقر العرض التدمرى ، وأمر بالقاء الهدايا فى النهر ، وتوعد (اذينة) بسؤ المصير جزاء وفاقا على جرأته فى مخاطبة ملك الملوك ، وهو لا يعدو ان يكون شيخا لمدينة صغيرة[1] .

وعندما علم (اذينة) بموقف الملك الفارسى منه ، قرر الاخذ بثاره من هذا الملك المتغطرس ، فجمع القبائل بظاهر تدمر وجعلها تحت امرة ابنه (هروديس) ، وضم اليها فرسان تدمر بقيادة (ذبدا) كبير قواده ، والقواسة ورماة السهام تحت قيادة «زباى» ، وحشد معهم بعض الكتائب الرومانية ، وسار على رأس هذا الجيش قاصدا المدائن للانتقام من الملك الفارسى ولانقاذ (فالريان) الامبراطور الرومانى الذى كان قد وقع فى الاسر على اثر الهزيمة المخجلة التى لحقت بالروم على ايدى الفرس . وفى اثناء زحف أذينة على المدائن وصلته انباء تغلب القائد الرومانى (كاليستوس) على الفرس وتشتت شملهم وهربهم ، فغير اتجاهه واسرع اليهم لملاقاتهم ، وقد ادركهم قبل تمكنهم من عبور نهر الفرات ، فالتحم بهم وتغلب عليهم ، وولى (سابور) مع فلول جيشه مذعورا تاركا امواله وحرمه غنيمة فى ايدى التدمريين .

وكتب (اذينة) بعد ذلك الى الامبراطور الرومانى يخبره بهزيمة الفرس

---

(١) آرثر كريستنس ، ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٠ .

وباخلاصه للامبراطورية ، فانعم عليه القيصر الرومى بدرجة قائد عام على جميع عساكر الشرق · وتمكن (اذينة) بعد ذلك من فتح نصيبين وحران واستقبل هو وجنوده استقبالا عظيما ، ثم سار هو وجنوده الى طيسفون عام ٢٦٤م ، فخاف (سابور) وأمر بجمع كل ماعنده من قوات للدفاع عن عاصمته ، وأحكم (اذينة) الحصار حولها ، وكاد الامبراطور الفارسى ان يستسلم ، لولا ان المؤامرات الرومية قد لعبت دورا خطيرا فى افساد نجاح اذينة · ذلك ان القائد الرومانى «مكريانوس» ــ الذى كان سببا فى هزيمة الروم ووقوع فالريان فى الاسر ــ قد اعلن الثورة على «جالينو» ونصب نفسه امبراطورا على القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية .(آسيا الصغرى والشام ومصر) ، ومن ثم فقد اضطر (اذينة) الى رفع الحصار عن الفرس، وان يعود لاخماد هذه الفتنة الجديدة ، الا انه ما أن بدا يعد العدة لمواجهة «مكريانوس» حتى علم بقتله ، ثم اتجه الى حمص للقضاء على ولده «كياثوس» ، وبعد ان شدد الحصار على المدينة ، قتل (كاليستوس) سيده (كياثوس) ، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمى (اذينة) وفتح الابواب والتمس الامان منه · وبذا انتهت ثورة القائد «مكريانوس» ، غير ان (كاليستوس) سرعان ما عاد الى الثورة من جديد ، ومن ثم فقد أمر (اذينة) بعضا من رجالة باغتيال (كاليستوس) ، وعاد الهدوء الى هذه المنطقة الهامة من الامبراطورية بفضل جهود (اذينة) ، ومن ثم فقد أغدق عليه القيصر الرومى بلقب «امبراطور على جميع انحاء الشرق» ، اى على الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عدا اجزاء صغيرة منها،وضربت نقود باسمه صور عليها (اذينة) وورائه بعض اسرى الفرس ، واصبح تحت امرته جميع القوات الرومانية المعسكرة فى الشرق · واختار (اذينة) لنفسه لقبا آخر حبيبا الى نفوذ الشرقيين هو لقب (ملك الملوك)[1] ·

وقام (اذينة) باصلاحات اثبتت انه لم يكن قائدا قديرا فقط ، بل كان الى جانب ذلك رجل ادارة وسياسة وتسامح ايضا ، فمنع تعصب الوثنيين

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٤٣ ــ ٥٤٥ ·
جواد على ، المرجع السابق ، ص ٩٦ ــ ٩٧ ·

على النصارى واضطهادهم لهم ، ومنح كل طائفة حريتها فى ممارسة شعائرها الدينية ، واعطى النصارى الحق فى بناء الكنائس ، وتعقب اللصوص وقطاع الطرق من الجنود الهاربين الذين قاموا بالاعتداء على الآمنين ومهاجمة القوافل والمدن والقرى ٠

وفى عام ٢٦٥م ، اتجه (اذينة) الى محاربة الفرس من جديد ، فاتجه الى (طيسفون) وضرب الحصار عليها ، واضطر (سابور) الى ان يظهر استعداده لعقد محالفة مع (اذينة) ، الا ان الاخير طلب فك اسر «فاليران» وهو شرط فى نظر الفرس جد عظيم ، ومن ثم فقد أوقفت المفاوضات بين الطرفين(١) ولكن لسؤ حظ (اذينة) تغير الموقف لمصلحة الفرس ، اذ عبر «القوط» البحر الاسود ، منتهزين فرصة غياب اذينة وابتعاده عن آسيا الصغرى وبلاد الشام ونزلوا بميناء هرقلية ، واتجهوا نحو «قبادوقيا» ، ومن ثم فان (اذينة) اضطر الى رفع الحصار عن مدينة الفرس ، والعودة لقتال الغزاة الجدد ، الا ان القوط سرعان ماعلموا بعودة (أذينة) ، فعادوا الى ميناء هرقلية ، ثم ابحروا منها عائدين الى بلادهم ٠ فقرر (اذينة) الرجوع الى العراق لفتح (طيسفون) وبينما كان فى حمص لاراحة جنوده، انتهز (معنى) ابن اخيه (خيران) هذه الفرصة ، فقتل هو وعصابته عمه (اذينة) وابن عمه (هيرودس) لاغتصاب عمة منه ملكه الذى ورثه عن ابيه، ونادى بنفسه ملكا على المملكة التى كونها (اذينة) ولكنه ما كاد يتربع على العرش حتى انتقمت منه سيوف حمص عام (٢٦٦ ــ ٢٦٧م)(٢) ٠

انتقل الملك بعد مقتل (اذينة) و (معن) الى (وهبلت) أو (هبلات) ابن (اذينة) من زوجته (الزباء) ويعرف فى اليونانية بـ(اتينودورس) ، وكان قاصرا ، لذلك تولت الوصاية عليه أمه (الزباء) فعلمته اللاتينية والفروسية وهيأته ليكون ملكا كقياصرة الرومان او اكاسرة الفرس ، ومنذ ان تولت الملك بدات تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها ،

---

(١) جواد على ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٨ ٠
(٢) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ ٠

وبخاصة انها ادركت بفطنتها السياسة ان اعداء تدمر ، انما هم الرومان ، والذين لا يفكرون الا فى مصلحة روما فحسب . ومن ثم فقد بدات تتقرب الى العناصر العربية المستوطنة فى المدن ، فضلا عن الاعراب الذين كانت ترى انهم عمادها فى القتال وسندها فى الحروب . وكان بداية النزاع بين الزباء والرومان ، يوم ارسل «جالينو» بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على الزباء قبل ان يستفحل خطرها ، متظاهر بانه يريد محاربة الفرس . الا أن الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر ، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس ، كتب النصر فيها للزباء، وحاقت الهزيمة بالروم(١)، وفى نفس الوقت ، خافت الملكة ان يستغل الفرس الفرصة فيوجهوا اليها ضربة قد تكون غير مستعدة لها ، ومن ثم فقد انشات حصنا على الفرات ، دعته (زنوبيا) نسبة اليها .

ووجهت (الزباء) نظرها بعد ذلك نحو مصر ، ووضعت الخطط للاستيلاء عليها ، بعد ان مهدت لنفسها الدعوة فيها باعلانها انها مصرية ، وانها من نسل الملكة (كليوباترا) ، فلها اذن فيها ما يسمح لها بالتدخل فى شئونها . واخذت تترقب الفرص وتتحين الاسباب ، فلما قتل القيصر (غاليانس) عام ٢٦٨م ، وانتقل الحكم الى (اوريليوس فلوديوس) ٢٦٨ — ٢٧٠م ، وفى نفس الوقت كان الالمان والقوط قد بدأوا يهاجمون القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية ، مما دفع (بروبوس) الحاكم الرومانى فى مصر ، الى ان يخرج بأسطول الاسكندرية لمطاردة القوط ، وهنا بدأ الزعماء المصريون وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس — يحرضون الزباء على فتح مصر ، بل ويقدمون لها العون المادى للمساعدة على هذا الفتح ، وأمرت الملكة قائدها (زبدا) بالاتجاه الى مصر ، وكان على رأس جيش قوامه سبعون الف رجل ، وهناك دارت معركة رهيبة بين الفريقين انتهت بانتصار (زبدا) قامد تدمر الذى قرر العودة الى تدمر تاركا فى مصر حامية صغيرة من خمسة آلاف رجل بزعامة (تيما جينيس) الذى عين نائبا عن الملكة

---

(1) Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950, p. 263.

على مصر ، فلما سمع (بروبوس) بهجوم التدمريين وتغلبهم على الرومان، اسرع عائدا الى مصر ، فالف جيشا من المصريين الموالين للرومان وزحف على الاسكندرية ، واخذ يتعقب التـدمريين ، واعمل فيهم السـيف ، فلما سمعت الزباء بذلك ، أمرت قائدها بالعودة ثانية الى مصر ، فجرت معارك بين الطرفين انتهت بانتصار التدمريين على (بروبوس) عند (بابلون) اى (الفسطاط) وكتب النصر لجيش الملكة فى مصر • وانتهى الامر باتفاق بين الزباء والرومان على ان يكون حكم مصر مشتركـا بينهما ، فوافقت روما على بقاء جيوش تدمر فى مصر ، مع اعتراف تدمر بسيادة الرومان عليها • وقد عثر على عملات تدمرية نقشت فى الاسكندرية فى عامى ٢٧٠ ، ٢٧١م وعلى وجهها صورة القيصر (اورليان) بجانب صورة «وهب اللات» (ابن الزباء) مما يدل على الحكم المزدوج بينهما(١) •

ولم يدم هذا الاتفاق بين الرومان والملكة طويلا ، فقد ضغط سادات روما على الامبراطور بان ينقذ الامبراطورية مما حاق بها من تصدع فى أوروبا والشرق ، ولاسيما ان فتح الزباء لمصر والاستيلاء على الاسكنـدرية ـ اهم مدن الامبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما ـ كان ضربة اصابت الروم فى الصميم • وعندما علمت الملكة بعزم الامـبراطور الرومانى على القضـاء عليها ، قررت القيام بعمل سريع قبل مباغتة القيصر لها ، فالغت الاتفاق المعقود مع الرومان ومحو صورة القيصر الرومانى من النقود لتبرهن على قطع علاقتها بالقيصر وعدم اعترافها بالسيادة الاسمية الرومانية على مصر، وأمرت كـذلك بضرب صورة (وهبلات) وحده مـع اللقب الامبراطورى المخصص لقياصرة روما ، وفى ذلك تحدى صريح واعلان العداء لروما •

وهناك رواية تذهب الى ان (الزباء) قد تفاوضت مع الملكة (فيكتوريا) عاهلة اقليم الغـال ، لتوحيـد الخطط فى مهـاجمة القيصرية الرومـانية واقتسامها ، وبدات جيوشها تتوغل فى آسيا الصغرى ، واقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربى حتى (انقره) وظلت جيوشها تتقـدم دونما ادنى

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ص ١١٤ ـ ١١٥ •

مقاومة ، حتى (خلقدونية) مقابل بيزنطة . وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تكون لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان(١) .

غير ان تنفيذ هذه الخطة ، دعا الزباء الى ان تسحب كثيرا من قواتها من مصر ، وانتهز اورليان الفرصة ، ونجح قائده فى ان يلحق بالتدمريين فى عام ٢٧١م ، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من امبراطورية الزباء ، وكان من اخطر النتائج التى تمخضت عن فقد مصر ، ان الزباء بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها ، كما شجعت اهل (خلقدونية) بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمريين ، املا فى نجدة قريبة تاتى من القيصر الرومانى ، وهذا ما حدث بالفعل،اذ سرعان ما قدمت الجيوش الرومانية بقيادة القيصر نفسه ، فعبرت البسفور ، وطردت التدمريين من (بتينية) ثم اتجهت الى (غلاطيه) ف(قبادوقيا) حتى بلغت (انقره) . وهكذا استطاع اورليان فى عام ٢٧٢م ، ان يخضع الحاميات التدمرية فى آسيا الصغرى ، وان يتابع مسيرته حتى سورية(٢) .

وحاولت جيوش الزباء ان توقف تقدم جيوش الرومان،فى الوقت الذى اشاع فيه الرومان بين الناس بان هناك تنبؤات الهية بسقوط تدمر،لاقناعهم انه من العبث مقاومة القيصر وجنوده،وانه من الخير ترك المقاومة والاستسلام. وقد اثرت هذه الشائعات فى عقول الكثيرين،فقضت على معنويات التدمريين الوثنيين الذين يدينون بهذه الخرافات ويؤمنون بها،ومع ذلك فقد استعدت الملكة لملاقاة (اورليانوس) عند مدينة (انطاكية) وكانت هى على رأس الجيش ، أما القيادة فكانت لقائدها (زبدا) ،وتحقق النصر للملكة (الزباء) وجيوشها فى بادىء الامر وشتتوا شمل الجيش الرومانى الا ان القيصر قد أمر جنوده بالرجوع الى مسافات بعيدة ، ليوهم التدمريين انه قد فر ، فاذا ساروا فى اثرهم وابتعدوا عن قواعدهم باغتهم بالهجوم ، فلا يتمكن فرسان تدمر من هزيمتهم لثقل اسلحة الفرسان ومعداتهم وبطء خيلهم بالقياس

---

(١) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ .
(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١١٧ .

الى خيل الرومان ٠ وهذا ما حدث ، فقد خدع التدمريون وظنوا رجوعهم هزيمة ، فتعقبوهم الى مسافات بعيدة ، وفجاة انقلبت الكتائب الرومانية على التدمريين ، واطبقوا عليهم واعملوا فيهم السيوف ، وانهزموا هزيمة منكرة الى مدينة (انطاكية) ٠ وقررت الملكة سرعة الارتحال عن انطاكية لاسباب عديدة ، منها ان القوم هناك كانوا يميلون الى جانب الرومان بعواطفهم ، فهناك جاليات يونانية ذات نفوذ فى المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين ، وهناك كره النصارى للزباء بسبب موقفها من الاسقف (بوليس السميساطى) الذى عزله مجمع انطاكية ، ولكنها لم تنفذ قرار العزل ، وهناك كراهية اليهود للتدمريين(١) ٠

وتلى ذلك تعقب القيصر للملكة حتى وصل الى حمص ، وهناك تقابل الفريقان للمرة الثانية وكان النصر للتدمريين فى الجولة الاولى ، ثم هزيمة لهم فى الجولة الثانية ،مما اضطرها الى ترك حمص والاحتماء بتدمر نفسها، ودخل (اورليان) حمص وتوجه بالشكر الى اله الشمس ، وتعهد بتوسيع معبده وتجميله ٠ وادرك القيصر ان النصر الحقيقى لن يتم الا بالقبض على (الزباء) وفتح تدمر ، لذلك قرر الزحف اليها باقصى سرعة قبل ان تتمكن الملكة من تحصين مدينتها ومن الاتصال بالفرس وبالقبائل العربية فى البادية فيصعب عندئذ الاستيلاء عليها،فسار مسرعا حتى بلغ المدينة والقى الحصار على تدمر ، غير ان المدينة قاومت بشدة ، وعرض اوليان على الزباء التسليم بشروط معتدلة ، غير ان الملكة رفضت العرض باباء وشمم ، مذكرة اياه بأنها تفضل مصير كيلوباترا على عار الاستسلام له ، وانها سوف تلقنه درسا قاسيا على جرأته فى الكتابة اليها ، طالبا منها الاستسلام ، عندما يحين الوقت ، ويأتى اليها اعوانها من الفرس والعرب والارمن ٠ ومن الجدير بالذكر ان الملكة لم تجد عونا من كل هؤلاء ، فقد كانوا هم انفسهم فى شغل شاغل عنها ، ومن ثم فقد قررت ترك عاصمتها للاقدار ، والتسلل منها ليلا للوصول بنفسها الى الفرس لعلهم يرسلون لها نجدة تغير الموقف ٠ ولما علم اورليانوس بنبأ هرب الملكة ارسل رجاله فى اثرها وامرهم بالقبض عليها

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٥٦ ٠

مهما كلفهم الامر ، ونجح هؤلاء الرجال فى القبض عليها وأعـادوها الى (اورليانوس) وهكذا لم يعد أمام تدمر سوى الاستسلام ، ومن ثم فقد فتحت ابوابها فى اوائل عـام ٢٧٣م لقيصر روما ، فدخلها اورليانوس دخـول الفاتحين ، واقام حاكما رومانيا عليها مع عدد من الرماة . وهكذا عادت تدمر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ، بعد ان شقت عصا الطاعة منذ أسر فالريان عام ٢٦٠م(١) .

واخذت الزباء الى حمص ، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها . وتذهب بعض الروايات الى ان الزباء قد تنصلت من مسئوليتها عما حدث، فضلا عن اعترافها بانها لم تكن الا الاحتقار لامثال جالينوس وكلوديوس ، ولكنها تعترف لاورليانوس وحده بانه ملك فاتح ، الا أن كثير من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التى لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الاخلاق والشجاعة ، وأيا ما كان نصيب هـذه الرواية من الخطأ أو الصواب فان اورليانوس قد أمر باعدام بعض رجال الزباء ، وان كان قد ابقى عليها هى وابنها (وهبلات) بغية الحاقهما بموكب النصر الذى سوف يقيمه عند دخوله روما ، عاصمة الامبراطورية الرومانية(٢) .

وفى اثناء رحيله الى روما جاءته الانباء بقيام ثورة عاتية فى تـدمر ، واخرى فى مصر ، وهنا لم يتردد اورليانوس فى ان يولى وجهه شطر سوريا، وقضى على ثورة التدمريين ، وانهال عليهم بالتنكيل ، ولم ينج من عقابه الرهيب احدا من الشيوخ أو النساء أو الاطفال . وبذلك فقدت المدينة كل عظمتها القديمة ، واخذ اورليانوس السهام والاقواس فى تدمر ليعملوا فى فى خدمة الجيش الرومانى فى أفريقية .

أما الملكة الزباء فقد انتهى الامر بها بأن تقبع فى بيت خصص لها فى «تيبور» بايطاليا مع أولادها وان تعتزل السياسة والشرق . أما تدمر فقد ذهب كل مجدها ولم تعد سوى قرية صغيرة وقلعة من قلاع الحدود فى عهد

---

(1) Gibbon, E., Op. Cit., p. 267.

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٢٤ .

دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) ، وفى حوالى القرن الخامس الميلادى كانت تدمر مقاطعة تابعة لولاية فينيقية ،وعين فيها ثيودوسيوس (٤٠٨ ـ ٤٥٠م) ، فرقة من الجنود لحراستها وحمايتها من هجمات رجال البادية • وفى العام الاول من حكم (جستنيان) ٥٢٧ ـ ٥٦٥م اصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للامبراطورية ومن ثم فقد أمر الامبراطور بتقوية حاميتها واصلاح ما تهدم من مبانيها ، فضلا عن تحصين قلاعها واسوارها وتحسين موارد مياهها ، ثم اتخاذها مقرا لحاكم ولاية فينيقية • ومع ذلك ، فان تدمر بدأت تفقد اهميتها شيئا فشيئا ، ورغم الاشارة اليها كمركز اسقفى فى الصحراء ، فان الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء، وظلت كذلك حتى فتحها (خالد بن الوليد) صلحا فى عام ٦٣٤م ، على ايام الخليفه ابى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ غير انها لم ولن تعد كما كانت ايام الزباء •

واخيرا فانه يوجد فى تدمر فى الزمن الحاضر ، ثروة تاريخية مطمورة تحت الانقاض ستفيدنا ولا شك فائدة كبيرة فى تدوين تاريخ المدينة وتاريخ صلاتها بالخارج • ومن المواضع العديدة التى ذكرها (بطليموس) فى مقاطعة تدمر (بالميرا Palmyra)، وهى تدمر العاصمة ، ثم (الرصافة) وهى مدينة قديمة ورد خبرها فى النصوص المسمارية فى نص يعود الى عام ٤٨٠ ق•م وقد اشتهرت بوجود ضريح القديس (سرجيوس) بها وهو مقدس عند الغساسنة(١)

---

(١) عن آثار تدمر ، انظر :
السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ ـ ١٩٢ •

الفصل الثاني عشر

الغساسنة

الغساسنة

قامت على اطراف الصحراء فى القرنين الخامس والسادس الميلادى دويلتان جديدتان ، ازدهرت احداهما حول دمشق وعرفت بدولة الغساسنة، اما الاخرى فقد ازدهرت فى الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات وعرفت بدولة اللخميين • وكانت هاتان الدولتان تابعتين لامبراطورية بيزنطة وفارس ـ وكانتا بمثابة مركزى حراسة لهما على حدود الصحراء • وقد عرف ملوك الغساسنة ببنى جفنة ايضا ، وقد نقلت كلمة (غسان) فى زعم الاخباريين من اسم ماء يقال له (غسان) ببلاد (عك) بزبيد وربيع ، نزل عليه آل غسان ، وأصلهم من الازد ، بعد خروجهم من اليمن قبيل حادث سيل العرم أو بعده ، فلما اقاموا عليه وشربوا منه ، اخذوا اسمهم منه ، فسموا (غسان) ، وعرف نسلهم بالغساسنة•أما سبب تسميتهم بآل جفنة فلانتسابهم الى جد اعلى يدعونه (جفنة بن عمرو فريقياء بن عامر) على رأى ، أو الى (جفنة) قبيلة من غسان من اليمن •

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر ، ولامتزاج الحقائق فيه بالاساطير ، ولضياع معظم آثار بنى غسان ، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية الا فى القدر اليسير ، بل ان المؤرخين العرب انفسهم انما يختلفون فى عدد الملوك وسنى حكمهم واسمائهم • وربما يرجع ذلك الاختلاف الى اختلاط اخبار آل غسان بالقبائل العربية التى سبقتهم الى سوريا ، واقتصار مؤرخى العرب على الناحية الادبية من تاريخ الغساسنة ، واهمال تاريخهم السياسى ، اضف الى ذلك هذا التشابه فى الاسماء بين حارث ومنذر ونعمان ، واختلاط ذلك ايضا بالتشابه والتقارب مع اسماء ملوك المناذرة(١) •

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٦٢ ـ ٥٦٣ •

ويزعم الاخباريون ان الذى قاد الغساسنة فى خروجهم من اليمن ، هو عمرو المعروف بـ(فريقيا) وهو ابن عامر ماء السماء بن حارثة ، وقد نزح معه من اليمن قومه من الازد ،فنزل المدينة ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ، ومنهم الاوس والخزرج ، ونزل مكة رهط حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم خزاعة ، ونزل جفنة بن عمرو بن عامر بالشام وهم الغساسنة ، وقد استوطنوا ارض حوران حيث كان هناك قوم يعرفون (بالضجاعمة) من قبائل بنى سليح بن حلوان من قضاعة ، قد استقروا هناك ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية من قبل مجىء الغساسنة ٠

وقد استقر الغساسنة ايضا فى نواحى الجنوب الشرقى من دمشق على مقربة من الطرف الشمالى لطريق النقل الهام الذى كان يربط بين «مارب» فى الجنوب ودمشق فى الشمال[1] ٠ وما ان يمضى حين من الدهر على هجرة الغساسنة الى الشام حين تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعمة ، وقد بدأ هذا الخلاف عندما فرضت سليح (وهم من الضجاعمة) جباية سنوية قدرت بدينار على كل رجل ، وكان من الطبيعى ان تؤدى جباية هذه الضريبة من غسان ، الذين (كانوا لا يعرفون الجباية) ، الى صدام بينهم وبين عرب بنى سليح ، ثم بينهم وبين الروم الذين فرضوا حمايتهم وسيادتهم على بنى سليح ٠

وتم اللقاء الاول بين الغساسنة ــ الذين قتلوا الجابى السليحى ــ وبين عساكر الروم الذين يظن انهم كانوا من سليح ، فى موضع عرفه العرب بوادى الكسوة ، نظرا لسلبهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا فى المعركة ٠ وهكذا عرف الروم قوة بنى غسان ، فصالحوهم (على ان تعطى غسان الذمة ، والدخول والخروج من البلد والمرعى والنصرة ضد العدو ، والمواصاة والعدل) ٠

وهكذا ثبت الغساسنة اقدامهم فى ارض الشام الى جانب السليحيين ٠

---

(١) المسعودى (ابو الحسن على بن الحسين) ، التنبيه والاشراف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٥٨ ٠

وكان من الطبيعى أن ينتهى الامر بانتزاعهم السيادة على كل البلاد من الضجاعمة رؤساء سليح ، بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح «الذين كانت اجسامهم مع قيصر وقلوبهم مع غسان» منها : يوم بالعة الذى انهزمت فيه الروم ، ومنها اللقاء الذى تم بمرج الظباء وهو يوم حليمة الذى وقفت فيه قبائل العرب ، من سليح وكناية وجذام الى جانب الروم حتى وافقت غسان على الصلح فظنر دفع الجزية وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذى عرف لذلك السبب بـ (باب الجابية) ، وهذا يعنى تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام ، مما ادى الى الحرب من جديد . ووقفت سليح الى جانب الروم ، بينما اتت المعونة الى الغسانيين من بنى عمومتهم فى يثرب ، وانتهى الامر بانتصار غسان حتى اضطر قيصر الى صلحهم على ان لغسان ملك الشام ، وان لملكهم طعمة على الروم ، وان ينصروه فى الحرب .

والجدير بالذكر ان العاصمة السياسية للغساسنة يبدو انها كانت فى البدء مخيما متنقلا ، ثم استقرت بعد ذلك فى «الجابية» فى منطقة الجولان جنوب غربى دمشق ، كما كانت فى بعض الوقت فى «جلق» فى جنوب حوران[1] .

أما عن ملوك الغساسنة فتذكر رواية (وهب بن منبه) أن أول من ملك من الغساسنة هو (عمرو بن جفنة) الذى حقق الانتصارات التى سبق ذكرها على الروم ، وربما حدث ذلك فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، أو قبل ذلك بقليل . ويعد (الحارث بن جبلة) المعروف لدى الاخباريين بـ«الحارث الاعرج» وبـ (الحارث الاكبر / ٥٢٨ - ٥٦٩م) أول أمير نعرف من أمره شيئا واضحا يذكر من أمراء آل جفنة ، وهو فى نظر (نولدكه) (ارتياس) الذى ذكره المؤرخ السريانى (ملالا) على أنه كان عاملا للروم[2] .

وهناك ما يشير الى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث امير الحيرة ،

---

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
(٢) تيودور نولدكه ، امراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين زريق وبنرلى خورى ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٩ .

ربما بسبب العداوة التي انتقلت اليهم من العداوة التى كانت بين الفرس والروم ، وربما لان أمير الحيرة ادعى ان القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمر ، أنما تخضع لسلطانه ، فنازعه الامير الغسانى هذا السلطان. وأيا ما كان السبب ، فان الرجلين اشتبكا فى ابريل من عام ٥٢٨ فى حرب كتب النصر فيها للحارث الغسانى ، ومن ثم فقد منحه (جستنيان) قيصر الروم ، لقب ملك ــ وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم فى سورية من قبل ــ كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة ، بغية ان يجعل منه خصما قويا لامير الحيرة ، وان كان (نولدكه) يشك فى منح القيصر الرومى الحارث لقب ملك ، ذلك لان هذا اللقب كان خاصا بقياصرة الروم ولا يمنح لغيرهم ، ويرجح ان يكون (جستنيان) قد منحه لقب (بطريق) ولقب (سيد القبيلة) (فيلارخوس) . ولقب البطريق من القاب الشرف الفخمة عند الروم ولصاحبه امتيازات ومنزلة فى الدولة ، ولذلك فلم يكن يمنح الا لعدد قليل من الخاصة(١) . والجدير بالذكر ان نص (ابرهة) الذى ورد فيه ذكر اسم (الحارث بن جبلة) لم يورد لقب ملك مقترنا باسم الحارث ، ويدل ذلك على ان (ابرهة) قد اتبع الاصول الدبلوماسية المقرة عند البيزنطيين ، وان لقب ملك لم يكن لقبا رسميا للحارث وكان ذلك عام ٥٤٢م .

هذا وقد اشترك (الحارث بن جبلة) فى المعركة التى نشبت بين الفرس والروم فى ١٩ ابريل عام ٥٣١م ، وانتهت بهزيمة الروم . وقد اثار تصرف الحارث فى هذه الحرب شك الروم فى اخلاصه لهم ، والحذر منه ، اذ ماكاد هذا الامير يعبر نهر دجلة مع قائد الروم (بليزاريوس) حتى عاد فرجع الى مواضعه بعد ان سلك طريقا آخر غير الطريق الذى اتبعه معظم الجيش دون أن يقوم بعمل يذكر فى هذه الحرب ، مما جعل الروم يشكون فى صداقته لهم ، ويراقبون حركاته ، خوفا من انقلابه عليهم(٢) .

وفى عام ٥٤٤م تجدد النزاع ثانية بين الحارث والمنذر امير الحيرة ،

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٠ ــ ١٢ .
(٢) جرجى زيدان ، المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

وتشمل البلقاء والصفا وحران،واصبحت بصرى العاصمة الدينية فى المنطقة، فضلا عن شهرتها كمركز تجارى هام .

وجاء بعد الحارث ابنة المنـذر (٥٦٩ ـ ٥٨١م) أو (٥٧٠ ـ ٥٨٢م) وقد عرف بـ Alamundaros عند اليونان والسريان ، وقد استهل حكمه بالحرب مـع ملك الحـيرة قابوس ، والظاهر ان عرب الحيرة كانـوا هم البادئين بها ، فانتصر عليهم فى يوم ٢٠ مايو ٥٧٠م فى معركة عين أباغ . وحدث فى عهد هذا الامير ان ساءت العلاقات بين الغساسنة وبين قيصر الروم الامبراطور جستنيـان الثانى (٥٦٥ ـ ٥٧٨م) ، وربما كـان ذلك بسبب الخلافات المذهبية بـين الفريقين ، وتعصـب المنـذر الغسانى للمـذهب المونوفيزى ، بل أن هناك من يذهب الى ان المنذر قد عقد مجمعا كنسيا اعلن فيه هرطقة القائلين بالتثليث ، وعلى رأسهم الامبراطور نفسه ، وربما لان سياسة المنذر كانت هى السبب فى استيلاء الفرس على (Rhomayc) واحس المنذر بأن القيصر يدبر له مؤامرة ، وانه امر عامله البطريق (مرقيانوس) بان يحتال عليه لقتله ، تمرد على الروم ، وغـادر ارضهم الى البادية ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة المؤاتية فامعنوا فى غزو بلاد الشام ، وايقاع الرعب فى نفوس سكان القرى المجاورة لهذه الحدود مما حمل الروم على مراسلة المنذر والتودد اليه لاسترضائه ، حتى اذا ماتلطف الجو ارسلوا اليه البطريق (يوسطنيانوس) ليجتمع به فى مدينة الرصافة عنـد قبر القديس (سرجيوس) لاقناعه بترك موقفه والموافقة على العودة الى محله . وعند القبر المقدس عقد الصلح بينهما فى صيف عام ٥٧٨م ، فعاد المنذر الى أرضه، ليقوم بالدفاع عن حدود الشام .

هذا وقد قام المنذر بزيارة القسطنطينية فى عام ٥٨٠م مصطحبا اثنين من ابنائه ، وقد استقبل هناك بكل احترام وتبجيل وأنعم عليه الامبراطور تيبيريوس الثانى (٥٧٨ ـ ٥٨٢م) ، بلقب (Rex)وبالتاج وهو لقب كان له شأن كبير فى امبراطورية الروم ، وقد أغدق القيصر عليه بالهـدايا الثمينة النفيسة مما لم ينعم به اى ملك عربى من قبل،كما انعم على ولديه بدرجات

عسكرية . هذا وقد اطلق مـؤرخو الروم على المنـذر لقب «المنـذر ملك العرب»(١) .

وقد قام المنذر بتجديد بناء كنيسة الرصافة ، كما بنى صهاريج لايصال الماء الى الرصافة مدينة القديس (سرجيوس) ذى المكانة العظيمة عند عرب الشام ، كذلك فقد طلب المنذر وهو فى القسطنطينية من البيزنطيين مساعدته فى بناء قصر يكون اعظم قصر غسانى بنى ، حتى ايامه ، وذلك بأن يرسلوا اليه احسن المعماريين والبنائين الحاذقين ، فلبى البيزنطيون طلبه فأمدوه بما يحتاج اليه من معماريين ومن مواد بناء . ومن ابنيته الخربة المعروفة اليوم بناء يعرف باسم البرج ، وقد عثر على اسمه مدونا على حجارة من ذلك البنـاء .

على ان العلاقات بين المنذر والروم ، سرعان ما بدأت تسؤ من جديد ، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التى قام بها الروم لغزو الفرس ، بسبب هدم الجسر المنصوب على الفرات ، واتهام المنذر بذلك ، وزاد الطين بلة ان المنذر اراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة واحرقها بالنار ، ثم عاد محملا بالغنائم الكثيرة ، غير ان هذا النجاح الساحق الذى حققه المنذر على اللخميين لم يمح ريبة الروم فى ولائه لهم ، وانما اعتبروه تحديا لهم ، ورغبة منه فى الخروج على طاعتهم ، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة افتتاحه لكنيسة فى حوارين ، وقبضوا عليه وارسلوه الى العاصمة البيزنطية ، مع احدى نسائه وبعض بناته وأولاده ، حيث بقى هناك الى أن تولى «موريس» (٥٨٢ ــ ٦٠٢م) العرش ، فامر بنفيه الى صقلية فى عام ٥٨٢م فضـلا عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة(٢) .

اثار عمل الروم هذا ثائرة ابناء المنذر ، فتركوا ديارهم ، وتحصنوا بالبادية ، واخذوا يهاجمون منها حدود الروم ملحقين بهـا اذى شديدا ، فاضطر القيصر على اثره ان يوعز الى القائد (ماكنوس) بتجهيز حملة من

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٠ .
(٢) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص ٤٤٩ .

ابناء المنذر الحق بها احد اخوة المنذر ، وكان قد اعد ليتولى مقام اخيه ، غيرانه توفى بعد ايام . ولما كان من الصعب على الروم مهاجمة أبناء المنذر فى البادية ، عمد القائد الى المكيدة ، فارسل الى النعمان كبير ابناء المنذر انه يريد مقابلته للاتفاق معه على وضع شروط للصلح . وقد ظن الامير ان القائد صادق فيما دعا اليه فذهب لمقابلته ، فقبض عليه الروم ، وارسلوه الى العاصمة حيث حجروا عليه فيها ، وهكذا تصدع ملك الغساسنة . وانقسم امراؤهم شيعا واحزابا تركت بعضها ديارها فهاجرت الى العراق وتشتت الباقون ، ولم يبق لهم شانا يذكر ، ولم يشر الكتبة السريان او البيزنطيون الى ملك الغساسنة بعد هذا الحادث ، وقد عقب هذا التصدع حدوث اضطراب فى الامن وفوضى بين القبائل التى اخذت تتنافس بينها للحصول على الرئاسة والسيادة ، مما حمل البيزنطيين على التفكير فى اختيار رئيس قوى من سادات القبائل المتنافسين ليقوم بضبط هذه القبائل واعادة الامن الى نصابه وحماية الحدود من هجمات عرب الحيرة ، ولكن دون جدوى ، حتى استطاع الفرس على ايام «كسرى أبرويز» (٥٩٠ ــ ٦٢٨م) غزو سوريا ، فاستولوا على انطاكية ودمشق وبيت المقدس وخلقدونية ، ثم فتحوا مصر فى عام ٦١٩م ، وان كان فيما يبدو ان هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١م) حين نجح فى استعادة سوريا عام ٦٢٩م، ربما استعمل الغساسنة مرة اخرى، بدليل انهم قد حاربوا المسلمين مرارا فى جانب الروم ؛ وان خالد بن الوليد قد اوقع بهم فى «مرج الصفر» جنوب دمشق عام ٦٣٤م .

وأيا ما كان الامر ، فان الروايات العربية تنظر الى «جبلة بن الايهم» على انه آخر الغساسنة وانه قد حارب المسلمين فى جانب الروم فى موقعة اليرموك عام ٦٣٦م[1] .

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٢٧ .

الفصل الثالث عشر

مملكة كندة

مملـــكة كنـــــــدة

كندة هى قبيلة قحطانية تنسب الى ثور بن عفير بن عدى بن الحارث ابن مرة ، وينتهى نسبه الى كهلان من سبأ ، وقد عرفت عنـد الاخباريين بـ(كندة الملوك) ، لان الملوك كان لهم على بادية الحجاز من بنى عدنان ، ولانهم ملكوا أولادهم على القبائل . وكانوا يتعززون بنسبهم الى كندة ، وكندة هى (كدت) وهى القبيلة التى ورد ذكرها فى نص أبرهة ،وفى نصوص عديدة قبل هذا العهد ، اذ ورد ذكرها فى احدى النصوص التى تنسب الى واحد من ملوك سبأ وذى ريدان ، ويرجع الى النصـف الثانى من القرن الاول قبل الميلاد ، وقد جاء فى هذا النص انة فى عهـد الملك «شعرأوتر» انضمت كندة والتى يحكمها «ربيعة» من آل ثور ، والذى كان ملكـا على قحطان ايضا ، الى صفوف اعداء ملك سبـأ وذى ريدان . وكانت كنـدة مستقلة وعلى راسها ملك ، فى ايام «الشرح يحضب» ملك سبأ ، وكان ملكها اذ ذاك من المناهضين المعادين للملك «الشرح يحضب» واشترك فى الحلف الكبير الذى تالف ضد مملكة (سبأ وذى ريدان) ، وقد منيت (كندة) بهزيمة على يد جيش سبأ ووقع ملكها فى الاسر وكان يدعى (مالك) ، وفقدت كندة بعد هذا العهد استقلالها فى وقت لا نستطيع تحديده لعدم ورود شىء عنه فى النصوص ، وصارت خاضعة لحكم دولة سبأ وذى ريدان[1] .

واول من ذكر اسم كندة من المؤلفين الكلاسيكيين هو (نونوسوس) وقد دعاها باسم (Kindynoi) اى كندة ، وذكرا انها وقبيلة (مادينوى) كانتا من اشهر القبائل العربية عددا ومكانة ، يحكمها رجل واحد اسمه (قيس) ، وتعتبر كتابات الاخباريين من اهم المصـادر التى يعتمد عليهـا المؤرخ فى دراسة مملكة كندة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الاخباريين ابن الكلبى وله مؤلف

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

خصصه لتاريخ كندة ، سماه : (كتاب ملوك كندة) ، وله مؤلفات اخرى لها علاقة بهذه القبيلة ، وابو عبيدة والاصمعى وغيرهم ٠

ويذكر الاخباريون ان مواطن كندة الاصلية كانت بجبال اليمن مما يلى حضرموت ، وان جماعات من كندة قد غادرت مواطنها فى النصف الاول من القرن الرابع الميلادى ، واتجهت شمالا حتى نزلت فى مكان دعى فيما بعد «غمر كندة» أو «غمر ذى كندة» ـ وهى أرض لبنى جنادة بن معد فى نجد ، وتقع وراء «وجرة» على مسيرة يومين من مكة ٠ على ان الاخباريين انما يختلفون فى اسباب هجرة الكنديين الى الشمال ، فذهب فريق الى أن السبب أنما كان حربا استعمر أوراها بين حضرموت وكندة ، ثم طال أمدها حتى كادت ان تقضى على الكنديين ، ومن ثم فقد اضطروا الى النزوح الى الشمال ، فرارا بانفسهم من الفناء(١) ٠

ويرى آخرون أن السبب انما كان لان «حسان بن تبع» كان آخا لحجر آكل المرار من أمه ، وان حسان كان قد دوخ بلاد العرب وسار فى الحجاز (ربما حوالى عام ٤٨٠م) ، وعندما اراد العودة الى اليمن ولى اخاه حجرا على معد بن عدنان كلها ، فنجح فى ولايته ، واحسن السيرة فى رعيته حتى لم يرضوا به وباله بديلا ، على ان (ابن خلدون) انما يذهب الى ان التبابعة انما كانوا يصاهرون «بنى معاديه بن عنزة» الذين كانوا يملكون فى «دمون» ، وانهم كانوا يولونهم على بنى معد بن عدنان فى الحجاز ، وان أول من ولى منهم انما كان حجر آكل المرار وان الذى ولاه ، انما هو تبع ابن كرب الذى كسا الكعبة ٠ وهناك رواية رابعة تذهب الى ان سفهاء بكر قد غلبوا عقلاءها ، وان القوى منهم قد أكل الضعيف ، فنظر العقلاء فى امرهم ، ثم استقر رأيهم آخر الامر ، ان يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، فنهاهم العرب ، وعلموا ان هذا لا يستقيم بان يكون الملك منهم ، لانه يطيعه قومه ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد ساروا الى بعض تبابعة اليمن ،

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٠١ ـ ٦٠٢ ٠

اشتقاقا منطقيا من بعل ، وانما هو اسم مصطنع ابتدعه كهان تدمر ليجنبوا الجمهور الخطا من الخلط بين بعل «وبعل شمين»(١) .

اما الاله «رضى» فهو الهة الثموديين والصفويين ، وقد جاء فى النقوش الثمودية بصيغ مختلفة منها «رضو» و «رضى» و «رضا» ، وقد ذكرته النصوص الصفوية كثيرا فى نقوش يتوسل فيها اصحابها اليه بان يمن عليهم بالسلامة والنعم ، وان يبعد عنهم شر الاعداء وكيدهم . ويرى بعض الباحثين ان رضى قد عبد عند عرب الجاهلية كالهة انثى فى صيغته «رضى» او «رضاء» ، وعبد كاله ذكر عند الثموديين فى صيغته المذكرة (رضو)(٢) .

اما عبادة الكواكب فقد سادت جنوب شبه الجزيرة العربية ، وكان اهم هذه الكواكب هو الثالوث الذى يمثله القمر والشمس والزهراء ، ويمثل القمر من هذا الثالوث دور الاب ، اما الشمس فتمثل دور الام ، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن . وتمثل عبادة هذا الثالوث من الكواكب تداخلا بين مرحلتين من مراحل تطور المجتمع ، فعبادة القمر والزهراء هى عبادات مجتمع رعى فى المقام الاول ، فالانتقال فى البادية يكون فيه ضوء القمر وسيلة لتوضيح المعالم والشىء ذاته بالنسبة لكوكب الزهراء الذى يمكن التعرف على الوقت والاتجاه من خلاله ، ولكن ربما كانت القيمة الاساسية هى ان القمر بالذات يرمز الى فترة الليل حيث تهبط درجة الحرارة وتتكثف الابخرة الموجودة فى الجو لتتحول الى ندى يبعث الحياة فى العشب الذى تتكون منه المراعى ، بينما اشعة الشمس بالنسبة للمجتمعات الزراعية هى التى تعطى النماء للزراعة وهى التى تنضج المحصول ، وقد كانت العربية الجنوبية منطقة زراعية فى المقام الاول ، ولكنها عرفت شيئا من الرعى كذلك فى بعض مناطقها ، واكثر من ذلك فان الرعى يمثل مرحلة مبكرة

---

(1) Hussaud, R, La Penetration des Arabes on Syrie auant L, Islam, Paris, 1955, p. 92-94.

(2) Caskel, W., Lihyan und Lihyansch, Koln, 1954, 47, 143.

جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء السادس ، ص ١٧٠ .

تظهر عادة فى المجتمعات قبل مرحلة الزراعة التى تمثل بالضرورة مرحلة اكثر استقرارا ومن ثم اكثر تطورا ٠

وربما كان العرب الجنوبيون متاثرين فى هذا الثالوث ببلاد الرافدين حيث نرى نفس الثالوث يحتل مكانة ممتازة هناك ٠

والاله القمر كانت له منزلة خاصة فى ديانة القوم فهو كبير الآلهة ، وله اسماء والقاب عـديدة فى الاساطير والطقوس والتقويم واسماء الاعـلام ، وبلغت مكانته الى حـد دفع بعض العلماء الى القول بان الـديانة العربية الجنوبية انما هى ديانة قمرية وذلك لان الاله القمر كان قويا مهيمنا على سائر مناحى الحياة المدنية والسياسية ٠

ويعرف الاله القمر بالاله (ود) عند المعينيين ، و(المقه) عند السبئيين، و (عم) فى قتبان و (سين) فى حضرمـوت ، وهو اله (معين) الكبـير ٠ والجدير بالذكر ان القمر ما كان يسمى فى النصوص باسمه ، وانما كان يشار اليه بكناه وصفاته فى غالب الاحايين ، وربما كان العرب الجنوبيون يفعلون ذلك تادبا أمام من يرونه رب الارباب ، اذ ليس من المقبول ان يخاطب ربه كما يخاطب غيره من البشر ، كذلك فان كل الاساطير التى لدينا بمحتوياتها المختلفة انما ترجع الى القمر ، وقد اختير الثور كحيوان مقدس لاله القمر، نظرا لان قرنيه يذكران بالهلال[١] ٠

أما الالهة الشمس فتاتى فى المرتبة الثانية بعد الاله القمر ، وقد عبدت فى مواضع مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وان كنا لا ندرى على وجه اليقين متى بدأت عبادة الشمس ، الا ان هناك نصا قرآنيا يستدل منه على انها كانت موجودة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك ان القرآن الكريم يحدثنا ان ملكة سبأ على أيام سليمان ، عليه السلام ، كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله ؛ ولما كان سليمان يحكم فى الفترة (٩٦٠ ـ ٩٢٢ق٠م) فان عبادة الشمس قد وجدت منذ القرن العاشر ق٠م على الاقل ٠

---

(١) ديتلف نلسن ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، محمد بيومى مهران ، الديانة العربية القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، ص ١٩ ـ ٢٢ ٠

(ماريا) زوجة للحارث الغسانى الاكبر . هذا وقد قامت (ربيعة) بثورة على (عمرو المقصور) منتهزة فرصة الضعف فى آل كندة على أيامه ، وكان قد ظهر من بنى تغلب فى نفس الوقت رجل قوى هو (وائل بن ربيعة) تمكن من انتزاع جميع قبائل ربيعة التى كانت تحت سيطرة آل كندة ، ثم التقى مع عمرو فى معركة على مقربة من جبل القنان ، انتهت بقتل عمرو وتحرير قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة الى حين(1) .

وجاء بعد عمرو ولده الحارث ، وقد اختلف المؤرخون حول تحديد فترة حكمه فذهب البعض الى انها كانت من عام ٤٩٥ ــ ٥٢٨م ، وذهب آخرون أنها كانت من عام ٤٩٥ ــ ٥٢٤م ، وعلى اى حال فلقد كان الحارث اقوى ملوك كندة واعظمهم شخصية ، وعلى عهد الحارث وصلت كندة الى اوج ازدهارها ، فقد نجح فى استعادة سلطانه على قبائل ربيعة فى نجد ، وبنى أسد وبنى كنانة وبنى بكر .

وقد بدأ الحارث بغزو فلسطين عام ٤٩٧م ، الا ان الحاكم الرومانى قد الحق بجيشه هزيمة منكرة ، ولكن حدث بعد ذلك ان بدات قبائل البلغار والصقالية تتغلغل فى تخوم الامبراطورية البيزنطية الشمالية ، ثم سرعان ما تعود الحرب بين الروم والفرس من جديد عام ٥٠٢م ، وهكذا رأى الامبراطور الرومانى ان يقلل من اعدائه ، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على ان يترك آل كندة مهاجمة الشام ، وان يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة .

أما فيما يتعلق بالفرس ، فقد انتشرت الاضطرابات على ايام قباذ (٤٨٨ ــ ٥٣١م) وقد قام هذا الملك بدعوة (المنذر بن ماء السماء) الى المزدلية وهى مبادىء تدعو الى نوع من الاشتراكية فى الاموال والنساء ، فابى ، وأسرها قباذ فى نفسه ، وعندما عرض دعوته هذه على الحارث الكندى اسرع باجابته اليها ، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة ، واقام مكانه الحارث الكندى ، وعندما استشعر الحارث الكندى ضعف الملك

---

(1) عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ــ ٨٨ .

الفارسى ، بدأ يخطط لنفوذ أوسع فى العراق على حساب الفرس ، وهكذا أمر رجاله بأن يشنوا الغارة على السواد ، ويعلم قباذ بالامر ، فيكون جوابه على ذلك اعطاء الحارث الكنـدى بعض المناطق التى تقع فى مجـاورات الحيرة ، الا ان الحارث كان اكثر طموحا ، فكتب الى «تبع» ملك اليمن ان يجمع الجنود ويأتى اليه ، واستجاب تبع للحارث واقبل بجنوده وسار بهم حتى نزل بالحيرة ،ثم وجه ابن اخية «شمر ذى الجنـاح» الى قباذ فحاربه وانتصر علية ، اما التقاء الحارث بقباذ فكان عند قنطرة الفيوم ، وهى موضع لا يبعد كثيرا عن «هيث» وهى بلدة على الفرات(١) .

هذا وقد اختلف المؤرخون فى مقر الحكم الذى اختاره الحارث الكندى فى العراق ، فبينما يذهب فريق الى انه فى الحـيرة ، يرى آخرون انه فى «الانبار» وتقع على مبعدة اربعين ميلا الى الشمال الغربى من بغداد(٢) .

وأيا ما كان الامر،فان ملك الحارث لم يستمر طويلا فى العراق،فعندما اعتلى عرش الفرس (كسرى انو شروان) ٥٣١ ـ ٥٨٩م ، قام بطرد الحارث الكندى ، واعاد المنذر الثالث الى عرش الحيرة ، وقام هذا الاخير بتتبع الحارث الكندى واهله ، حتى أسر اثنى عشر اميرا من بنى حجر بن عمرو، ثم قتلهم وكان من بينهم الحارث . ولا شك ان ذلك المصير التعس الذى لقيه الرجل ، ومن أسر من اهل بيته ، انما كان ضربة فى الصميم وجهت الى دولة كندة ، وسرعان مادب الشقاق فيها ، فانحلت عراها بعد ان قتل ابناء الحارث واحدا بعد الآخر(٣) .

ولم يكتف المنذر اللخمى بذلك بل عمل على تشتيت شمل ابنائه والتفريق بينهم حتى نشبت بين اثنين منهم وهما (سلمة) و (شرحبيل) الحرب التى عرفت بين العرب (بيوم الكلاب الاول) واعلن فيهـا كل من الاخوين عن جائزة مقدارها مائة من الابل لمن يأتيه برأس اخيه ، وكـان يوما عصيبا

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث،ص ٣٣٤ ومابعدها.
(٢) ياقوت الحموت ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٣) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦١٥ ـ ٦١٦ .

اشتدت فيه الحرب حتى آخر النهار ، وانتهى بقتل شرحبيل[1] . وتفرق الابنــاء جميعهم .

وقد اثرت كل هذه الاحداث على دولة كندة ،فعملت على اضعاف ملوكها وتضعضع نفوذهم ، فكانت البداية تتمثل فى خروج بنى اسد على (حجر ابن الحارث) فامتنعوا عن دفع الاتاوة التى كان قد فرضها عليهم من قبل، ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة ، وما ان وصل الى ديار بنى اسد فى جنوب جبل طىء حتى قتل الكثير من اشرافهم ، واخذ بعضا منهم أسرى الى تهامة ، مما ترك اثرا سيئا فى نفوذ القوم ، فعقدوا العزم على الانتقام، ومالبثوا ان نفذوا وعيدهم ، وقتلوا الرجل[2] .

وتولى مقاليد الامر بعده ابنه (امرؤ القيس) الشاعر المشــهور وكان اصغر ابنائه ، وكان ابيه حجر قد طرده واصر على ان لا يقيم معه ، آنفة من قوله الشعر ، على غير عادة ابناء الملوك ، فضــلا عن التغزل بالنساء غزلا ، وهكذا اخذ امرؤ القيس يسير فى احياء العرب ، ومعه اخلاط من شذاذ العرب ، يشرب الخمر ، ويتغزل بالنساء ، وظل كذلك حتى اتاه خبر مقتل ابيه ، فاقسم الا ياكل لحما ولا يشرب خمرا ، ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امراة ، ولا يغسل راسه من جنابة حتى يدرك ثاره .

ولقد بدا أولا بضم بكر وتغلب اليه ثم بث العيون على بنى اسد ، فعلم انهم لجاوا الى بنى كنانة ، ومن ثم فقد بدأ هجومه على بنى كنانة ــ وهو يظنهم بنى اسد ــ الا ان القوم سرعان ما اخبروه ان بنى اسد قــد ساروا بالامس ــ فاسرع اليهم حتى اذا ما ادركهم انزل بهم هزيمة قاسية ، غير ان قبيلة تغلب وبكر رفضت الاستمرار فى القتال بعــد ذلك ، مما اضطره ان يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة ابيه ، واستجــاب له بعضــهم ، ورفض آخرون خوفا من بنى اسد ، وخوفا من اغضاب المناذرة والفرس ، وقرر امرؤ القيس ان يذهب الى القسطنطينية ليستنجد بملك الروم ، الذى

---

(١) ابن الاثير ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٥٤٩ ــ ٥٥٢ .
(٢) اليعقوبى ، المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٢١٧ .

احسن استقباله ، وان لم يقدم له المساعدة المطلوبة ؛ فالنجدة التى طلبها امرؤ القيس كبيرة جدا ، والجيش الرومى لم يكن مستعدا للقتال فى الصحراء ، ثم ان الغاية التى جاء من اجلها امرؤ القيس ــ وهى الاخذ بثار رجل واحد ــ كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم ، فضلا عن ان الامبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة ، ومن ثم فالامبراطورية كانت فى حاجة الى الدفاع عن امبراطوريته نفسها(١) .

ومع ذلك فقد أرسل الامبراطور جستنيان جيشا كثيفا مع امرؤ القيس ، فبلغ ذلك بنى اسد ، فارسلوا رجلا منهم يدعى (الطماح) اتصل بجماعة من رجال القيصر وطلب منهم ان يبلغوا القيصر «ان العرب قوم غدر ، ولانامن ان يظفر امرؤ القيس بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه» . ولكن حدث بعد ذلك أن توفى امرؤ القيس وهو فى ديار الروم على اثر مهاجمة داء قديم له كان مصابا به . وعلى ذلك انقطع آخر امل فى استعادة «بنى اكل المرار» لملكهم فى كنــــدة .

وهكذا انتهت أول محاولة فى داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة لها زعيم واحد ، اذ سرعــان ما عادت عشائر كندة الى الجنوب ، حيث ساد منهم (قيس بن معد يكرب) ثم ابنه (الاشعث) . ثم تكونت بعد نهــاية دولة بنى أكل المرار ، امارة كنــدية فى حضر موت ، فضلا عن أمارات أخرى حكمها امراء صغار ، لا تتجاوز سلطة الواحدة منهم مدينة أو واديا ، واشهرها تلك التى كانت فى دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذى كندة .

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٢٠ ــ ٦٢٢ .

الفصل الرابع عشر

الفكر الدينى العربى القديم

الفكر الدينى العربى القديم

سادت فى شبه جزيرة العرب العـديد من المعتقدات الدينية سـواء فى الجنوب أو الشمال أو وسط شبه الجزيرة ، وسنتناول فيما يلى المعتقدات الدينية التى وجدت فى شـبه الجزيرة العربية بشىء من التفصـيل بدءا بالمعبودات التى عبدت فى الشمال، ثم المعبودات الجنوبية والتى كانت تتجه نحو عبادة الكواكب ، وبعد ذلك سنشير الى عبادة الاصـنام ، ثم انتشار اليهودية والمسيحية فى بلاد العرب ، واخيرا نتحدث عن الحنيفية . ونبدأ دراستنا بالآلهة الشمالية :

من هذه المعبودات التى عبدت فى الشمال الاله دوشرا وهو اله النبط الكبير الذى نشر القوم عبادته فى اماكن بعيدة تجاوزت حـدود نفوذهم . ودوشرا هو لقب عربى اطلقه الانباط علية ومعناه «سيد شرا» والمقصود هنا الشراة ، وهى المنطقة الجنوبية التى تقع جنوبى البتراء ، والتى لا تزال تسمى كذلك حتى اليوم ،وقد جعله الكتاب اليونان بمنزلة الههم«ديونيسوس» اله الخصب وبخاصة الكروم ، وقد اتجه البعض الى الاعتقاد بـأن دوشرا انما كان اله خصب وزرع فى الاصل ،وذلك لان منطقة الشراة التى نسب اليها كانت غنية بالزرع والتمر(١) .

أما اللات فكانت كبيرة آلهة الصفويين واكثرها ورودا فى دعواتهم ، بل ربما كانت أهم الآلهة عندهم ، وقد تعبد لها الانباط وعدوها أما للآلهة ، وقد ورد ذكر اللات فى العـديد من النقوش النبطية ومنهـا تلك التى من «صلخد» بحوران ، وترجع الى اعوام ٤٠ ، ٥٠ ، ٦٥م وتتحدث عن هذه

---

(١) ابن الكلبى ، كتاب الاصنام ، ص ٣٨ ، ريجيس بلاشير ، تاريخ الادب العربى ، العصر الجـاهلى ، ترجمة ابراهيم الكيلانى ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٦٣ .

Cook, G., Palmyra, in EB, 17, 1964, pp. 218-219.

الآلهة وعن بناء معبد لها ٠ وقد عرف التدمريون اللات كذلك ، وهناك نقش تدمرى يرجع الى عام ١٢٩م ، يذكر «اللات» بين الاله شمس والاله رجيم، ويصف النقش هـذه الآلهة الثلاثة بانهـا «الآلهة الطيبة» ، وقد صـورت «اللات» فى الآثار التدمرية بسمات الآلهة اليـونانية «ايثنى» الهة الحرب والحكمة ، وهذا دليل على تقدير عظيم لحكمة اللات ٠ واللات من الاصنام القديمة المشهورة عند العرب ، ويبدو انها انتقلت الى الحجاز من الانباط والقبائل العربية الشمالية ، وكانت لها مكانة عظيمة لديهم ، فكانت ثقيف بالطائف تخص اللات بما كانت تخص به قريش العزى ، فكان الواحد منهم اذا ما قدم من سفر توجه الى بيت اللات فتقرب اليه وشكره على السلامة٠

وتذهب المصادر العربية الى ان «عمر بن لحى» هو الذى ادخل اللات على العرب ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فقد كان اللات رجـلا من ثقيف يلت له السوق للحج على صخرة اللات ، فلما مات الرجل اشاع عمر بن لحى انه لم يمت وانما دخل فى الصخرة ثم أمر بعبادتها وان يبنوا عليها بنيانا يسمى «اللات» ، وكان تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غبغب» حفظت فيها الهدايا والنذور والاموال التى كانت تقدم للصنم ٠ وكان للات حمى وحرم فى جوار الطائف يقصده حجيج مكة وسواها ويقدمون لها الذبائح ٠

وتذهب المصادر العربية الى ان قريشا قبل الإسلام ، أنما كانت تطوف بالكعبة ، وتقول : «واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، فإنهن الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى»(١) ٠

ويعد الاله «بيل» من المعبودات التى عبدها الشماليون ، وكان الها لتدمر ، ومن المرجح ان أهل تدمر اخذوا الاسم بيل عن بابل حيث يطلق هذا الاسم على الاله بعل ٠ وان كـان هناك من يرى ان بيـل ليس مشتق

---

(١) رينية دوسو ، العرب فى سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١١١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الثانى ، ص ١٧١ ، ابن الكلبى ، كتاب الاصنام ، ص ١٦ ٠

وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم ان يملكوا عليهم ملكا ، فكان ذلك الملك هو حجر آكل المرار ٠

وعلى اى حال ، فربما كانت هذه الروايات جميعا ، انما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة ، الاولى تمثل الهجرة من اليمن الى نجد ، والثانية تمثل مرحلة استقرار الكنديين فى مواطنهم الجديدة ، وكيف كونوا لهم امارة فى نجد ، ومن ثم فيمكن القول ان هذه المرحلة الثانية انما تمثل التاريخ الحقيقى لكندة ٠ ولعل الهدف من اقامة دولة كندة ، ان التبابعة لجأوا الى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التى كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية ، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها ، وبخاصة ان الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء ، انما كانت وقتذاك تحاول ان تؤلف القبائل لتحمى حدودها من غزواتها ، وتمدها بالجند ، وتسير معها فى الحروب متحالفة على اعدائها ، فاذا كان ذلك صحيحا ،فان تولية حجر آكل المرار تكون سياسة يمنية حكيمة ، فقد كانت عصبة حجر يمنية ، وكان هو من أسرة تولت الملك فى بلادها الاولى ، ثم ان هذه الاسرة كانت قد استقرت فى الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية ، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من اقامة دولة كندة ، ما حققه الروم من اقامة دولة الغساسنة ، والفرس من اقامة دولة اللخميين ، وتصبح كندة لتبابعة اليمن ، ما كان اللخميون للفرس والغساسنة للروم(١)٠

ويرى بعض المؤرخين ان حجر بن عمرو (٤٨٠ ــ ٥٢٨م) يعد أول ملوك كندة ، ربما كان ذلك بناء على ما رأوه تقليدا شرعيا بالولاية من قبل ملك العرب الاكبر ، حسان بن تبع الحميرى ، هذا الى جانب ان حجرا يمكن ان يعتبر اول شخصية تاريخية فى قائمة ملوك كندة يمكن الاطمئنان اليها ٠ هذا وقد تمكن حجر بن عمرو ان ينتزع جانبا من الارض التى كانت تحت سيطرة المناذرة ، ثم نزل فى مكان يدعى «بطن عاقل» ــ جنوب وادى

---

(١) سبتينو موسكاتى ، المرجع السابق ص ٣٥٦ ، عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٨٣ ٠

الربعة على الطريق بين مكة والبصرة • وهكذا تسرب النفوذ الاجنبى الى مكان جديد فى شبه الجزيرة العربية ، وهو نفوذ رومى مناهض لنفوذ الفرس فى الحيرة ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة • و ن كان هناك من يخالف هذا الاتجاه اعتمادا على ان الروايات العربية ذهبت الى ان الذى اقام حجرا ملكا على كندة ، انما هم الحميريون وليس الروم او الاحباش ، كما ان اليمن لم تكن وقتذاك تسير فى فلك النفوذ الرومى أو الحبشى ، فضلا عن ان ملوك كندة انما عملوا بعد ذلك عند الفرس ، وليس عند الروم او الاحباش ، وان تحالفوا مع الروم حينا من الدهر • وكان للحجر آكل المرار وقائع مع الغسانيين ، فيقال ان الحارث الغسانى أغار عليه واستولى على أموالة ، ولكنه نجح فى استنفاذها منه • وتوفى حجر آكل المرار فى (بطن عاقل) فى وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، وان اتجه البعض الى تحديده بالعقد الاخير من القرن الخامس الميلادى(١) •

وخلف (حجر آكل المرار) ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر) ، ربما لانه اقتصر على ملك ابيه ، وربما لان (ربيعة) قد اضطرته الى ذلك، وانة لم يحمل لقب (ملك) وانما اكتفى بلقب (سيد كندة) ، وان اليمامة انما كانت من نصيب اخيه معاوية المعروف بالجون ، ويبدو ان «عمرا بن حجر» كان على علاقة طيبة بملوك اليمن ، ومن ثم فقد تزوج بنتا لحسان ابن تبع اسعد الاكبر ، كما كانت كذلك باللخميين ، ولهذا فقد تزوج «الاسود ابن المنذر» ملك الحيرة من (أم الملك) ابنة عمرو المقصور ، فولدت له (النعمان بن الاسود)(٢) •

هذا وقد اختلفت الآراء حول علاقة (عمرو المقصور) بالغساسنة ، فذهب البعض الى انها كانت علاقة عدائية ، وان عمرا كان فى احايين كثيرة يشن الغارة عليهم ، بينما ذهب فريق آخر الى ان العلاقات كانت طيبة ، وان عمرا قد تزوج من (هند الهنود) بنت (ظالم بن وهب) ، وكانت اختها

---

(١) جواد على ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٥ •
(٢) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٦٠٧ ــ ٦٠٨ •

وقد عبدت الشمس فى قتبــان وحضرموت وسبا وقد اطلق عليها عنــد السبئيين تسمية «ذات حم» و «نكرح» عند المعينيين ، وفى النقوش القتبانية تسمى «ذات صهرن» و «ذات رحبن» . ورغم ان التوراة قد أشارت الى عقوبة عبادة الشمس وهى الموت ، الا ان عبادتها قد انتشرت فى مدن يهوذا .

والجدير بالذكر ان عبادة الشمس قد انتشرت بصفة اساسية فى القسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية حيث تقع مملكتى تدمر والانباط ، وربما يرجع ذلك الى قربهمــا من حضارتين زراعيتين مستقرتين واتصــالهم بها وما استتبع ذلك من تاثيرات عن طريق المواصلات التجارية ، وهما حضارة مصر فى الغرب حيث كان «رع» اله الشمس هو الاله الاول ، وحضارة وادى الرافدين فى الشرق حيث تطور المجتمع الى مجتمع زراعى كثيف فى المراحل اللاحقة للفترة السومرية حيث اصبح «شمش» اله الشمس احد الآلهة الرئيسية فى مجتمع الآلهة فى وادى الرافدين(١) .

أما الزهرة فهى الاله عثتر ، ويقابل «عشتار» عند البابليين والاشوريين وعشتارت لدى الكنعانيين والفينيقيين والاحباش و «عتر» عند السريان مما يدل على انه كان من الآلهة التى كانت عبادتها شائعة فى منطقة واسعة ، كما كان كذلك من الآلهة الكبرى قبل الميــلاد . وقد حاول بعض البــاحثين اثبات ان الزهرة هى «العــزى» غــير انهم لم يقدمــوا أدلة تثبت وجهة نظرهم هــذه(٢) .

وعلى اى حال فان عبادة الكواكب فى بلاد العرب،لم تكن مقصورة على هذا الثالوث المشهور ، وانما عبد القوم كذلك ــ وبخاصة قبائل لخم وخزاعة وحمير وقريش ــ «الشعر العبور» وقد سميت كذلك لانها تعبر السماء عرضا . وهناك كذلك ما يشير الى ان بعض العرب قد عبدوا الثريا والنجم بدليل وجود اسماء مثل عبد الثريا ، وعبد نجم ، كما عبد البعض الآخر المريخ وسهيلا وعطــارد وزحل . والى جانب هذه الآلهة ، هناك طــائفة أخرى

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران،نفس المرجع السابق،ص ٢٢ ــ ٢٤ .

(٢) جواد على ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

كبيرة من الآلهة الخاصة تحمى بعض الاماكن أو القبائل بل والاسر كذلك ويشار اليها غالبا بالاسم «بعل» ومعناه صاحب أو سيد ٠

وفيما يتعلق بعبادة الاصنام فى شبه الجزيرة العربية فيعتبر كتاب الاصنام لمؤلفه ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب من أهم المصادر التى وصلت الينا(١) ، وتتناول هذا الموضوع ، والاوثان هى الاصنام ، والحجارة هى الانصاب (جمع نصب) عندما تنصب بعضها فوق بعض ، وكانت طقوس عبادة كل منهما تختلف عن الاخرى ٠ والذى يفهم من كتاب الاصنام ان عبادة الانصاب حجازية الاصل ، وأهم طقوسها هو الدوران او الطواف حول النصب ، بينما كانت لعبادة الاصنام أو الاوثان طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين ٠ وبالنسبة لعبادة الانصاب يقول ابن الكلبى «انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة» ٠ فحينما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا به وصبابة بالحرم وحبا له ، فكان عبادة الانصاب نابعة من الطواف حول الكعبة ٠

أما الاصنام فيقول صاحب كتاب الاصنام : «واشتهرت العرب بعبادة الاصنام فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت ، نصب حجرا امام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت»(٢) ٠

وتذكر الروايات العربية أن عبادة الاوثان كان أول من نشرها بين العرب هو عمرو بن ربيعة المشهور بـ لحى بن حارثة الخزاعى وانه جلبها من الشام ٠ ويقدم العلماء القدامى منهم والمحدثون عدة أراء عن كيفية بداية عبادة الاصنام فى بلاد العرب ، وتكاد تتفق الآراء على ان العرب لم تبدأ ــ بادىء ذى بدء ــ بعبادة الاصنام ــ وانما اتخذتها أولا رمزا للاله أو

---

(١) انظر : ابو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى ، كتاب الاصنام القاهرة ، ١٩٦٥ ٠

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣ ٠

الالهه ـ أو حتى الاشخاص الصالحين منهم ـ وبمرور الزمن نسى القوم أمر هذه الرموز ، فعبدوها من دون الله لاسباب مختلفة ، فهنـاك من عبد ـ كاساف ونائلة ـ بسبب المسخ ، حين ظن القوم انهما رجل وامرأة من جرهم، وقد وقع بهم مكروه فسخا ، وهناك من عبد «اللات» بسبب التقمص ، حيث يروى أن اللات كان رجلا قد مات الا ان عمر بن لحى اخبر القوم انه لم يمت ، وانما دخل الصخرة ومن ثم فقد عبد .

وفى الحقيقة ان كلمة الاصنام ليست عربية اصيلة وانما هى معربة من كلمة «شنم» ويرجح أن تكون قد عربت اما من الكلمة الآرامية (صلمو) ، أو العبرية (صلم) ، والكلمة التى وردت فى النصـوص العربية الجنوبية للاصنام هى (صلمو) بمعنى صنم وتمثال ، وفى الكتابات العربية الشمالية، جاءت تحت اسم (صلم) كاسم لاله علم ازدهرت عبادته فى تيماء عام ٦٠٠ ق٠م ٠ واهم الاصنام التى عبدها العرب (العزى) وهى من اعظم اصنام قريش وبنى كنانة ، ويرى ابن الكلبى انه احدث فى عبادته من اللات ومناة، وذلك بناء على انه وجد ان من تسموا بهما من العرب مثل : عبد الـلات وزيد مناة ، اقدم ممن تسموا بعبد العزى ، وأول من عبد العزى هو ظالم ابن سعد الذى بنى لها بيتا فى موضع حراض من وادى نخلة الشامية على يمين الطريق الصاعد من مكة الى العراق(١) .

وقد اصبحت العز عند العرب الهة الخضر ، حينما قامت على ثـلاث سمرات ـ ومعنى السمرة ضرب من شجر الطلح ـ فى وادى نخلة ، وصعدت الى السماء فى صورة امرأة حسناء ، وعرفت بالزهرة ، وقد كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج .

وكان للعزى مكانة عند عرب الجاهلية ، فكانت تعظمها أشد الاعظام ، حتى انها كانت قد جمعت لها شعبا فى وادى حراض يقال «سقام» يضاهون به الكعبة ، كما اقامت لها منحرا تنحر فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد

---

(١) محمد بيومى مهران ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية، ١٩٨٨ ، ص ٣٧٠ .

«منى» ، ويبدو ان عبـادة العزى كانت واسعة الانتشار فى بـلاد العرب ، وهناك ما يشير الى ان عبادتها قد تسربت كذلك الى عرب العراق والشام ، والى الانباط والصفويين ، وكان سدنة العزى من بنى شيبان بن جابر بن مرة من بنى سليم(١) ٠

أما «منـاة» فهى الثـالثة الاخرى التى ورد ذكرها ـ بجانب الـلات والعزى فى القرآن الكريم «افرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الكبرى» ٠ ومناة لفظة مشتقة من المنا والمنية هو الموت او القدر ، ومن المنية المذون ، بمعنى «القدر المقدور» معبود النبطيين ، وربما سميت كذلك ايضا لان دماء النسائك كانت تمنى عندها ، اى «تراق» ٠

ويروى الاخباريون ان العرب جميعا انما كانت تعظم مناة وتذبح حول صنمها ، وكـانت الاوس والخزرج ومن ينزل بالمدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون اليه ، وان كان الاوس والخزرج اشد الناس اعظاما له ، لعل ورود اسم هذا الصنم فى القرآن الكريم ، فضلا عن دخولة فى تركيب كثير من أسماء الاعلام مثل عبد مناة ، وزيد مناة انما هو دليل على انتشار عبادة «مناة» بين كثير من قبائل العرب ٠ هذا وقـد ظلت «مناة» معظمة عند العرب حتى سنة ٨هـ / ٦٣٠م حينما هدمها على ابن ابى طالب بأمر الرسول(٢) ٠

أما (ود) فقد جاء ذكره فى القرآن الكريم بين خمسة اصنام عبدها قوم نوح ، عليه السلام ، حيث يقول سبحانه وتعالى : «وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذودا ولا سواعـا ولا يغوث ويعوق ونسرا» ٠ وقـد عرف (ود) لدى المعينيون من اهل اليمن قديما رمزا للاله القمر ، وذلك فى منطقة دومة الجندل ، فى وادى القرى ، وحسب وصف ابن الكلبى كان ود تمثالا على هيئة رجل ضخم ٠ والظاهر ان سدنته من قضاعة قد كسوه من الثياب حلتين

---

(١) ابن الكلبى ، كتاب الاصنام ، ص ١٧ ـ ١٨ ، سبتينو موسكاتى ، المرجع السابق ، ص ٣٧١ ٠

(٢) ابن الكلبى ، المرجع السابق ، ص ١٣ ـ ١٥ ٠

واحدة فوق الاخرى ، وقلدوه سيفا وجعلوا قوسا على منكبه وحربة بين يديه تحمل لواء وجعبة فيها النيل ، مما جعله وكانه يمثل اله الحرب(١) •

أما (هبل) فكان من اعظم اصنام قريش ، ومن ثم فقد كان اعظم الاصنام فى الكعبة ، التى اتخذت منها العرب مقرا لاصنامها واوثانها ، وقد وضع القوم الى جانب صنم هبل الازلام وهى القداح أو السهام التى كان اهل الجاهلية يستقسمون بها ، ويذهب بعض المستشرقين الى ان «هبل» انما هو رمز القمر ، بينما ذهب البعض الآخر الى ان صورة الحية أو تمثالها انما يشير الى هبل • وكذهب ياقوت الحموى الى أن هبل أنما كانت صنما لبنى كنانة ، وكانت قريش تعبده ايضا(٢) •

أما (اللات) التى يمكن ان تكون اشهر آلهة العرب وقتئذ ، فكانت احدث من مناة ،وهى الهة الطائف التى تمثل الشمس ، كما يرى المحدثون • ورغم انه من المعروف انها كانت آلهة مؤنثة ، وانها ربما كانت الالهة لاتون عند اليونان الذين اخذوها عن عرب اليمن ، فان بعض الروايات العربية القديمة تجعلها فى شكل صخرة مربعة ، والظاهر انهم قالوا ذلك عندما حاولوا تفسير اسم اللات فقالوا انه من لت السويق أو العجين الذى كان يقوم به بعض اليهود عندها أو عليها •

وقد ذكر ابن الكلبى انه على ايامه كان موضع اللات فى المكان الذى بنيت فيه المنارة اليسرى بمسجد الطائف ، وكان سدنتها من بنى عقاب بن مالك الثقفيين ، قد بنوا لها بناء من بيت أو كعبة ، وقد ظلت اللات معظمة من ثقيف وقريش وسائر قبائل العرب الى سنة ٨هـ.عندما هدمها المغيرة بن شعبة بامر الرسول بعد ان دخلت ثقيف فى الاسلام واهل الطائف •

أما (يعوق) فكان صنم لكنانة ومن قبل كان لقوم نوح ، وكان (يعوق)

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، الجزء الثانى ، ص ١٩١ – ١٩٢ •
(٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الاول ، ص ٢٥٤ •

على هيئة الحصان وقد عبدته قبائل همدان في قرية خيوان وهى على مسيرة ليلتين من صنعاء بالنسبة للقادمين اليها من مكة(١) ٠

اما الصنم (نسر) فكان من معبودات قبائل حمير في موضع يقال له بلخع من أرض سبأ من اليمن وذلك قبل دخول حمير في اليهودية ٠ وتذهب المصادر العربية الى ان كلمة نسر اسم كوكبين يفرقون بينهما فيقولون : النسر الواقع والنسر الطائر ، والراجح أن يعوق ونسرا كانا كوكبين ، قبل أن يكونا صنمين ، وكان يصور على صورة نسر من الطير ، وقد وجدت له اصنام منحوتة على الصخر ، وبخاصة في أعالى الحجاز(٢) ٠

اما (يغوث) فكان يعبد في قبيلة مدحج وهى قبيلة يمنية الاصل،ويتجه بعض الباحثين الى ان يغوث يمثل الاسد ، وانه كان (طوطم) مدحج تحمله معها ابان وقوع المعارك بينها وبين اعدائها وانه كان يتولى مهمة الدفاع ، وقد ادخل القوم اسم صنمهم هذا في تركيب بعض الاسماء ، ومن ثم فقد وجدنا اسم (يغوث) يتردد بين كثير من القبائل العربية(٣) ٠

أما (ذو الخلصة) فقد عبد في تبالة جنوبى مكة في طريق اليمن ، على مسيرة سبع ليال ، وكان يصور عادة على هيئة «مروة» (صخرة) بيضاء منقوشة ، وكان سدنته من بنى امامة من قبيلة باهلة ، وقد ارسل الرسول عليه الصلاة والسلام جرير بن عبد الله لهدمه بعد فتح مكة ، فنشبت بينه وبين قبيلتى خثعم وباهلة القتال ، اذ ان هذه القبائل دافعت عن الصنم بشدة(٤) ٠

وتعد الكعبة أعظم بيوت الاصنام في بلاد العرب ، وقد شبهها بعض الباحثون المحدثون بالبانثيون اشهر معابد الآلهة في روما القديمة ٠ وكانت الاصنام توضع في جوفها وحولها ٠ وتتمثل طقوس عبادة هذه الاصنام في

(١) ابن الكلبى ، كتاب الاصنام ، ص ٥٧ ٠
(٢) ابن هشام ، ،المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ٨٨ ٠
(٣) ابن الكلبى ، المرجع السابق ، ص ٥٧ ٠
(٤) اليعقوبى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥ ٠

زيارتها أو الحج اليها وتقديم الهدايا لها ، كما كانت تقرب عندها القرابين من الذبائح وخاصة عند استخارتها فى الامور الشخصية او الامور العامة . وكانت بيوت الاصنام هذه لها حرمتها عند العرب ، فكانت ملاذا لمن يلجا اليها حتى بالنسبة للمطلوبين من قبل العدالة .

أما عن انتشار اليهودية فى بلاد العرب(١) ، فلقد عرفت هذه الديانة منذ اقدم عصورها ، نظرا لان بلاد الشام كانت مهدا لليهودية ولذا لم يكن من الغريب ان تصل الى بلاد العرب وخاصة الاقاليم المتحضرة منها والتى كانت لها علاقات اقتصادية وسياسية بالعالم الخارجى . وفيما يتصل بانتشار اليهودية فى اليمن ـ فقد كان ـ طبقا لرواية الاخباريين منذ ايام تبان أسعد أبو كرب ملك اليمن الذى كان قد خرج لحرب الاوس والخزرج بالمدينة يثرب ، وانه اراد خراب المدينة فمنعه حبران من اليهود من ذلك ، واقنعاه بما للمدينة من حرمة «وانها مدينة النبى» مما يمكن ان يعنى انهما نجحا فى ادخاله فى ديانتهما . وتذكر الرواية ايضا انه عندما عاد الملك الى بلاده اصطحب الحبرين معه ، وأعلن ترك عبادة النار التى كانت تعبدها حمير، وان اليهودية هى ديانة البلاد . وأدى ذلك الى غضب القوم عليه لخروجه على دينهم وتم الاحتكام الى النار فلم تؤثر فى الحبرين شيئا ، وبذلك تاكدت اليهودية كديانة رسمية . ويرى بعض المؤرخين ان هذه الرواية أقرب الى القصص الشعبى ومن الصعب التصديق بصحتها .

وهناك نص عرف بنص (جلازر ٥٥٤) من القرن الخامس الميلادى جاءت فيه جملة «رب السماء والارض» وقد استدل البعض من هذه الجملة إنها تشير الى التوحيد الخالص . وتشير رواية اخرى الى أن اليهودية قد انتشرت فى اليمن منذ ايام ذى نواس التى كانت أمه يهودية وقد ساعد على انتشار اليهودية وقتذاك ان ملوك حمير لم يخشوا على انفسهم من اعتناق اليهودية ان تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع . ان لم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية .

---

(١) انظر فى ذلك : محمد بيومى مهران ، دراسة حول الديانة العربية القديمة ، ص ٤٩ ـ ٥٨ .

ويرى الاستاذ العقاد ـ ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة منذ ايام السبى البابلى ، فى القرن السادس ق٠م لقرب بابل عن طريق البحرين الى اليمن ـ بينما يرى فريق من المؤرخين ان اليهودية قد انتشرت فى اليمن منذ اخريات القرن الاول ، واثناء القرن الثانى الميلادى ، اعتمادا على ان الفرقة اليهودية التى صاحبت «اليوس جالليوس» فى حملتة على اليمن عام ٢٤ ق٠م ربما فضلت البقاء فى اليمن ، ولم تعد الى فلسطين ٠

وهناك فريق آخر من المـؤرخين يرى ضرورة الرجـوع للقرآن الكريم لمعرفة تاريخ بداية انتشار اليهودية فى اليمن ، والذى يتضح انه انما كان فى القن العاشر ق٠م ، ذلك لان القرآن الكريم يحدثنا ان قصة ملكة سبا مع سليمان علية السلام ، قد انتهت بقولها «رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين» ٠

اما عن دخول اليهودية الى الحجاز ويثرب ، فترجعها بعض الروايات الى ايام موسى أو داود وغزوهم للعماليق ، ويرى البعض ان اليهود اقاموا فى الحجاز منذ أيام «نبونيد» أو «بخت نصر» ، بمعنى ان أهل الحجاز عرفوا اليهودية عن طريق العراق ، وكان اليهود قد انتشروا من العراق فى بلاد العرب الشرقية وتاجروا مع اهلها ٠ ومن أهم المستعمرات اليهودية التى فى الحجاز تلك التى فى تيماء وفدك وخيبر ووادى القرى ويثرب ، وفى الاخيرة تجعل الروايات وجـودهم بها اقـدم من سكنى الاوس والخـزرج ، ومن المرجح ان تكـون يثرب هى المركز اليهودى الـذى انتشروا منه فى شمال الحجاز ٠ وكان يهود بنو النضير يقيمون فى وادى بطحان من أودية يثرب التى تكثر فيها المياه ، وكانت لهم فيه حصونهم المعروفة بالاطام ، اما بنى قريظة فكان لهم حصون وآبار ٠

وتعد خييرر من أهم مراكز اليهود بعد يثرب ، ويذكر الهمذانى انه على ايامه كان بخيبر «قوم من يهود وموال وخليط من العرب» ، وقيل ان اسم خيبر عبرانى ويعنى الحصن ، والظاهر ان ذلك كان بسبب مابها

من الحصون . وتعد تيماء ايضا من مراكز اليهـود فى شمال الحجاز قد عرفت بتيماء اليهـود .

اما فى مكة ، فان عدد اليهود بها كان قليلا ويستدل على ذلك مرا سم وجود معبد لليهود فى مكة ، الى جانب عدم وجود حى خاص بهم كما ان كفار مكة كانوا يذهبون الى يثرب ليسالوا احبار يهود عن النبى ـ ـ اذ لو كان هناك يهود فى مكة ماذهب القرشيون الى احبار المدينة .

اما النصرانية[1] والتى اطلقت فى العربية على اتباع السيـد المسيح ، عليه السلام ، فان دخولها الى بلاد العرب امر يصعب تحديـده ، انه يمكن القول بصفة عامة ، ان وجود النصرانية بين العرب فى بعض مناطق اقامتهم المختلفة ، ربما كانت قديمة قدم النصرانية نفسها . وهناك آيات من القرآن الكريم تشير الى وجود اتباع للمسيح فى مكة على ايـام المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ـ فسورة مريم التى تتحدث عن ولادة المسيح وانكار الوهيته ، وسورة الروم ، والتى تتحدث عن انكسار الروم المسيحيين أمام قوات الفرس ، تدل على ان الكتابيين بمكة انما كانوا من النصارى . وقد ذهب البعض الى ان صورة السيد المسيح وامه مريم ، قد وجدت فى الكعبة المشرفة عند فتح مكة فى العام الثامن للهجرة ، وان هـذا يعد أثرا من آثار النصرانية فى مكة قبل الاسلام ، واذا صحت هـذه الرواية فانها تـدل الى جانب وجود النصرانية وانتشارها فى مكة على ان هناك بعضـا من العمال النصارى شاركوا فى بناء الكعبة .

ومن بين من عرفوا بمكة بأنهم نصارى نسطاس مولى صفوان بن أمية القرشى وحنا أو يوحنا عبد صهيب بن سنان الرومى .

اما فى المدينة المنورة ، فقد كان هناك موضع يقال له «سـوق النبط» يسكن فيه نصارى ، وكان فى بادىء الامر مكانا يقصـده تجار الشـام من الانباط الذين كانوا يحملون الحبوب والزيت والنبيذ ، ولما كان هؤلاء من النصارى فمن المقبول أن يعرفوا بعض الناس بديانتهم . وهناك من يذهب

---

(١) انظر : محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ٥٩ ـ ٧٠ .

الى ان ابا عامر الراهب الانصارى ـ فضلا عن جماعة من الاوس ـ كانوا قد فروا من المدينة ولجاوا الى مكة ، ثم جاؤا مع المشركين لقتال المسلمين فى غزوة أحد . هـذا وقد انتشرت النصرانية بـين عرب الشـام اكثر من انتشارها بين عرب العراق ، وربما كان السبب ان الروم ، اصحاب السلطان على الشام ، كانوا نصارى ، كما انهم كانوا يتخذون من النصرانية وسيلة من وسائل بسط نفوذهم على الغساسنة وغير الغساسنة ، ومن ثم فقد كانوا يشجعون حركة التبشير بين الاقاليم غير النصرانية . أما النصرانية فى العراق فانما قامت فى بلاد يسيطر عليها قوم وثنيون ، ولم تكن النصرانية واحدة من وسائل تقوية نفوذهم فى العراق . ومع ذلك فالنصرانية كانت منتشرة بين جزء كبير من أهل الحيرة ، وخاصة بين الجماعة التى عرفت بالعباد ، كما كان هناك عدد من الكنائس والاديرة التى اشتهرت بين العرب ، وكان أول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان أبو قابوس فى أواخر القرن السادس ميلاديا ، وقبل ان يتنصر مولك الحيرة كان بعض أفراد عائلتهم قد دخلوا فى المسيحية ، ومن امثلة هؤلاء هند زوجة المنـذر الثالث التى بنت ديرا وكنيسة بقى منها النقش التاسيسى الذى يقول ، على وجه التقريب :

«هذه الكنيسة شيدتها هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة وابنة الملوك ، خادمة المسيح ، وأم خادمه ، وابنة خدامه ، على عهد ملك الملوك كسرى انو شروان ، وكان (افرم) أسقفا للمدينة» .

أما فى بلاد الشام فان الغسانيون كانوا قد تنصروا ، كما انهم تمسكوا بمذهبهم اليعقوبى (الارثوذكسى) عن قناعة وليس لاغراض سياسية .

وأما عن بداية النصرانية فى اليمن ، فهناك رواية تذهب الى أن دخول النصرانية الى اليمن انما تم على يد التبع (عبد كلال بن مثوب) وقد اخذها عن رجل من غسـان . وهنـاك رواية اخرى تـذهب الى ان راهبا دعوه (فيميون) قد خرج ومعه تابع يقال له صالح من بلاد الشام فى طريقه الى شبه الجزيرة العربية ، الا ان الاقدار وضعت فى طريقهما سيارة من العرب، خطفوهما وباعوهما فى نجران ، وهناك استطاع هـذا الراهب ان يبصر القوم بعبادة ربهم الواحد الاحد ، فآمن القوم بدين «فيميـون» ومن هنا

كانت النصرانية فى نجران . اما المصادر النصرانية اليونانية فتذهب الى ان الامبراطور البيزنطى «قسطنطين الثانى» (٣٥٠ - ٣٦١م) قد ارسل عام ٣٥٦م «ثيوفيلى» الى اليمن لنشر المسيحية وقد نجح الرجل فى مهمته وانشا كنيسة فى ظفار واخرى فى عدن وثالثة فى هرمز . اما المصادر السريانية فترجع نشر المسيحية فى اليمن الى تاجر يمنى دعته او جيان وكان قد تلقى مبادىء المسيحية فى الحيرة وعند عودته الى نجران بشر بها بين قومه .

وهناك رأى آخر يذهب الى ان انتشار المسيحية فى اليمن لم يكن عن طريق واحد ، وانما اتخذ سبلا مختلفة وطرقا عدة ، وجاءت الى اليمن من الشمال عن طريق الشام فالحجاز مرة ، وعن طريق الغرب من الحبشة مرة اخرى ، وربما من العربية الشرقية مرة ثالثة . وقد تبع دخول المسيحية فى اليمن انشاء الكنائس ومن أهمها الكنيسة المشهورة «القليس» فى صنعاء ، وكان الهدف من اقامتها صرف الحجيج من مكة الى صنعاء وما يتبع ذلك من فوائد مادية وأدبية وسياسية ، وكانت نجران ايضا من أهم المراكز المسيحية فى بلاد العرب الجنوبية ، وقد شيدت بها كنيسة عرفت بـ(كعبة نجـــران) .

هذا وقد ادى ذلك الوضع الدينى المضطرب فى بلاد العرب ، والذى كان قوامه خليط من عناصر يهودية ومسيحية ووثنية الى ان يبحث قوم عن ربهم بعيدا عن هذه الديانات جميعها ، وهكذا ظهر فى بلاد العرب ماعرف بالحنفاء - ومفردها حنيف - وهم الذين يميلون الى الحق أو الى الدين المستقيم ، أو الذين يستقبلون البيت الحرام ، أو الذين اسلموا فى أمر الله فلم يلتوا فى شىء وتتفق غالبية الاراء فى ان الحنفاء كانوا على ملة ابراهيم، ولم يكونوا يهود أو نصارى ، ومن ثم فهى ليست دينا جديدا ، وانما مجرد حركة دينية وصف اصحابها بالحنفاء اتباع ابراهيم الخليل عليه السلام ، نادوا بنبذ الاصنام والتخلص من عادات الجاهلية السيئة ، ثم الدعوة الى الايمان بالله واحد لا شريك له .

ويرجع الفضل للقرآن الكريم فى حفظ اخبار هؤلاء الحنفاء ، فلقد جاء

ذكرهم فيه فى موضعين ، الواحد فى سورة الحج ، والاخر فى سورة البينة، كما ورد فى القرآن الكريم لفظ «حنيفا» فى عشر مواضع .

وأيا ما كان الامر ، فان التيارات التوحيدية ظهرت فى بلاد العرب فى القرن السادس الميلادى بوضوح ، وعلى الرغم أن اليهودية والنصرانية قد أوجدتا الشك فى صحة الديانة الوثنية ، فانهما لم تفلحا فى ادخال تغيير جوهرى فى النظم الدينية ، وبقيت بلاد العرب تموج بهذا التعدد فى الديانات الى أن ظهر سيدنا ومولانا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ فقضى على كل اثر للوثنية ، وقدر له نجاحا بعيد المدى فى القضاء عليها .

الفصل الخامس عشر

المرأة فى المجتمع العربى القديم

المراة فى المجتمع العربى القديم

كانت القبيلة هى الوحدة السياسية والاجتماعية للنظام الاجتماعى فى بلاد العرب ، وان كانت الابحاث الجديدة تتجه الى ان الاسرة هى الوحدة الاساسية ، والسلطة العليا فيها للاب .

وفوق الاسرة كانت القبيلة ، وكـانت المصالح المشتركة والحـاجة الى الامان يخلقان أهم الملامح المميزة للمجتمع البدوى وهو وجود التماسك بين بين أفراد القبيلة الواحدة .

ويبدأ تكوين الاسرة بالزواج ، والحرص على اختيار الزوجة من ذوات الحسـب والنسب ، وان تمتاز بصفات حسنة عديدة ومنها المجـد ومكارم الاخـــلاق .

وكان العربى يفضل المرأة الولود ، ومن هنا كان ايثارهم للشابة البكر ، وقد أجابت «هند بنت الحسن الاباوية» رجلا سالها عن افضل النساء فقالت «خير النساء التى فى بطنها غـلام ، وتحمل على وركها غـلام ، ويمشى وراءها غلام»(١) .

هذا وقد كان العربى وكذا اليهودى انما يفضل أن تكون زوجته من نفس قبيلته ، وكان الدافع من وراء ذلك الرغبة فى نقاء الجنس وتمسكا بالتقاليد . وأن كان هذا لا يمنع ان يتزوج بعضـهم من الاغراب ، اعتقـادا بأن ولد الرجل من قرابته انما كان يجىء ضاويا نحيفا(٢) الى جانب ان المصاهرة بين القبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف .

---

(١) الامالى ٢٥٧/٢ ، ذيل الامانى ١٠٨/٣ ، مجلة العرب ، يونيه ١٩٦٧ ، ص ٨٠١ .

(٢) مجمع الامثال ٢٧٠/٢ ، لسان العرب ٢٢٥/١٩ ، المعانى الكبير لابن قتيبة ٥٠٢/١ .

والمراة كانت فى اغلب الاحوال تفضل الزواج من عشيرتها ، ايثار لقربها من اهلها ورغبة فى ان تقيم بوطنها ٠

وكانت الفتاة العربية وكذا قومها انما يرون ان الزوج يجب ان يكون عربيا ، ذلك لان العرب قوم ذو حمية وانفة واعتداد بالنفس والجنس ويرون انفسهم ارقى الامم واصفاها ٠

وكانت المراة البدوية فى الجاهلية تتمتع بحظ وافر من الحرية ، وكان للمرأة العربية ايضا مركزا عظيما قبل الاسلام ، ومن ثم فقد استمتعت بحق الحرية فى اختيار زوجها ، فلم تكن تتزوج بغير مشورة ، بل انها كانت فى بعض الاحايين تزوج نفسها بنفسها ،كما كانت تستطيع هجر زوجها والعودة الى أهلها ، اذ لم يحسن الزوج معاملتها(١) ٠

وهكذا رأينا «ماوية بنت عفزر» تتزوج ممن ارادت ، اذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة ، ثم اختارت واحدا منهم رأت فية الزوج المناسب لها ٠

وكانت ام الفتاة ذات راى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الاب ، وتشير عليه ، وتهتدى البنت برأيها ، وان كان هذا لا يمنعنا من القول بأن ولى امر الفتاة ، انما كان صاحب حق لاينازع فى اجبارها على الزواج بمن يريده أو يوافق عليه ، وليس لها مخالفته ، هذا فضلا على أن ابن العم انما كان مقدما على غيره فى زواج ابنة عمه(٢) ٠

وكان على الرجل أن يعين صداق ويسمى مقداره ويقدمه للمراة التى ستصبح زوجة له ثم يعقد عليها ، كما كان يقدم لها مهرا ، وان كان ولى امرها هو الذى يأخذه لينفق منة على ما يشترى لتأخذه المرأة معها الى بيت الزوجية ، وقد يأخذ ولى أمرها المهر لنفسه ، لاعتقاده ان ذلك حق يعود اليه(٣) ٠

---

(١) محمد بيومى مهران ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ٣٠ ٠

(٢) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/٥٢٧ ، ٥٣٠ ٠

(٣) جواد على ٥/٥٣١ ٠

ولم يكن للمهر عند العرب حد معلوم وانما كان يتوقف على قدرة الرجل المالية وعلى مكـانة أسرة العروس ، وقد بلغ احيانا مـائة من الابل ، أو خمسين ومائة ، وربما زاد عن ذلك أو قل .

وكان عند العرب قبل الاسلام انواع عديدة للزواج نذكر منهـا الزواج المألوف حاليا بما يتضمن من خطبة ومهر وايجاب وقبول ، ونكاح الفيزن (نكاح المقت) ونكاح المتعة وزواج البدل وزواج الشـغار وزواج الاستبضاع وزواج الظعينة وزواج الاماء .

وفيما يتعلق بالمجتمعات ، فقد حرم العرب القدامى على انفسهم أنواعا من الاقارب ، طبقا لقاعدة عامة ، هى مراعاة علاقة الاصل بالفرع ، فـلا يجوز نكاح الاب لابنته ولا الجد لحفيدته ، ولا يجوز للام ان تتزوج ولدها ، ولا للجدة ان تتزوج حفيدها ، ولا للاخ ان يتزوج اخته ، مراعاة لعـلاقة الاصل بالفرع ، وهكذا حرم القوم نكاح الامهات والبنات والأخوات والعمات والخالات(١) . هذا وقد حرم القـوم زواج الرجل من ابنة اخيه أو أخته . والجـدير بالذكر ان التحريم عنـد العرب لـم يكن مقصورا على الابنـاء الحقيقيين ، وانما شمل كذلك حالات التبنى ، كما انهم ورغم اباحتهم الجمع بين الاختين ، فانهم انما كانوا يبغضون هذا النوع من الزواج . كما بغضوا زواج امرأة الاب(٢) .

وعرف العرب قبل الاسلام مثلهم مثل بقية الشعوب تعدد الزوجات ، فقد كان الواحد منهم لا يكتفى بالزوجة الواحدة ، وانما يتزوج باكبر عدد ممكن من النساء ، بقصد انجاب عدد كبير من المقاتلين لجماعته التى ينتسب اليها ، أو بقصد اعالة هؤلاء النسـوة او الرغبة فى الارتباط بالمصاهرة مع القبائل الاخرى(٣) . ورغم ذلك فقد كان للاعتبارات الاقتصادية اثرها فى الحد من مبدأ التعدد ، اذ انه ليس من اليسير اعالة أسرة كبيرة فى الصحراء .

---

(١) ابو الفداء ٩٩/١ ، الملل والنحل ٣٣١/٣ ، جواد على ٥٢٨/٥ .
(٢) الملل والنحل ٢٣١/٣ ، المحبر ص ٣٢٧ .
(٣) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٦١٠ .

هذا وقد عرف العرب قبل الاسلام الطلاق ـ كما عرفوا الزواج ـ وهو من المصطلحات القديمة عندهم ، ويعنى تنازل الرجل عن كل حقوقه التى كانت على زوجه ومفارقته لها(١) . وكان للطلاق اسباب كثيرة ، منها ان الرجل قد لا يانس الى امراته ولا يجد فيها الصفات التى يبغيها ، ومنها ايضا زوال شباب وجمال المراة ، او تطاولها على عشيرة زوجها .

وكان الطلاق ، حلة وعقده ، بيد الرجل ، ولكن فى بعض الاحايين كان يمكن للمرأة ان تطلب الطلاق وتجاب الى طلبها ، بل من حقها ان تشترط ان تكون العصمة فى يدها . ومن ابرز النسوة اللاتى كان لهن حق الطلاق ، سلمى بنت عمرو بن زيد ، فقد كانت لا تتزوج الا وامرها بيدها .

وهناك أنواع مختلفة من الطلاق منها مايعرف باسم الطلاق الشائع ، وهو طلاق المرأة ثلاثا على التفرقة ، فكان الرجل يطلق امراته تطليقة ثم هو احق بها ، فان طلقها اثنتين فهو احق بها ايضا ، فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها(٢) . وكان بامكان الرجل الرجوع الى زوجته بعد الطلاق الثالث ان تزوجت بعد ذلك من رجل غريب وكان هناك نوع آخر من الطلاق عرف باسم «الظهار» : كان يقول الرجل لامراته «انت على كظهر امى أو كبطنها أو كفخذها أو كفرجها» فيقع بذلك الظهار ، اى تحريم المرأة على زوجها تحريما مؤبدا . بل فان العرب كانوا يعدون الظهار من أشد أنواع الطلاق تحريما(٣) . ومن أنواع الطلاق ايضا ما عرف باسم «الايلاء» وهو القسم على ترك المرأة مدة ـ شهور ـ أو سنة ـ ايذاء لها فلا يقربها(٤) . ويعد «الخلع» من أنواع الطلاق فى الجاهلية وكان يعنى ان تفتدى المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه اذا اساء عشرتها(٥) . وعرف العرب «العدة» وهى من الامور التى تتصل بالطلاق ، وهى تلك الفترة التى يسمح فيها

---

(١) تاج العروس ٤١١/١ ، اللسان ٦٤٤/١ .
(٢) الحوفى ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .
(٣) جواد على ٥٥١/٦ .
(٤) اللسان ٤٣/١٨ ، تفسير ابن كثير ٢٦٨/١ .
(٥) الحوفى ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

للمراة بان تتزوج بعد طلاقها وكذا بعد وفاة زوجها استبراء للرحم ومحافظة على النسب(١) • وان كان البعض من المؤرخين ينكر معرفة العرب فى الجاهلية للعدة بالنسبة للمطلقة.ولم يكن للمطلقة فى الجاهلية نفقة ولاسكن بعد طلاقها من زوجها •

ويذهب المؤرخون المسلمون الى ان العرب القدامى انما كانوا ينظرون الى المرأة وكانها قناع ، وكانوا يحرمونها أيما نصيب من ارث زوجها المتوفى ، او اى نصيب من انسبائها ، بل انها هى نفسها كانت تورث كجزء لا يتجزأ من تركة المتوفى(٢) • لان العرف الشائع عندهم أن النساء ، وكذلك الصغار من الغلمان ـ لا يرثون ، ومن ثم فالارث انما هو مقصور على «من طاعن بالرمح وزاد على الحوزه ، وحاز الغنيمة»(٣) •

على ان الامر ربما لم يكن كما صوره هؤلاء المؤرخون ، فهناك بعض الادلة التى تشير الى توريث البنات فى الجاهلية ومنها ما يرويه ابن حبيب من ان عامر بن حشم بن غنم ، قد ورث ماله لولده فى الجاهلية للذكر مثل حظ الانثيين(٤) • كذلك فان «ضباعة بنت عامر» قد ورثت من زوجها مالا كثيرا ورجعت به الى قومها(٥) •

وفيما يتعلق بامر الملكية الفردية بالنسبة للمراة العربية ، فهو امر ثابت مؤكد ، وهناك نص نبطى آرخ بالعام الخامس والاربعين من عهد الملك «الحارث الرابع» (٩ ق٠م ـ ٤٠م) ويتحدث عن قبر شادة رجل يدعى «غانم» وزوجه «ارسكسه» ، وكان لغانم هذا ثلث القبر ، بينما لزوجه الثلثان ، ويؤكد هذا النص على تمتع الزوجة باهلية التملك الفردى ، دون فرض ولاية الزوج بالضرورة عليه ، بل فان نصيب الزوجة قد زاد على نصيب زوجها(٦) •

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٠ •
(٢) محمد على ، المرجع السابق ، ص ٢٨ •
(٣) جواد على ، ٥٦٢/٥ ـ ٥٦٣ •
(٤) المحبر ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ •
(٥) اشعار النساء للمرزبانى ص ٢٤ •
(٦) عبد العزيز صالح ، المراة فى النصوص والاثار العربية القديمة ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص ١٥ ـ ١٧ •

وعلى الرغم من مكانة المرأة العربية فى مجتمعها وما كانت تتمتع به من حقوق ، الا ان العرب كانوا يفضلون الذكور على الاناث ، ومن ثم فاذا ولدت المرأة ولدا هنأها افراد القبيلة وذبحوا الزبائح ، اما اذا انجبت بنتا ، فكانوا ينفرون منها خوفا من العار ، أو أن يسبين فى الحروب أو خشية الاملاق . وقد وصل بغض بعض الجاهليين للانثى الى حد الوآد بعد ولادتهن مباشرة . ويقدم الباحثون عدة اسباب دفعت العرب الى وأد بناتهم ومنها الخوف من الفقر والعجز عن الانفاق على الذكور وعلى الاناث معا ، كما ان الخوف من وقوع البنت فى الغواية ، فتلحق السبة باهلها وعشيرتها وقبيلتها وكان ايضا من اسباب وآد البنات ، الى جانب شعور العربى فى الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذى تجلبه البنت اذا كبرت وتعرضت للسبى .

وعرفت المرأة العربية فى الجاهلية الحجاب ، مثلها مثل سائر نساء عصرها فى جميع البلدان ، فوجدت النساء السافرات ،وآخريات متحجبات ، وكان الحجاب كما هو واضح من العديد من الادلة عبارة عن ثوب طويل ينزل حتى العرقوب ، وبرقع يغطى به الوجه(١) .

ثانيا ـ مكانة المرأة العربية :

بلغت مكانة المرأة عند العرب درجة تسمح لها أن تشارك فى الاحلاف التى تعقد بينهم ، ومن ذلك حلف الاحابيش الذى عقده «عبد مناف بن قصى» مع خزاعة ، وبنى الحارث من عبد مناة من كنانة وقد اشتركت فيه «عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان» زوجة عبد مناف . بل هى التى جرى الحلف على يديها(٢) . كذلك كانت المرأة تعد من «المجيرات» فكانت تجرن كالرجال تماما ، فيقبل جوارهن ويحمين الرجال ، ويصان حماهن .

وكان للمرأة سواء كانت أما او اختا أو زوجة مكانتها عند العرب ، فقد رأينا بعض الملوك ينسبون الى امهاتهم وكذلك بعض الافراد ، بل لم يقتصر

---

(١) محمد بيومى مهران ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .
(٢) تاج العروس ٤/١٣٠ ـ تاريخ الطبرى ٢/٥٠١ .

الامر على ذلك ، بل أننا نجد قبائل بأسرها تنسب الى أمهاتهم ، كذلك كان للام تاثير كبير فى ابنائها ، حتى أن هناك بعضا من مشاهير العرب انما قد غيروا ديانتهم بتاثير من امهاتهم . كذلك كانت الزوجة العربية تحتل مكانة هامة عند زوجها ، اذ كان الرجل ينظر الى زوجة على أنها شريك فى الحياة جدير بالرعاية والحب والاعزاز ، وكان يحسن عشرتها ، ويستمع فى كثير من الاحيان الى مشورتها .



المراجـــع المختـــارة

أولا : المراجـــع العربية

- القرآن الكريم .

- التـــــوراة .

- ابن الاثير (عز الدين ابو الحسن على الشيبانى) : الكامل فى التاريخ. (الجزء الاول والثانى) - بيروت ١٩٦٥ .

- ابن الكلبى (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الاصنـام - الدار القومية - القـاهرة ١٩٦٥ .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٩٥٧ .

- ابن عبد ربه (ابو عمر أحمد بن محمد الاندلسى) : العقد الفريد - القـــاهرة ١٩٥٣ .

- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : البـداية والنهاية فى التاريخ (الاجزاء ١ - ٤) - بيروت ١٩٦٦ .

- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم) : لسان العرب - بيروت ١٩٥٥ .

- أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر - الجزء الاول - القاهرة ١٣٢٥ هـ .

- ايليا حاوى : امرؤ القيس - بيروت ١٩٧٠ .

- الدكتور أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجـاهلية وعصر الرســول ، القاهرة ١٩٦٥ .

ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ـ بيروت ١٩٦٩ ٠

ـ الدكتور احمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠

ـ الدكتور أحمد فخرى : معبد المساجد ببلاد مراد (المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية المنعقد فى فاس فى نوفمبر ١٩٥٩) ـ القاهرة ١٩٦١٠

ـ الدكتور أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

ـ الدكتور اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ـ القاهرة ١٩٢٧ ٠

ـ الدكتور اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ـ القاهرة ١٩٢٩٠

ـ الاصفهانى (أبو الفرج على بن الهيثم) : الاغانى ـ القاهرة ١٩٢٩٠

ـ الازرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله) : أخبار مكة وما جاء فيها من ألآثار (جزءان) ـ بيروت ١٩٦٩ ٠

ـ السهيلى (عبد الرحمن بن عبد الله) : الروض الانف ـ القاهرة ١٩٧١ ٠

ـ الدكتور السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب ـ الجزء الاول ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ مؤسسة شباب الجامعة ـ الاسكندرية ٠

ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):تاريخ الرسل والملوك (الاجزاء ٦ ـ ٤) ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ ٠

ـ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : التنبيه والاشراف ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

ـ المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : أخبار الزمان ـ بيروت ١٩٦٦ ٠

ـ الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل ـ الجزء الاول ـ تحقيق محمد بن على الاكوع ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

ـ الهمدانى (ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل ـ الجزء الثانى ـ تحقيق محمد بن على الاكوع ـ القاهرة ١٩٦٦ ٠

ـ الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الاكليل ـ الجزء الثامن ـ نشرة نبيه فارس ـ بغداد ١٩٣١ ٠

ـ الهمدانى (أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب) : الاكليل ـ الجزء العاشر ـ نشرة محب الدين الخطيب ـ القاهرة ١٣٦٨ هـ ٠

ـ الهمدانى (ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقـوب) : صفة جزيرة العرب ـ تحقيق محمد بن على الاكوع ـ الرياض ١٩٧٤ ٠

ـ اليعقوبى (أحمـد بن أبى يعقـوب بن جعفر) : تاريـخ اليعقوبى ـ الجزء الاول والثانى ـ بيروت ١٩٦٠ ٠

ـ جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٦٨ ٠

ـ جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ـ القاهرة ١٩٢٢ ٠

ـ الدكتور جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء) بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ٠

ـ الدكتور جـودة حسنين جودة : شـبه الجزيرة العربية ، دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ٠

ـ الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ـ الاسكندرية ١٩٧١ ٠

ـ حسين عبد الله باسلامه : تاريخ الكعبة المعظمة ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

ـ الدكتور خليل يحيى نامى : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ـ القاهرة ١٩٤٣ ٠

ـ الدكتور خليل يحيى نامى : نقوش خربة معين ـ القاهرة ١٩٥٢ ٠

ـ رئيف خورى : امرؤ القيس ـ بيروت ١٩٣٤ ٠

ـ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٧٥ ٠

ـ صلاح البكرى : تاريخ حضرموت السياسى ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ ٠

ـ الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ مصر والعراق ـ القاهرة ١٩٧٣ ٠

ـ الدكتور عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة فى عصورها القديمة، القاهرة ١٩٨٨ ٠

ـ الدكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

ـ الدكتور على حسنى الخربوطلى : الكعبة على مر العصور ـ مجموعة اقرأ ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

ـ الدكتور عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ٠

ـ فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ـ الرياض ١٩٦٨ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ـ الجزء الثانى ـ اسرائيل ـ القاهرة ١٩٧٣ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الاصلى ـ مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد الرابع ـ الرياض ١٩٧٤ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد الخامس ـ الرياض ١٩٧٥ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ـ مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد السادس ـ الرياض ١٩٧٦ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : دراسة حول الديانة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٧٨ ٠

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات فى التاريخ القرآنى ـ الجزء الاول ـ فى بلاد العرب ـ ١٩٨٠ .

ـ الدكتـور محمـد بيومى مهران : الحضـارة العربية القـديمة ، الاسكندرية ١٩٨٨ .

ـ الدكتور محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الاسكندرية ١٩٩٤ .

ـ الدكتور محمد عبد القادر : الساميون فى العصور القديمة ـ القاهرة ١٩٦٨ .

ـ محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ـ عصر ما قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٥٢ .

ـ الدكتور مصطفى العبادى : تاريخ العرب قبل الاسلام ، غير منشور، بيروت ١٩٨٤ .

ـ نشوان بن سعيد الحميرى : ملوك حمير واقيـال اليمن ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ .

ـ وهب بن منبه : كتاب التيجان فى ملوك حمير ـ حيدر أباد الدكن ١٣٤٧ هـ .

ـ ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان (خمسة اجزاء) ـ بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ .

ثانيا : المراجع المترجمة الى اللغة العربية

- ادوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد على ابو ريدة ـ القاهرة ١٩٦٩ .

- آرثر كريستنسى : ايران فى عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٥٧ .

- برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف ـ بيروت ١٩٥٤ .

- تيودور نولدكه : امراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين زريق وبندلى خورى ـ بيروت ١٩٣٣ .

- جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدرى قلعجى ـ بيروت ١٩٦٣ .

- جون الدر : الاحجار تتكلم ، ترجمة الدكتور عزت زكى ـ القاهرة ١٩٦٠ .

- ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين ـ القاهرة ١٩٥٨ .

- ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى ـ العصر الجاهلى ـ ترجمة الدكتور ابراهيم كيلانى : بيروت ١٩٥٦ .

- رينيه ديسو : العرب فى سورية قبل الاسلام ـ ترجمة عبد الحميد الدواخلى ـ القاهرة ١٩٥٩ .

- سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة : ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٦٨ .

ـ فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ الجزء الاول ـ ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ ٠

ـ فيليب حتى : تاريخ العرب ـ الجزء الاول (مطول) ـ ترجمة ادوارد جرجى ، جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٦٥ ٠

ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ـ ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١ ٠

وند لفيلييس : كنوز مدينة بلقيس ، قصة اكتشاف مدينة سبأ الاثرية فى اليمن ، ترجمة عمر الديرادى ـ بيروت ١٩٦١ ٠

ـ يوسبيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ـ القاهرة ١٩٦٠ ٠

ـ يوسفيوس : تاريخ يوسفيوس ـ دار صادر ـ بيروت ٠

ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٩ ٠

ثالثا : المراجع الاجنبية

— Abbot (Nabia), Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.

— Albright, (W. F.), The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, in BASOR, 119. 1950.

— Albright, (W.F.), A Note on Early Sabaean Chronology in BASOR, 143, 1956.

— Barton, (G. A.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924.

— Barton, (G. A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.

— Bowen (R. L.) and Albright (F.); Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958.

— Burton (R. F.), Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, London, 1929.

— Bury (J. B.) A History of the Eastern Roman Empire, The Fall of Irene to the Accession of Basil, I (802-867), London, 1912.

— Bury (J. B.), A History of the Later Roman Empire, From Arcadius to Irene (895-800), 2 Vols., London, 1931

— Buxton, (L. H. D.), The People of Asia, London, 1925

— Cantineau (J.), Inventaire des Inscriptions de Palmyre, Paris, 1936.

— Cook (S. A.), in The Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965.

— Cook (G. A.), A Text-Book of North-Semitio Inscriptions Moabite, Hebrew, Phoenician, Arainaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.

— Cooke (G. A.), Palmyra, in EB, 17, 1964.

— Caskel (W.), Lihyan und Lihyanisch, Koln, 1954.

— Cornwall (P. B.), Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941.

— Dhrome (E.), Palmyra dans les Textes Assyriens, RB, 1924.

— Dozy (R.), Die Israeliten Zu Mekka, 1864.

— Dussaud (R.), Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.

— Dussaud (R.), la Penetration des Arabes an Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.

— Fakhry (A.), An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols. Cairo, 1952.

— Gibbon (E.), The Decline and Fall of the Roman Empire. London, 1950.

— Hastings (J.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921.

— Halevy (J.), Rapport Sur une Mission Archeologique dans le Yemen, JA, VI, Paris, 1872.

— Hitti (P. K.), History of Arabs, London, 1960.

— Hogarth (D. G.), A History of Arabia, Oxford, 1922.

— Hommel (F.), Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903.

— Huzayyin (S. A.), Arabia aud the Far East, Cairo, 1942.

— Jamme (A.), A New Chronology of the Qatabanian Kingdom, BASOR, 120, 1950.

— Jamme (A.), South Arabian Inscription, Princeton, 1955.

— Jamme (A.), A New Sabaean Inscription from South Arabia, 1968.

— Jamme (A.), Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1961.

— Littmann (E.), Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, 1914.

— Littmann (E.), Nabataen Inscriptions from Egypt, BSOAS, 1953.

— Luckenbill (D. D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.

— Moritz (B.), Arabien, Hanover, 1923.

— Moscati (S.), The Semites in Ancient History, Cardiff, 1959.

— Moscati (S.), Ancient Semitic Civilizations, London, 1957.

— Musil (A.), Palmyrena, N. Y., 1928.

— Philby (J. B.), Sheba's Daughters, London, 1939.

— Philby (J. B.), The Lsnd of Sheba, GJ, 92, 1938.

— Philby (J. B.), The Background of Islam, Alexandria, 1947.

— Philby (J. B.), South Arabian Chronology, le Museon, LXII, 1949.

— Philby (J. B.), Qataban and Sheba, London, 1955.

— Pliny, Natural History, Trans. by H. Rackham, London, 1954-7.

— Ptolemy, Geographia, Edited by C. F. Nobbe. 3 Vols Leipzig. 1843-1845.

— Sprenger (A.), The Campaign of Aelius Gallus, JRAS, London, 1873.

— Strabo, The Geography of Strabo, Trans by H. L. Jones, 8 Vols., London, 1949.

— Tarn (W. W.), Ptolemy II and Arabia, JEA, 15, 1929.

— Winnett (F. V.) and Reed (W.), Ancient Records from Norht Arabia, Toronto, 1970.

— Wright (E.), The Bible and the Ancient Near East, N. Y., 1965.

— Encyclopaedia Biblica.

— Encyclipaedia Britannica.

— Encyclopaedia of Religion and Ethics.

— Encyclopaedia of Islam.



الخـــرائط



خريطة رقم (١)

بـــــلاد العـــرب

مأخوذة من كتاب «فى تاريخ العرب قبل الاسلام»
للاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد



خريطة رقم (٢)

اليمن والحبشـــــــة

ماخوذه من كتاب «الحضارات السامية القديمة»

تاليف سبتينو موسكاتى وترجمة يعقوب بكر



خريطة رقم (٣)

شمـــال الحجـــاز

مأخوذة من كتاب «فى تاريخ العرب قبل الاسلام»

للاستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

محتويات الكتاب